رجـال في الظـلال

رجال في الظلال

عبدالرحمن توفيق

اسم الكتاب: رجال في الظلال
اسم الكاتب: عبدالرحمن توفيق
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 11162
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85718 – 6 – 8

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الإهداء:

إلى أحمد خالد توفيق..

أنت المعلم الذي لم اقابله.

إلى فرانز كافكا..

جميعنا صغار في أعين عمالقة هذا العالم.

إلى فينسنت فان جوخ..

كل شيء مكرر في الحياة يذكرني بأوراق الخريف المتساقطة.

الفصل الأول

عندما دلف علي غسان باب زنزانته لأول مرة أدرك أنه لن يرجع كما كان أبدا، سيتغير ككل شيء، أستلم مفرشا من الكتان الرمادي الخشن، وبذلة زرقاء كزرقة نهر صاف، لها غطاء رأس من نفس اللون، ودفعه الشاويش هارون إلى الداخل ثم عبس بشاربه الكث ونطق بشفتيه الغليظتين:

– مسجون جديد.

قضى يومه مكتئبا على الرغم من درايته بأنه ليس كبقية السجناء، لكن السجن هو السجن، والحيطان هي نفس الحيطان، طويلة وصماء، باردة في الشتاء كلوح ثلج، وساخنة في الصيف كمقلاة سمك، يوم فارق أمه منذ سنوات اعتقد أنه كان اليوم الأسوأ في حياته، لكنّه كان مخطئا؛ فاليوم أدرك حقيقة مبالغات الفراق، ليلته الأولى هنا كانت طويلة وكئيبة وباردة بما لا يحتمل، حاول والده تحسين ظروف أول يوم له في السجن لكنه رفض قبل الدخول محادثته من الأساس، وقد طلب منه بعد علمه بتنفيذ الحكم ألا يتدخل؛ يريد قضاء اليوم على طريقة الحبس، البرودة اللعينة تسللت إليه من كل مكان، حك أصابع قدميه طوال الليل طلبا للدفء، وغطاءه البالي لم ينجح في تخفيف معاناته، حتى الرجل فوقه كان يشخّر بطريقة بشعة، أصابه

أحساس بالندم لرفض مساعدة والده، لكنه سرعان ما تذكّر عهده لنفسه، عهده بتحمل مرارة الانكسار وحده دون مساعدة، تلك المرارة التي ستغلي بصدره غضبا يشعل فتيل الانتقام، لو كان في سريره الآن لشاهد القمر لتهدئة نفسه، وهنا عليه تحمّل بشاعة الألفاظ البذيئة المنقوشة على الحيطان كجداريات متلاحمة، في اليوم التالي كانت عيناه متشحتان بالأرق، جاهد لإخفاء عدم الاحتمال، تناول الطعام السيء، وتجرّع النوم في البرد، وبالطبع أعمال السجن أرغمته على إذلال نفسه بشكل مهين، سلّم بالحقيقة التي لطالما أراد تجاهلها، المال والنفوذ يصنعان حياة أفضل وأكثر راحة، أما الحب فهو كذبة الفقراء وحلم المترفين، مظهره في البذلة الزرقاء كان مثيرا للشفقة، ومدعاة لتعجب النزلاء، شعره الأشقر القاتم الناعم جعلهم يسخرون منه، لكنه سرعان ما حلق شعر رأسه حتى أقسم من دلفوا السجن بعده أنهم لم يرونه طويلا أبدا، وكان قد ورثه عن أمه، وبشرته شديدة البياض في الشتاء تقرحت بفعل شمس الصيف وامتلأت حبوبا حمراء تجيء وتذهب بغير انتظام، إضافة إلى البعوض المتمرس في قضم الجلد وتسريب الدم لمعدته الشبيهة بأنابيب دقيقة، بالإضافة لبشرته وشعره فلديه أنف دقيق ظل لونه أحمر طوال الشتاء نتيجة البرد الذي لم تفلح العقاقير في صده، حتى أكتسب عادة مسح سيلان أنفه في أكمام بذلته بطريقة لم يتخيل يوما أن يفعلها، يتمتع بسرعة بديهة عالية، عيناه الزرقاوان الواسعتان تتقدان ذكاء ممزوجا بكبرياء موروث، عيناه السريعتان تتابعان كل شيء، تغيرت نظرته الباسمة بمرور

الوقت، وتحولت نظراته إلى ازدراء تام لكل شيء، فكان لا يبالي ولا يتأثر لشيء، كانت به مسحة طيبة تحولت مع الأيام هنا إلى هدوء حذر، مارس التمرينات البدنية بانتظام وتعلّم تناول شتى أنواع الطعام بنهم ذئب جائع، لم يتحول هكذا دفعة واحدة، في البداية أمتنع عن الطعام ومرّ بفترة عصيبة، حتى لاحظ عم جميل وهنه، وعم جميل هو رجل في سن الخمسين على الأغلب وشعره أبيض ينمو على جانبي رأسه الأصلع، له عظام عين ضخمة حتى تظن عيناه غائصتان في محجريها، بنيته ضخمة كملاكم متقاعد، وظهره أحدب قليلا بفعل بقايا عضلات ظهره التي أرهق شبابه في بناءها، ولا زالت أعصابه قوية فقد عرف علي بعد ذلك أنه هزم الشاويش هارون في مصارعة الأيدي دون جهد، على الرغم من كون الأخير بحجم دب عملاق.

لا أحد يعرف فيما دخل السجن لكنه سمع أحدهم يقسم أنه قتل ثلاثة رجال دفعة واحدة أثناء محاولة للهرب من جريمة سرقة، يطلقون عليه عم جميل خوفا وليس وقارا فحسب، بادر عم جميل بالحديث معه وأخبره بشيء لن ينساه، حقيقة التأقلم التي نشأت عليها الطبيعة، فلو رفض الواقع فسينقرض ولو كان بحجم الديناصورات، ولو تأقّلم معها لنجى ولو كان بجبن الفئران، رفض الزيارات لمدة أربعة أشهر، وفي الشهر الخامس زاره أخاه الأكبر قاسم غسان ونال التعجب منه منال كبيرا، في البداية لم يصدّق غسان عندما أخبره قاسم حول زيادة وزن علي وشدة عوده، أعتقد الجميع

أن الصدمات ستكسر الولد المنعّم، لكن سرعان ما أدركوا أنه تحول خلقا آخر، خاصة عندما زاره قاسم مرة أخرى بنفسه ليجد عيناه ثابتتان لا تطرفان إلا قليلا، تنظران إلى كل شيء بخواء لا اهتمام فيه، رفض مساعدة والده وأخبره أن يهتم فقط بشؤون العائلة، ولا يحمل هما عليه فقد تغير بما يتناسب مع حاله الجديد، لم يتمالك غسان أعصابه فحتى في سن الخمسين ورغما عن ضعف نظره فقد أستطاع رؤية البقع على طاقية ولده، والرقع ببذلته، ولما أراد توبيخه تركه علي دون أن يلتفت إليه ولم يرمش له جفن.

يومها عاد غسان إلى المنزل وجلس على أريكته الخشبية الضخمة والمطرز قماشها بالحرير على شكل حصان، جلس فوقها حتى صلاة المغرب دون تناول لقمة واحدة، وفي المساء تناول كوبا من الشاي وحكى لغسان المقابلة بروية شديدة كحكايات الأطفال قبل النوم، وأخفوا الخبر عن بقية أفراد العائلة منعا للحيرة، وأثناء العشاء ساد هدوء حذر والتهم غسان وجبته دون شهية، ثم توجه للنوم بلا مقدمات، يوم على في السجن كان روتينياً بشكل كبير، في النهار الباكر يقومون بأعمال اليوم، أما النجارة بتلك المناشير الصلبة والثابتة، ذات الأذرع الخشبية متأكلة الحواف، أو الحدادة، أو العمل في المحاجر بفؤوس معدنية ضخمة، ساد عند على فكرة غريبة حول صلابة الصخور في النهار أكثر من الليل، ظل يفكر في الأمر أياما لكنه في النهاية ضحك أثناء التفكير كمن رجع إليه عقله وقال:

- يا لها من فكرة سخيفة.

أعمال التنظيف كانت غير شاقة لكنها مذلّة كما يطلق عليها عم جميل، أما العمل في المطبخ فقد كان حلما لكل نزيل لا يناله إلا الموصي عليهم، هي أشغال شاقة تهلك البدن، لكن عم جميل لم يشترك في العمل أبدا، كانت له سلطة غريبة وشخصية ذات طابع مميز، دائما ما يستشيره الجميع في كل صغيرة أو كبيرة.

كان لعم جميل رفيق دائم من النزلاء، يمشي إلى جواره كظله، ضخم وله رأس مربع الشكل كإسفنجة واسمه عزوز، له ذراع مفتول العضلات وصلب كحجر، في البداية أعتقد أن جميل وحارسه مأجوران من قبل والده لحمايته، لكن عندما تشاجر مع عزوز أثناء تناول الطعام فقد اشتكت كل عظمة في جسده، لم يقف مكتوف الأيدي بالطبع لكن الوغد كان محترفا في تكسير العظام بشكل مرعب، أعتذر له جميل فيما بعد في بادرة لم يصدّق أحد أنها حدثت، وعندما حكاها سيد مشرط لم يصدّقه أحد أيضا، فالحقير كان كاذبا محترفا والجميع يعرف مما زاد شكهم في الواقعة، فمشرط بإمكانه تلفيق قصص حول زيارة القمر بشكل منسجم ومتسق، لكنهم صدّقوا عندما سألوا عزوز نفسه عن الأمر فأقرّ بحدوثه دون مراوغة وبلا تردد، ومن ساعتها فقد أكتسب علي قدرا كبيرا من الاحترام والتقدير، لكن الشاويش لم يعفيه من الأشغال كما يفعل مع جميل على الرغم من صداقتهم المعلنة والواضحة للجميع، والغريب هو عدم مطالبة علي بالإعفاء من الأعمال، فلم يطلبها من جميل ولا من هارون، وظل الأمر يثير ريبة النزلاء حتى

توقفوا عن التفكير فيه وبقى دائما دون إجابة، بعد الانتهاء من الأعمال يذهب النزلاء لتناول الطعام، دافئا في ليالي الشتاء وشديد صعوبة الهضم، شربة العدس أصبحت غذاء مفضّلا لعلي، فأرغفة الخبز ليس حالها بالسوء الكبير، وفي الصيف لا يختلف الوضع كثيرا، كان ازدياد وزن علي له علاقة وثيقة الصلة بالتوصية عليه في وجبة الغذاء، لكنه أبدا لم يعرف إلا عندما شتمه أحدهم ووصفه بكلب جميل، لم يتمالك أعصابه وأراد تهشيم عظام جمجمته، ظل يتخيل الدم يتدفق من رأس ذاك الوغد الدنيء الذي نعته بهذا اللقب، لكنه لم يفعل به شرا أبدا، فقد أخبره جميل في مساء نفس اليوم وأثناء جلسة حديث مع بقية أصدقائهم من النزلاء بنصيحة أخرى هامة كان عليه أن يحفظها، قال له بصوته الدافئ:

– لا تضمر له الضغينة وإلا ستأكل من جسدك أنت، لو أردت الانتقام فعليك كراهيته بشكل حكيم لا يعمي عينيك عن الظفر به، ولو أردت فأفعلها لكن لا تندم بعدها أبدا، في النهاية هو عود أعوج لا يستحق سوى الشد عليه دون كسره، بعدها سيخافك وسيظل عبرة حية للجميع.

عندما حانت فترة المشي التي كان يستغلها في التعلم من جميل، وعندما أقترب الفتى بما فيه الكفاية، انقض علي عليه وصرعه أرضا، ظلت الابتسامة مرتسمة على قسمات وجهه حتى في الحبس المنفرد، فلأول مرة يأخذ حقه بيديه، لم يصل غسان علما بالأمر فقد أخفي قاسم الخبر، وعندما خرج علي من الحبس المنفرد قام قاسم بزيارته فوجد رأسه مصابة بكدمة،

وعينه اليسرى متورمة، لكنه كان يبتسم بشكل بارد غير مبال لشيء، تغيرت طباع حديثه فصار يحرك يداه كثيرا حكا لوجهه وشعر ذقنه النابت بانتظام، ويديه الممتلئتان بآثار لدغات البعوض، لم يبصره قاسم راضيا عن نفسه هكذا مذ توفت والدته في الحادثة المشؤومة، ثم عاد إلى المنزل وأخبر الجميع بكلمات مقتضبة:

- إنه بخير لكنه لا يريد مزيدا من الزيارات.

عندما أنهي علي الزيارة عاد ليقابل عم جميل الذي استقبله بابتسامة عريضة، احتضنه وأجلسه جواره على مصطبة في الحوش لم يجلس أحد غيرهما عليها، حتى عزوز كان يجلس على الأرض جانب المصطبة طوال السنوات التي قضياها هنا، وبالتأكيد لم يجرؤ أحد على منازعته مجلسه الموقّر، يوم بعد يوم تصبح الحياة في غرفة الحبس شيئا روتينيا، تستيقظ في الموعد وتعمل بحركات آلية محفوظة، الأسوأ بالنسبة لعلي دائما كان النوم، ينام على السرير العلوى مقابلا للسقف المتآكلة ألوانه بفعل الرطوبة الشديدة، وتحت رأسه يستقر رأس خميس العليمي، الرجل الذى منذ مجيئه حوّل النوم إلى حلما جميلا صعب المنال؛ فشخيره عال بشكل منفّر، وغالبا ما يستيقظ صارخا من كابوس مروع، يجعل العنبر بأكمله ينتفض مذعورا، لو كان أحد غيره لجعلوه مسخا، لكنه بهيئته الرثة ومشيئته العرجاء يثير الخيفة في النفس، إضافة إلى أحاديثه مع أشخاص غير موجودين وبصوت مسموع، وله تحركات تشبه تشنجات الجسد المحموم، شكواه للجميع من زوجته

المتوفاة التي تواظب على زيارته، والتفاتات رقبته بشكل هيستيري مريب، اعتقد الجميع في البداية أنه يمثّل دور المعتوه ليفلت من المشكلات ويتجنب المضايقات السخيفة، وربما أيضا ليكسب شفقة الشاويش ويهنئ بعطفه، وقد صدموا عندما أدركوا أن الرجل معتوه بحق.

صرخ علي بشكل هيستيري عندما أوقظه يوم خرج من الحبس الانفرادي لأول مرة، صرخ المجنون صرخة مدوية جعلت علي ينتفض فزعاً، ثم صاح:

: اللعنة فنوم الحبس الانفرادي أجمل وأسهل.

وحينها تضاحك من استيقظوا أنصاف نيام بأعين تسب كل ما له علاقة بالكوابيس، أقترب عبد الكريم الحانوتي من سرير خميس بوقار معتاد في مشيته الرتيبة، وجلس جواره يقرأ له آية الكرسي بصوت يميل إلى الخشونة منه إلى الخشوع، ثم أمسك بكتفه المنتفض وصاح كمشعوذ.

- يا رجل نريد النوم مرة واحدة دون أن تفزعنا.

لم يجب خميس وعاد مرة أخرى إلى وضعية نومه الشبيهة لوضع الجنين في بطن أمه، وأخذ يهيم برأسه يمينا ويسارا، ثم عندما تحرك عبد الكريم من أمامه وقبل أن يصعد نحو مخدعه، أجابه فجأة حينما أدرك السؤال فيما يبدو:

- سأنام في هدوء هذه المرة.

فهمهم أحدهم:

- مكانك ليس هنا يا مجنون.

وقال آخر:

- هذا الأبله مكانه مستشفى المجاذيب.

حينها تخيّل علي رجل يرتدى معطف أبيض طويل يصل حتى ركبتيه، يمسك بخميس بينما يتملص منه المسكين كفأر وقع في مصيدة، وقد أشفق عليه فقال بصوت حازم ومسموع للجميع:

- كفي ودعوه ينام.

في الصباح عندما أدركت الشمس الخجولة محبسه الكئيب، أستفاق ليجد عبد الكريم يقرأ على رأس الرجل المعوذتين باهتمام محفوف بخوف، عندما لاحظ وجود علي همس له:

- من يدرى فربما أصابه المس.

علي لم يتأثر كثيرا خلافا لعبد الكريم، فعبد الكريم ومنذ صباه يرتجف بردا عندما يقول تلك الكلمة بصوت هامس، ابتسم علي ابتسامة فاترة لا تمتُ للذوق بصلة، ولم يعقب في حين لعن الدجل في رأسه الف مرة.

السجن له عدة قواعد تفرض نفسها، مثلا في الليالي شديدة البرودة يجتهد كل واحد من أجل تدفئة نفسه، جو مصر ليس باردا لكن الشتاء في هذا المكان الصحراوي له تطرف طقس البريّة، وعندما حل الصيف أخيرا أصبحت البذلة الزرقاء كابوسا مسيلا للعرق، الشمس تسطع لعدد مأهول من الساعات، ولها حدّة شديدة القيظ، تفترس الرؤوس والأبدان، تحرك رياح الصيف الساخنة رمال الصحراء حولهم ليتحول المكان إلى لون أصفر

مقيت، الرمال في كل مكان، والعرق يمتزج مع الغبار فوق جبينك فيصبح لون بشرتك داكن كالشحم، هذا كان العامل الرئيسي في كلاحة بياض جلد علي، وفي مساء ذلك اليوم الصيفي المرهق جلس علي قرب عم جميل منهكا، فداعبه جميل قائلاً:

– هل تدرى لماذا ينهكون السجناء؟

لم يفهم علي الدعابة فأجاب بسذاجة غرّ:

– لماذا؟

لم يجب عم جميل وشاح ببصره بعيدا ناحية عزوز القادم غارقا في عرقه كعصفور بلله المطر، ألقى عزوز بجسده الضخم إلى جوارهما، وكزه عم جميل في كتفه فلم ينتبه، فكررها حتى نظر ناحيته فغمز له ثم قال بخبث:

– علي لا يدرى لماذا يرهقون السجناء.

حاد عزوز ببصره ناحية علي فأجاب برأسه أنه لا يدرى، رفع عزوز حاجبه الأيمن ثم أخذ يضحك فتلفّت علي حوله ثم لكمه بودّ، طلب عزوز من علي سيجارة، وشرع مباشرة في تدخينها ثم دلّك قدمه ليخفف من وجعها وأضاف وهو ينفث الدخان بمجانة:

– هل تدري لماذا يسمّونه سجناً ؟

سأل ثم أخذ نفساً آخر من السيجارة، وأضاف دون انتظار الرد:

– لأنه لا نساء هنا، كل ما تراه عندما تستفيق من النوم، رجال أغبياء بشوارب كئيبة وأصوات خشنة، ادفع نصف ما أملك لقضاء ليلة واحدة مع امرأة.

ضحك ثلاثتهم بما يشبه الحشرجة، ثم سعل عم جميل كثيراً، شتم عزوز دون حياء في مزاح حاد المزاج ثم أضاف فيما يشبه الحكمة:

– اللعنة على الشهوة.

مساء ذلك اليوم قد أتم علي قضاء ستة أشهر كاملة في الحبس دون زيادة أو نقصان، حين فكّر في كلمات عزوز أدرك عدم وجود قلب لذلك الضخم، فلم يسمعه يتحدث عن امرأة في حياته، وعندما تكلم أخيرا كان حديثه أشبه بحيوان في موسم التزاوج، قبيل النوم صعد عزوز إلى سرير علي محدثا اهتزازا للسرير نتيجة لحجمه الضخم، دخن سيجارة من التي يهربها عم جميل إلى الداخل، وتحدث دون توقف لمدة نصف ساعة؛ تحدث عن كراهية الحيطان الحديدية والأسلاك، عن حارة الشيخ غريب في مصر القديمة، وذكريات الصبا، لعب كرة القدم على ناصية الحارة ورش صاحب محل البقالة للأطفال بالمياه الباردة، الشوق إلى عربة الفول وحبات الطماطم صغيرة الحجم فوق طبق المخلل، عن حياته الفارغة من الحب، والده الطاعن في السن الذى لم يترك له قرشا واحدا، تحدث عن كراهيته للفقر وحبه الخالص والوحيد للمال ولا شيء غيره، أما النساء فهن وسيلة لإرضاء

الشهوة لا أكثر ولا أقل، في نظر عزوز البائس لا توجد امرأة تحب شخص، هي تحبه لماله، تحب الحياة المترفة التي تعيشها تحت كنفه، كلما ازدادت أساور الذهب الملتفة حول يديها من حر مالك فستحبك كملك، لو مرت بك ضائقة مالية فستدخلان في مرحلة اكتشاف ثمن كل واحد لدى الآخر، عندما اقتربت السيجارة من الانتهاء سعل عزوز ثم قال وهو جالس مدللا أقدامه إلى أسفل.

– أسعار الرجال بخسة عند النساء يا صديقي.

شعر علي برغبة ملحّة في النوم ولم يخبره حتى لا يتوقف عن الكلام، حتى تثائب رغما عنه لكن عزوز لم يتنبه لرسالة النوم، بعد دقائق بدا شخير خميس يرتفع لكن حتى هذا ما كان ليمنع النوم من افتراس جسد علي المرهق، حينما انتهي الحديث نزل عزوز متوجها إلى سريره بخطوات متثاقلة، ولم يدرك أن علي لن يتذكر نصف الكلام لأنه كان في نصف وعيه، على كل حال فقد أحب أن يتحدث من قلبه مباشرة ولو لمرة، وقد سعد علي أيضا لكنه لم يمتلك القدرة على التعبير عن ذلك، فبعد دقيقة واحدة كان قد غط في نوم عميق وفي الصباح أخبره زميل آخر أن شخيره في تلك الليلة قد فاق خميس، أبتسم عزوز عندما قابله في الحوش ابتسامة لها معنى، لكنها كانت المرة الوحيدة التي تكلما فيها خلال الأسبوع، الأيام التالية مرت دون كلام ودون جديد، حتى اعتقد علي أن عزوز قد غضب من نومه السريع في تلك الليلة، لكنه أبدا لم يسأل.

ظل الحال هكذا حتي جاء اليوم الذى شاهده فيه يبكِ قبل النوم، كان عم جميل جواره ولم يصدر عنه صوت، لولا نظر علي الحاد لما لاحظ الدمعات الساقطات في هدوء حذر، عم جميل بالنسبة لعزوز هو الأب الذي تمناه، هذا كان رأي علي غير المعلن، وعلى كل حال فالجميع هنا يتعامل معهما على أنهما شخص واحد، مرت الأيام حتى خفّت حدة الشمس فأدرك السجناء أنهم بلغوا الخريف، والخريف هنا حار أيضا، وكم بدى عبد الكريم متأففا في ذلك اليوم الخريفي الحار، الذي كانت رياحه عاتية تكاد تقتلع البشر من أماكنهم، وتقذف حبات الرمال المتناثرة على الأعين في كل اتجاه، قال في غيظ.

- لا يوجد هنا خريف أو ربيع، فمنذ طفولتي لم أعرف لهما شكلا واضحا، الجو هنا طوال العام صيف حار، بينما تمضي ثلاثة أشهر الشتاء على استحياء كضيف عابر.

يومها جاهد من خرج للتمشي في ساعات العصر حتي لا يصاب بضربة شمس، حيث أن الأعين تكاد لا تبصر لون السماء من شدة اصفرار الرياح، بعض السجناء تلفعوا بشيلان بيضاء كالتي يمضي بها الأعراب في الصحاري، لم يشاهد على عربيا واحدا برداء الجلباب المريح، والشيلان التي تغطى الوجه سوى في الصور، مما أثار تعجّب عم جميل الذي نطق غاضبا:

- وماذا تعرف في حياتك يا فتى؟

وكان سؤالا لا إجابة له، فالشاب في الرابعة والعشرين من العمر، انهي دراسة كلية فنون جميلة توا، ثم دلف السجن لثلاث سنوات في تهمة ملفقة لم ينجح نفوذ والده في ردها عنه، أخبره قاسم يوم النطق بالحكم النهائي أن والده ليس كما السابق لكنه لا يعرف كيف كان والده في السابق، السر الخفي الذى يخفيه غسان الأب، وقاسم غسان، ومراد غسان، وحتى أخاه الأصغر يوسف بدا في التكشف له قبيل حبّسه بأشهر قليلة، وحدها علياء غسان وهو لا يعرفان شيئا، لكنه خرج من دائرة الجهل ولن يخبر أخته بحقيقة ما أكتشفه ولو سهوا، لن يجعلها تدرك أعمال العائلة لأنها لن تتفهم كما فعل هو في البداية، لكن الآن هو يتفهم جيدا، وقد أُجُبر على الدخول في اللعبة، وقد أكتسب هنا من الخبرة ما سيكفيه حتى ولو لم يعرف كيف تبدو ملابس رجال البدو على الحقيقة.

علّمه جميل كيف يضرب بيديه العاريتين حتى تقطّع جلده الهش الناعم كقماش لوحة، ونبت له جلد تمساح فوق جروح دامية، علمه كيف يضرب بالسكّين بمهارة حتى ظنّه جندي سابق في سلاح الصاعقة، من بعدها صارت السكين الصغيرة التي أهداها جميل إليه لا تفارقه، السكين لها يد خشبية صلبة عليها طبقة من دهان كان ناعما لكن العرق أصابه بالملوحة، يضعها أسفل وسادته وهو نائم ليذكّر نفسه بما سيصبح عليه، من جانب آخر فقد تعجّب عزوز لحال الفتى المترف، فقد رفض عم جميل تعليمه في البداية رأفة به، لكنه حكى قصة وفاة والدته في حادثة أو هكذا كان يظنها

حتى سمع والده في ذلك اليوم البارد يحادث قاسم حول اقتراب موعد الانتقام من كل المجرمين الذين تسببوا في ضياع زوجته وكساد أعماله، ليلتها لم ينم علي، صعد إلى سطح البيت وأخذ يراقب النجوم في صمت كما كان يفعل وهو صغير لكن من شباك غرفته الصغير المطلي بلون أصفر فوقه ملصقات لنجوم زرقاء وأخري سماوية.

أخبره عن التهمة التي لفقت له بحيازة المخدرات بينما هو لا يعرف ما لونها ولا رائحتها حتى، حكى عن ذلك الشاب الذي ظنه صديقه وفي النهاية أدرك أنه مأجور لإفساده نكاية في الوالد، ولما فشل لم يجد حلا سوى خطة التهمة الملفقة ليزجوا بأضعف أولاد غسان إلى المحبس، ربما لم تكن الحادثة لتؤثر فيه لولا صديقته التي عرف بعد ذلك من أخاه قاسم أنها جزء من الخطة الدنيئة، في البداية لم يصدّق، ظنها خدعة من أخاه لكن سرعان ما تكونت الصورة كاملة في ذهنه وأدرك كم كان ساذجا، ظل يرسم وجهها في مخيلته ألف مرة حتى لا ينسى ملامح وجهها أبدا، لقد تلاعبت به كطفل، وعندما سيخرج من هنا سيجعلها تصرخ طلبا للنجدة، واجه علي قاسم بما سمع منهم فلم ينكر وظل صامتا وأخبره أن هنالك أشياء ينبغي لها أن تظل سرا من أجل حماية المقربين، أراد قاسم لآخر مرة إبعاد أخاه الوسيم عن الأعمال القذرة وقد نجح وقتئذ، لكنه فشل أخيرا منذ بدأت محاكمة علي، بعد نطق الحكم قد أقسم بأن يخرج شخصا آخر، بعد مرور عام ونصف تبدلت عاداته الرقيقة، وأصابه أرق القلق المعتاد للمبتدئين، سأله عم جميل

وهو جالس على بسطة الحوش يدخن سيجارا في وضح النهار أمام الشاويش غير مبالياً:

– لماذا تريد الحياة الصعبة يا فتى، أنا أعرف جيدا أنه من الممكن لك تسهيل حياتك هنا، في الحقيقة لقد تكلمت مع قاسم أخاك وقد هددني كي لا أفسدك على حد قوله وأخبرته أنك من تريد الأمر وليس أنا، يوجد هنا من يوصَل له أخبارك باستمرار وهذا جليّ في حديثه المتعالي، لكن أنت لغز حقيقي.

سمع عزوز الحوار أثناء اقترابه، تقدم بخطواته الرتيبة نفسها وجلس علي الأرض، يمدّ قدماه بعيدا، أزاح ذبابة من أمام ناظره كانت تزن بشكل سريع وسيء، ثم قال:

– لو كنت مكانك، لجلست منعما في المال، من يكره الجلوس دون فعل شيء بينما حياته متكفّل بتكاليفها.

أثناء حديث عزوز شاهد علي سربا من النمل يمر في خط معّوج بمحاذاة البسطة، يحملون فتات شيء ما، عندما وجد عم جميل الفتى يحملق في النمل المتزايدة أعداده والمتحرك في الظل.

يخرج النمل من جحوره هربا من القيظ، هو يعرف قدرته ويتعايش طبقا لها، فكما ترى يمضون في جماعات كثيفة، لكن رغم هذا يمضون في الظل كلما سنحت لهم الفرصة ولا يفاخرون بقدرتهم علي التحمّل.

في تلك الأثناء وقفت ذبابة على أنف عم جميل الضخم، واثنتان تحومان حوله بشكل غير منتظم فأزاحهم بحركة عصبية، وقال:

- اللعنة على الذباب، إنه غبى ويلعب مع خصوم لا يقدر عليهم، قريبا سيسقطون جميعا في شباك عنكبوت مكافح، أو سيموتون نتيجة حياتكم العفنة.

عامل عم جميل علي كأبن ثان له طبعا بعد عزوز الذي يجمعه به رباط أقوى من رباط الدم كما اعتاد أن يقول، فلديه إيمان راسخ بأن الأبوة والأمومة ليستا فقط تلك الهرمونات التي يفرزها الجسم لتغرس في القلب محبة ربّانية خالصة، بل هي الرباط الوثيق دائم القوة بين شخصين اتفقا علي السير معا تحت المطر، أو تحت الشمس الحارة ساعات طوال دون التململ، ولا وجه عبوس، هو لم يكن له ولد في الحياة الطبيعية، ولم يرزق به من رحم امرأة يعذبها المخاض ويلتهمها ألم الولادة حتى يقسم من يراها أنها لن تعود للجنس أبدا، لكنهم دائما يعودون، أما في شئون تأثيث أسرة فقد فشلا كما يعلن بنفسه، قد كانت له خمس زيجات فاشلات كما قال؛ الأولى كانت في مرحلة شبابه المبكّر حيث ريعان الفتوّة وثراء العضلات المفتولة التي تنتزع ما تريد دون هوادة وبلا تردد، فكل شيء ملك لمن يستطيع خطفه، ولمن لديه جرأة المجازفة للظفر به، ساعتها كان جيبه عامرا بالمال وباله مشغول ومزدحم بأفكار سيئة قذرة، وخيالات الموت السريع الذي سيقتنص روحه عندما يغفل تطارد ظله، لهذا كان نومه متقطعاً.

لكن الزيجة لم تدم طويلا فسرعان ما مل منها وملت منه، الغضب كان سلاحا فتاكا لهدم جسور الوصال بينهما، يذكر الليلة التي رفضت فيها مجامعته فثارت غضبته، صار كالوحش الهائج، فمن تلك التي ترفض طلب الاختلاء به، يومها ضربها حتى صار لون بشرتها أزرقا، نامت تتأوه بينما ظل يدخن سيجارة في الشرفة دون مبالاة، في الصباح استغلت فرصة غيابه ورحلت عن المنزل إلى بيت والدها، أجتمع أهل الحارة ليطلبوا منه أن يطلقها فهي لم تعد تستطيع العيش معه، زيجاته التالية مضت واحدة وراء الأخرى بطعم العسل المر، لا يذكر سوى أسمائهن وكيف كن يجتهدن في إسعاده، لكن الأخيرة استعمرته حتى احبها، فلم يكن منها إلا خيانته، عندما زارته في المحبس الذى قادته إليه طلبت منه الطلاق بشكل هادئ ورزين، السيء في الأمر أنه كان من الممكن أن يسامحها علي سجنه وهذا هو جنون الحب، أو هو شوق جنوني، أم حب أمثلاك، هو لا يدرى لكنه تعلّم الدرس جيدا وأدرك أن أعصابه ما عادت قوية كفاية ليشغل منصب زعيم بيديه، وتعلّم هنا استخدام عقله بصورة أكثر فاعلية، ظل حزنه العميق مدفوعا بصورتها الدائمة في مخيلته، في جلباب أبيض ناعم وقصير، يلتف حول جسدها الممتلئ، تمشى فيه فتثير فيه رغبة أبدية الاشتعال، وخيال زوجها الجديد الرابض هناك فوق صدرها في الليل والجالس في محل عم جميل سابقا، والذى كتبه حبا باسمها فخسره غدرا، تاجر في كل شيء ممنوع وغير ممنوع واليوم لا يملك إلا القليل في حسابه البنكي، وبعض رجالاته

المخلصين، وعزوز، عندما لم يتبق لعلى من مدة العقوبة سوى أشهر قليلة، فرح غسان كفرحة ليلة العيد، لا يقدر على الخروج من البيت كثيرا فأرسل إليه مراد لزيارته والاطمئنان على أحواله، مراد كان متوسط الطول على خلاف غسان الذى يقارب المتر وخمسة وثمانون سم، وكان له شعر أسود مجعد خشن، ورأس يميل إلى الطول، مع عينان ضيقتان عسليتان، وفم واسع مع شفاه غليظة لكن غير مكتنزة، ودائما ما يرتدى القمصان الخالية من النقوش، يحبها مساوية لحجمه تماما وملتصقة بجسده القوى، عندما سأله عن أحواله أجابه بامتعاض:

- لديكم من ينقل أخباري، فلماذا تسألون؟

مراد ليس وقورا كقاسم، طبعه عصبي كالقطط، وينكر الجميل مثلها، وهذه فكرة في رأس علي عنه منذ الطفولة حيث كان دائم الكذب، ويهتم لمصلحته لأبعد حد حتى يكاد يبيع ضميره ليقبض الثمن دفعة واحدة وليس على التقسيط لأنه يكره الانتظار ككرهه لطيبة علي الزائدة، لم يدرك تغّير علي فتبجح باستفزازه:

- لأنك طفل متهور

صدم علي يده بالأسلاك الحديدية أمامه فتراجع مراد إلى الخلف من المفاجئة، أبتسم علي وبعدها سقط على الأرض من فرط الضحك، ثم عندما وقف مرة أخرى نظر إليه بمزيج من البرود والغطرسة ثم أقترب من الأسلاك حتى كادت تلامس شفتيه ونطق ببطء متعمد:

- حتى القطط الصغيرة تكبر وتنبت أنيابها.

انتهي اللقاء دون سلام، أو تحية، عاد بعدها مراد إلى مزاولة أعماله اليومية، جعله والده رئيسا لشركته الوحيدة المتبقية منذ فقد كل شيء، شركة التوحيد للتشييد والبناء، فقد رفض العمل في المحال التجارية، أو المقاهي الشعبية في الحي حيث حياة أبيه وتربيته، وصل إلى مبنى الشركة بلونه الأبيض المغبّر، مبنى بخمسة أدوار، يكسوه إلى جانب الأبيض انعكاس ضوء الشمس على النوافذ الزجاجية، وأسم الشركة مكتوب بلون كان أسود يوم نشأت الشركة، وقد وقع منذ عامان حرف الراء من كلمة شركة وحرف الباء من كلمة بناء وظل مكانهما خال إلى الآن.

مراد تشغله أشياء أخرى إلى جوار أدارته للشركة فهو رجل يعبد السلطة ولهذا فتجده حاضر في كافة المناسبات الخيرية والاجتماعية والاحتفالات الدولية وحتى المحلية، لطالما نصح قاسم بترشيح أحد من أبناء العائلة في البرلمان أو حتى مجلس الشورى سابقا، لكن دائما ما رفض، متحججا برغبة شديدة في البقاء خارج الصورة المضاءة، وأنهم أصغر من الترشح للبرلمان ولن يجازف بمنح الثقة لأحد من أبناء عمهم المتوفي عدلي مراد، لكنه كان متحمسا للفكرة على الصعيد الشخصي كما مراد بل وأكثر، وعندما فاتح الأب في الفكرة فوجئ برفض شديد اللهجة، وفي النهاية سقط مقعد البرلمان في - حجر- فاروق الصباغ، الشيطان الكبير، والد الشيطان الصغير حلمي الصباغ؛ نصير الموت، وصوت الرياء، والرجل

الثاني في المؤامرة التي قضى على اثرها غسان سنتان كاملتان في المشفى، وقضت زوجته الثانية نحبها.

فوجئ مراد بهاتفه يرن، وأسم الوالد ظاهر على الشاشة اللامعة بصورة دوار شمس ينكسر فوقه الضوء بشكل عجيب، حكى له ما جرى وبعدها أنهي غسان المكالمة، كان في حديقة الفيلا الواسعة في مدينة هليوبوليس، جالسا أسفل سقف خشبي يحجب الشمس، مشغول بأشكال ورود من ناحية الأسفل، بينما من الأعلى فكان له شكل هندسي غير مكتمل، يوحى بخطأ في التنفيذ الهندسي لكنه قد تم اختياره هكذا، يرتدى جلباب من القماش الفاخر أبيض اللون، طويل وناعم، المقعد المريح المحشو بشكل واثر يساعد على مزيد من الراحة، ينظر إلى طير يشق السماء بجناحيه المنفردين على اتساعهما، مضت ثوان يرمق فيها السماء الزرقاء بعينيه السوداويين الضيقتين، بداخله رغبة في التحلق لا يقدر عليها، رغبة تشده إلى الحرية كما تشده رغبته إلى الانتقام وأصفاده، يذكر الآن مشهد تحليق الطيور من فوق عشّة جاره في سطح البناية المتهالكة التي نشأ في شارعها، مكاسبه منذ ذلك اليوم الذى قرر فيه ارتداء الساعات الغالية وركوب السيارات الفارهة توحي بالفخر والخذلان، أولى مكاسبه خمسة أبناء هم باكورة حياته؛ قاسم، مراد، علي، عليا، ويوسف، هم خمسة أبناء حظى بهم غسان مراد الأب، من زوجتين توفاهما الله، في عمر الشباب ترعرع في جنبات مصر القديمة كما يطلق عليها، والقاهرة التاريخية كما يحب غسان

قولها، حيث المساجد الطاعنة في السن، والشيوخ رخّاء الصوت، والحوارى الضيقة المرصوفة بأحجار طينية متهالكة، والأزقة الأضيق، أو كما يطلقون عليها "الشقوق".

منزل الأب مراد بائع العصائر، الذى أحتفظ غسان بكثير من شكل وجهه، خاصة عظمتي أعلى العين البارزتين وأسفلهما عينان غائرتان ضيقتان، لهما سواد باهت كما لو بهما مسحة من اللون البنى الداكن، كان الأب يطلع في النهار قاصدا الشوارع الواسعة فلم يملك مستقر دائم عندما جاء من الصعيد البعيد على متن قطار قديم، عندما وصل غسان لعمر العاشرة تمكن الوالد من شراء محل لبيع العصائر في مدخل شارع المعز من ناحية باب الفتوح، الحياة الهادئة جعلت الولد المتقد ذكاءه يتحول بمرور الوقت إلى مساعد للوالد ثم مالك المحل في عمر السادسة عشر، ثم دارت الحياة دورتها العظيمة، حيث تأخذ في التغيير والتبديل، فصاحب محل العصير يتحول بقدرة الله إلى شيطان مصر القديمة، لم ينل قسط وافر من التعليم ولم يدخل الجوامع إلا للزيارة، واتقاء لشرور الحاقدين، لكن بداخله نار متقدة بفعل شك دائم في أصابع يده، شك جعله لا يؤمن سوى بمصالحه.

المصالح هي أساس حركته في ذاك الوقت البعيد وفي الوقت الحالي، ولم يبق من أرث الوالد سوى محل العصائر الذى أصبح أفخم يتلألأ فوقه اسم غسان الصعيدي بلمبات نيون حمراء مضيئة دائما، وكوب نحاسي منقوش

عليه لا إله إلا الله بخط عثماني، يشرب فيه التمر البارد في نهار الأيام الحارّة، بينما هو جالس اقترب منه قاسم مرتديا قميص أبيض أكمامه قصيرة، سروال جينز أزرق بمقاس واسع يريح الخصر، ظاهر عليه بعض الإنهاك الذي أضافة إلى الخصلات البيضاء التي تخط شعره الأسود الداكن جعلتاه يبدو كئيبا إلى حد بعيد، قبّل ظهر كف والده وجلس جواره يشتم أريج أزهار الحديقة الزاخرة بزينتها، والممتدة بطول ثلاثمائة متر من بوابة الفيلا ومائة متر عن جابيها وخلفها، مساحة شاسعة توسطها ممر السيارات حتى الجراج الداخلي، والممر يبدأ من البوابة الحديدية العملاقة التي يقف أمامها حارسان؛ أحدهما كبير في السن يكاد يناهز الخمسين والثاني شاب غير أن بنيتهما القوية متشابهة تقريبا وأن لم يكونا مفتولي العضلات كشباب الإعلانات، خلع قاسم نظارة الشمس وأستمتع بالظل جوار والده لثواني ثم قطع الصمت بعبارة سريعة ومقتضبة:

- رائحة الأزهار رائعة.

اقترب الخادم جابر في تلك اللحظة، في زيه الأزرق المريح، سروال قماشي فوقه فنالة بيضاء صوفية، عليها صدرية زرقاء، يحمل صينية نحاسية يستقر فوقها الكوب النحاسي الممتلئ بعصير التمر البارد وحبات عنب أحمر في طبق من الفخّار الملون بخطوط خضراء على كيانه الأبيض، وضع الصينية على الطاولة الخشبية المزدانة بمفرش أحمر يغطي معظمها حتى قرابة الحواف بقليل، وقبل أن يمضى في طريقه نطق في أدب:

- صباح الخير يا غسان باشا، صباح الخير يا قاسم باشا.

في الواقع قالها ببرود ودون عناية، قالها كواجب منزلي سخيف، لكنه أعتنى بتفخيم كل حرف حتى ظهر كمن يبجل خليفة، لم يجب قاسم بينما التفت نحوه الأب وحك وجنتيه بأطراف أصابعه ثم سأل بإخلاص:

- كيف حال زوجك وأولادك؟

- بخير يا سيدى، نحمد الله.

- خلي بالك منهم، حفيدك دخل المدرسة أليس كذلك، ما أخباره ؟

- الحمد لله، بخير طالما سعادتك بخير.

- لو احتاج لشيء عليك أن تطلب فقط.

- تسلم يا باشا.

يحب السؤال عن خدمه دوما بشكل طيب ولغة ودودة، مما لاقى استحسان جابر الخادم، لكنه كان حزينا ذلك الصباح بسبب مشاجرة بينه وبين زوجه في الهاتف وقد لاحظ الباشا نبرة صوته الباردة على غير العادة، لكنه أشار له بالذهاب دون أضافة، شرد ذهن غسان قليلا، فاكمّل قاسم بخبر يتوق إليه بقدر ما يخشاه: رتبنا كل شيء.

التفت غسان بعد برهة كأنما تأخّر في الفهم، فأضاف قاسم:

- الكل سيدفع الثمن، كلهم خونة ويجب معاقبتهم، لكن سننتظر حتى خروج علي من محبسه، وبعدها سنشرع مباشرة في التنفيذ، وأول من يدفع الثمن هو المتسبب في دخول علي السجن

لم يبد على غسان سعادة بالغة، الشك بدأ في غزو رأسه، الشك في نفسه هو ولا أحد غيره، هل أخطأ عندما أدخل ولديه في عالمه المظلم؟ وبعدها الزج بولده الصغر بنفسه في معترك الشر، يوسف الشاب بعقله المدبر الذكي، واليوم جاءه خبر الولد الباقِ، علي الذى تحول إلى خلق آخر، لم يبق سوى علياء ولن يسمح لنفسه بإفساد حياتها هي أيضا، لكن لا زالت الشرارة بداخله تدفعه للمضي قدما، نار لن يخدمها إلا البارود، خرج من شروده المؤقت وأجاب وهو يضغط على أنامله.

- الجميع، هل أنت متأكد ؟

أجاب في فخر وهو يضع النظارة الشمسية في عروّة القميص بحيث تطل عدساتها إلى الخارج:

- الجميع.

ابتسم غسان:

- لا أستطيع الانتظار، أنت أيضا تبدو متشوقاً.

أجابه على السؤال المطروح ضمنيا بإجابة شافية:

- لن نبدأ حتى يخرج علي من السجن.

أخذ غسان يحك أسفل رقبته الملدوغة من بعوضة، سمع صوت أزيزها ترحل ولم يرها، غيّر من وضعية جلوسه المرتخية، يعرف أن موعد خروجه قد أقترب جدا، لكنهم لا ينتظرون منه مساعدة، يبدو أن ناقوس الخطر برأس غسان لا يزال يعمل بنفس كفاءته القديمة:

- هل تخشى من شيء ؟

- الحرص واجب.

بحث عن النظارة في جيبه فلم يجدها، فأخرجها قاسم من جيبه في علبتها الزيتية وأكمل:

- لقد نسيتها في الداخل فأحضرتها لك.

ابتسم فغار جزء من جلد وجنتيه إلى الداخل، غمازة كانت فعّالة في الإيقاع بالفتيات في سنوات شبابه:

- دائما ما تتذكر ما ينساه الآخرون، لكن يا ولدى أخشى أنك تنسى نفسك، أو ربما تتناسى.

أجاب دون اعتناء في التفكير:

- ربما.

ارتدى النظارة، أغمض عينه ثم فتحهما مرة أخرى، وربما أغلق عقله وفتح مرة أخرى أيضا، يبحث عن إجابة للشعور الدفين بالخوف من الانتقام، يتهرب دائما من تلك الإجابة التي تخيم عليه، إجابة تخبره بخبايا لم يدركها وحده حتى في أنقى حالات ذهنه، تخبره أنه سيخسر ما سيكسبه، تلك الإجابة كانت تراوده في شبابه وقد أدرك صحتها، فهل سيخاطر مرة أخرى بتجربتها، أخبره والده ذات يوم أن الانتقام لا يجلب سوى الموت والخراب، الانتقام جراد يأكل الأخضر واليابس، لكنه لا يزال يبصر الطريق إلى الفوز واضحا، وهنا سأل نفسه "هل سأنتقم من أجل الكراهية أم من

أجل الانتصار، من أجل الموتى، أم من أجل الأحياء، وقرر مشاركة مخاوفه مع أنجب أولاده":

- قاسم، هل سننتقم من أجل الزهو بالانتصار أم من أجل خسارة الأحباء، من أجل الكراهية بداخلنا بسبب الموت، أم من أجل الفوز وطعمه اللذيذ، هل فقط من أجل الكبرياء، أم من أجل الذكريات؟

اشتعلت الذكريات بعقله، فأجاب بمكر:

- كم تساوي الذكريات لديك؟

سعل غسان وأجاب من قلبه بلا تفكير ولا تجميل:

- لا مستقبل كبير أنتظره، أنتم مستقبلي، وبعدكم فلا يمتلك رجل في مثل سنّى سوى الذكريات، لكن من فضلك لا تتلاعب بعقلي وأجبني بصراحة، هل تنتقم فقط من أجل الكبرياء أم من أجل ...

وقبل أن يكمل انتفض قاسم واقفا، وأجاب في سرعة:

- أنتقم من أجل العدالة.

مال غسان برأسه ناحية قاسم وهمس:

- هل تمزح؟ هل تعتقد أننا نستحق العدالة؟ نحن لا نعيش من أجل العدالة يا ولد، ننفذ ما نريده، ما نراه صالحا بالنسبة لنا وما هو جيد للأعمال، لو كانت هناك عدالة في هذا العالم البائس لما كان لنا دور فيها دون أدنى شك.

تغيرت حالة قاسم، عبس وجهه، وبهتت اللمعة في عيناه، يتذكر قرابة سبع وثلاثون عاما مرت على حياته، يجاهد ليجد للعدالة مكانا وسط انشغالاته الكثرة، فلا يبصر لها أثر، لاحظ غسان شرود غسان، وفراغ نظراته فأستكمل:

– لا تغضب علي نفسك، تناسى سؤالي، اخبرني الآن بمن ستبدأ ؟

أجاب بتلقائية سؤال متوقع لإجابة محفوظة:

– علام السيوطي.

ابتسم الأب في ارتياح، ومع سماع صوت العصافير فوق الشجرة القريبة ببضعة امتار ساد جو هادئ، نظر غسان ناحية الطيور وتذكّر حبه الدائم لأجنحتها المرفرفة وصوتها العزب وقال بلا تفكير:

– غريب أننا في هذا الصباح المضيء، ومع صوت العصافير المرحة، ندبر أخيرا لموعد التنفيذ، الجرائم تليق بها المكاتب المغلقة، والبدلات السوداء وربما النظارات الشمسية أيضاً.

نزع قاسم نظّارته، امسك بها ولامس عدساتها السوداء، نظر لوالده الجاد، بداخله رغبة في أنهاء الحديث فالوالد يخشى عليهم من الدماء، فسخر قائلاً:

– واحدة مثل نظارتي تلك، بالتأكيد تمزح، سيبدو مظهرنا بها كالمغفلين تماماً.

حاول الأب الوقوف، أراد غسان مساندته ليقف لكنه رفض كما يفعل دوما، وبنظرته اللائمة نفسها منذ خروجه من المشفى، تنفّس نسمات الهواء الساخنة، ووضع يديه خلف ظهره شبه المحني، هي مشيته المعتادة منذ بلغ الأربعين، يعتقد أنها تكسبه مزيد من الوقار، فتعوّدها واعتادت عليه، وكان يعرف أنها مشية جده من قبله ولطالما أخبر أولاده بذلك لكنهم لم يهتموا كثيرا، لم يعتادوا مثله على العادات القديمة، والحنين إلى الماضي، ربما عندما يبلغ أحدهم الأربعين سيدرك حقيقة التفاصيل التي أغفلها في شبابه، هذا كان رأيه دوما، تمشّى على العشب الأخضر النّدى بمياه خرطوم البستاني الكبير، يمضى بخطوات حثيثة ورزينة بشكل منتظم فهو يشعر برغبة شديدة في تمشية حتى لا تصدأ مفاصله، شعر بقليل من التعب لكنه أراد الاستمرار في المشي، كل ما يخطر في باله هو موعد خروج علي من السجن، شهر واحد يفصل ولده الوحيد عن ملامسة الفرش الأبيض الناعم الجديد الّذى يغطى سريره الواسع، تذكّر أيضا انه أراد إخبار قاسم بأن لديه عقل كبير ماكر، لكنه حمد الله على أنه لم يفعل حتى لا يغذي غروره، عليه دائما جعل ولده الماكر تحت الضغط لينجح، ودائما ما ينجح في ذلك.

المساء في السجن مريح بشكل جيد؛ حيث لا عمل ولا مجهود، يعرف معظم الموجودون موعد خروج علي من خلال عزوز، فجهّزوا حفلة صاخبة لوداعه، لم تكن حفلة بالمعنى الحرفي لكنهم رقصوا على أغان صاخبة لم يسمعها يوما، وأشعلوا سجائر حتى طالبهم الشاويش بالكف عن

الضجيج حتى لا يفسدوا الليلة على أنفسهم، فتوقفوا بعد ساعة من البدء، لكن عم جميل اصّر على إنهاء آخر سيجارة وحتى آخر نفس منها، وجلس في الليل يتسامر مع علي ويحادثه عن مواقف حدثت له وتعلّم منها الكثير، علي وجدها مملة بشكل كبير، فعلى الرغم من حبه الشديد لعم جميل فقد كانت له عادة سيئة في تكرار الأحداث بشكل مستمر، ولم يمتلك حس حكاية جيد حيث يخلط بين الأحداث بشكل يجعل المستمع لا يفقه شيئا من فرط التيه، على الرغم من هذا فقد شعر علي بمزيد من الحب لهذا الرجل الكبير، ربما تعلم منه الكثير أيضا لكن طبعا ليس طريقة الحديث.

عندما غط الجميع في النوم كنت لتسمع صوت إبرة إذا سقطت على الأرضية، لكن الوغد جلال لديه قدمان خفيفتان كريشة، تحرّك بمكر حتى سرير عزوز فوجده غارقا في النوم كقرد يحلم بموزة، تحرك إلى سرير فرحان الّذى أحب جميل دوما النوم في السرير الّذى أسفله، فقد كان له نكات بذيئة تروق له وقدرة على الضحك دون توقّف، وقف خلف رأس جميل ونظر حوله ليطمئن من عدم لحاق أحد به بسرعة، ثم أخرج سكّين معدني صغير وحاد، وأمسك بفم عمل جميل ثم نحره ببرود فتناثرت دماءه كشاه يوم العيد، ظل عم جميل يحرك يداه لثواني معدودات لكن سرعان ما انتهي الأمر، فقد توقف نبض القلب وارتخت يداه لتساقطان دون إرادة وتنتهي الأنفاس من رئتيه اللتين لن تنتشيان بالتبغ ثانية كما فعلت الليلة، تراجع جلال إلى الخلف ووجهه صلب يملأه العرق، تلّون أزرق قميصه بالدماء

حتى أصبح يكسوه كطلاء لزج، في البداية سال حتى وصل إلى قدميه لكنه سرعان ما تجلّط فوقه، كان يرتدى قفازا بلاستيكيا لن يخلّف بصمات تدلّهم عليه في التحقيقات، ولم يكن له ميل عنف واضحة، أو مشكلات مع أحد، لقد كان هادئا كبحر لا أمواج فيه، ولم يكن أحد ليقبض عليه أبدا أو يتنبّه إلى أنه الفاعل، لولا استيقاظ عبد الكريم حتى هذه الساعة، لكن الجبان لم يصرخ كقط فقد ذيله، بل اتسعت حدقتا عينه في ذهول ادم بحوّاء لأول مرة ولم ينطق، كمّم فمه بيده تحسبا للغفلات، ثم دفع نفسه أسفل الغطاء الخشن فهو لا ينام سوى أسفل الغطاء ولو كانت الشم فوق رأسه، ظل جلال يقظا حتى ساعات بزوغ الشمس الأولى، وكان عبد الكريم يقظا أيضا لكنه لم يلتفت ولا مرة واحدة ليبصر ما حدث، ظل يرتعد في السرير كطفل يخشى والدته، أما جلال فظلت عيناه جاحظتان مثل كلب حراسة، ولّما فتح الشاويش باب العنبر ليدلف وجده يقف أمامه هادئا، وبلا تردد تقدم بخطوات واثقة ثم همس:

– لقد قتلت عم جميل بهذا السكّين.

تراجع الشاويش إلى الخلف ونادى بصوت عال على زملاءه الّذين قدموا بسرعة ليعاونوه في الإمساك بالمجرم المعترف والمستسلم سلفا، عندما خرجوا به من العنبر همس في أذن شاويش آخر:

– لطالما أعجبتني تلك الزنزانة، أخشى أني أودعها للأبد، لكن أقسم أني لن أشتاق لها مطلقاً.

وكان اليوم كئيبا بحق، عجّ السجن بالمحققين والمفتّشين وتوعد المأمور رجاله بأيام أسود من ظلمة الليل، حالما ينتهي التحقيق الّذى سينتهي إلى قصور واضح في إجراءات الحماية للسجناء، حققوا مع الجميع تقريبا لكن لم يحصلوا علي إجابة، لا أحد نطق بشيء حتى شعر المحققون بالملل في منتصف اليوم، الجميع كان يتحدث حول جلال وهدوءه الشديد، بل وبدأوا في نسج القصص عن جرأته الشديدة، بينما عزوز غلبه صمت الحملان، وعلي لا يكاد يصدّق ما حدث، وفي المساء جلس وحيدا وصامتا حتى جاءه عزوز الذى قال بنفس متوتر:

– اهدأ يا علي، البقاء لله وحده، يجب أن أخبرك شيئاً.

نظر إليه دون أن ينطق فأكّمل:

– لقد أخبرني بألا أفارقك إبدا إذا ما أصابه مكروه، واليوم أضع خدماتي بين يديك لكن أولا يجب أن أخبرك بأنه لم يرد لك السير في طريق الجريمة والانتقام، فتلك الطريق مليئة بالخسارة، ولا طائل منها إلا مزيد من النيران التي تلتهم روحك حتى لا تبقى على شيء منك.

تجاهل علي نبرة النصح، ولم يحوّل نظره عن مكان سرير عم جميل، لقد فقد عزيزا آخر ولن يمرُ الحادث مرور الكرام، فقد سقط جزء جديد منه هنا، بلل شفتيه الجافتين بلسانه الرطب وقال:

- لا جديد في كلامك، لن أتقبل العزاء فيه حتى يموت أعداء عم جميل، أذكر أنه أخبرني عن عداءات كثيرة، واليوم قد نالوا منه بوضاعة وهو راقد في سريره، ولن يفلت جلال من قبضتي ما حييت.

ربما فيما سبق كان سيفكّر علي مرة أخرى في الجدوى من مسألة الانتقام، لكن لم يكن سيغير رأيه على كل حال، أمّا اليوم فلا تراجع عن القرار، بعد أسبوع وصلت أخبار إلي السجن بشأن محاولة قتل جلال في المشفى لكنهم عرفوا أن الجبان لم ينته عمره بعد، جلب عزوز تلك الأخبار بمساعدة بقايا رجال جميل في الخارج، سيخرج علي أولا من السجن وبعدها سيخرج عزوز بعد ثلاثة أشهر كاملة، ولن ينتظر علي حتى يخرج عزوز ليعاونه في الانتقام، أخبره عزوز بأرقام بعض الرجال في الخارج، رجال من النوع قليل الحديث، حيث لا يجلبون المشكلات وينفّذون المطلوب بدقة وكفاءة، رجال بدرجة عالية من الثقة، أخبره أيضا بعنوان منزل عم جميل الخاص الّذى لا يعرف مكانه غيرهما.

خرج علي من باب السجن بالملابس التي وصل بها، كانت ملابس ثمينة، سروال أسود ممتاز وقميص أبيض لا خدش فيه، شعره بدأ في البزوغ فوق رأسه فبدت هالة صفراء تغطى صلعته المختفية، تنتظره سيارة زرقاء مكشوفة السقف، لها مقعدان أماميان مريحان من الجلد ومقعدان خلفيان أصغر حجما بقليل، يقودها قاسم غسان مرتديا قميصا أبيض وسروال أسود يشدّه بحزام بنّى، وفي الخلف يجلس يوسف مرتديا شورت من الجينز

الأزرق الزاهي، فوقه فنالة بيضاء مكتوب عليها من الأمام يوسف، لكن باللغة الإنجليزية وبأحرف كلها كبيرة بلون أسود وتحت الاسم قلب أحمر، قفز يوسف ليحتضن علي بحرارة، مبتسما حتى ظهرت الغمّازتين عن جانبي فمه وكان أقصر منه بفارق يصعب ملاحظته، لكن منكبيه أقل عرضا ووزنه أخف، شعره طويل ناعم يسقط حول رأسه عدا جبهته ليصل حتى أسفل أذنيه بقليل، أما جبهته فكانت ناصعة البياض ولا نمش فيها على خلاف علي، وعيناه واسعتان سوداوان، حسّس على رأس علي منزوع الشعر ثم داعبه بخفة:

- أين ذهب شعرك ؟ هل صادروه منك؟

ابتسم علي فقط للمجاملة ثم جلس جوار قاسم الّذى صافحه ثم احتضنه بلا مقدمات ولا حديث، وداخل السيارة وهي تمضى جلس يوسف خلفهما ممسكا بهاتفه الضخم يداعب شاشته بلمسات من أصابعه الرقيقة، يحادث فتاة شقراء تزامله في النادي ولم تره منذ شهر، عندما دلفوا باب المنزل كانوا جميعهم في انتظاره؛ غسان، مراد، وعلياء التي بكت من فرط سعادتها، وكانت ترتدى فستان زيتي اللون وتضع وردة حمراء في خصلات شعرها البنّية اللامعة، اودع علي جبهتها قبلة رقيقة وضم رأسها بيد واحدة إلي صدره الرحب، بعدها صافح مراد ثم قبّل يد والده ببرود، كانت رائحة العرق تضايقه فقرر فورا في رأسه أن يستحم أولا، وقد لاحظ جلده المتسخ عندما مر جوار المرآة الموضوعة على الحائط الخالي من الزخارف في الجانب

الأيمن من الصالة، أما الصالة فقد كانت واسعة مترامية لكن محددة الاتجاهات، ومرتبة بشكل متقن يحرص عليه غسان، عندما يدلف ضيف من الباب الخشبي القديم الّذى أصر غسان على عدم تبديله، تجد عن في آخر الجانب الأيمن المرآة الضخمة التي هي بطول رجل بالغ، ولها حواف من الخشب الصلب ناعم الملمس، وعن يسارك هناك طقم صالون فخم، أرائكه لها أقدام حمراء داكنة، منجّدة بشكل جيد وفوقها وسائد واثره، لونها أحمر وبها خيوط صفراء ترسم أشكال غزلان وظبيان، وفي الخلف الدّرج الّذى يؤدى إلى الدور العلوى وكلّه من الرخام الخالص، ومن خلفه أبواب من الزجاج تطل على الحديقة الداخلية التي يربّى بها غسان الطيور المحببة إلى قلبه، ويزرع بنفسه فيها النباتات الزهرية ذات الروائح الذكية والألوان المختلفة المتنوعة، جهّزوا الطعام فوق الطاولة الصغيرة في الجانب الأيمن والواقعة أمام المرآة.

طلب غسان منه تناول الطعام معهم لكنه اعتذر بحجّة الإرهاق، وصعد إلى غرفته في الدور العلوى دون كلام وبهدوء مريب، طلب منهم الوالد تناول الطعام بمفردهم وذهب إلى حديقته الخلفية ثم أغلق الباب من خلفه، في الأعلى أخذ علي حماما باردا نزع الغبار والعرق عن جسده، ثم ارتدى شورتا منزليا ونام على سريره حتى الثامنة مساءا، لم يوقظه أحد، وبالرغم من نومه الطويل إلا أنه استفاق منهكا بشكل مثير للدهشة، تناول العشاء مع العائلة؛ كان طعاما خفيفا من البطاطس المقلية وأنواع عديدة من

الجبن، ثم طلب من علياء الصعود إلى أعلى، وافتتح حديثه بنظرة ثاقبة في عين كل ولد من أولاده، نظرة طويلة وواثقة، بها ثقة فيهم وخوف عليهم، يعرف ما يدور بخلد كل واحد من أولاده، جميعهم على دراية بما سيفعل والآن عليه تأمين علي من نزوات الانتقام العشوائية، عندما أنهي حديثه حول الخطة التي شارف قاسم على إعدادها فقد اثلج الخبر صدر على، لكنه لم يظهر أبدا وظل مستمعا منصتا، وفي النهاية تمنى لهم الحظ الجيد في التنفيذ دون إضافة وبادر بالصعود للدور العلوى، فأمسك غسان بمعصمه وأضاف:

– عليك تقبّل إخفاء الأمر عنك كل تلك الفترة، كنت أريد الصالح لك وللعائلة.

– بأن تجعلني خارج إطار ثقتكم ؟

أراد غسان أنهاء النقاش في هذه المسألة، فليس طفلا ليعاتبه ولد لم يبلغ نصف عمره:

– هناك أشياء لا يمكنك أن تشاركها مع الجميع، بل من الخطر مشاركتها مع العائلة كلها، وهنالك دائما من يضحّون من أجل راحة البقية

ذبحت العبارات علي، فكل عبارة كما أن لها معنى جيد، فان لها معنى سيء لا يمكن للعين إبصاره، فقط يمكن الشعور به.

– وها قد حصلتم على الصالح من أجلى، ووحدي دفعت الثمن من بينكم، والآن أطالب بالمشاركة في كل أعمال العائلة.

صدم الطلب قلب غسان المنهك، علمته السنوات أن للشباب نفس منفلتة، وقرارات سريعة، لكنه شاهد في عين على قرار قد تمت دراسته طوال مدة الحبس، نظر لقاسم صاحب فكرة إبعاد علي عن معرفة أخبارهم، فوقف مضيفاً:

– عندما تنتهي العملية بإمكانك أن تشارك فيما تريد، لكن أولا عليك الابتعاد عن المشاركة في هذا، فقط أنا ووالدي سنشارك وجميعكم ستكتفون بالمشاهدة.

ثم التفت ليوسف الجالس فوق ذراع المقعد والممسك بشطيرة يلتهمها، ثم وإلى مراد المستريح في جلسته ثم أضاف:

– هل هذا واضح للجميع؟

أجاب علي بشكل واضح لا يقبل التأويل:

– واضح لكن من الآن عليكم أن تكفّوا عن مراقبة تحركاتي، وعليك إخبار جميع الرجال بتلقي التعليمات مباشرة مني مثلما يفعلون معكم جميعا، وأن تتم لي معرفة كل شيء خاص بالأعمال منذ الغد.

نظر قاسم للوالد الّذى أشار برأسه بعلامة الإيجاب والقبول، ليس إذعانا منه أو رضوخا لعلي، بل إدراكا منه أن الولد الصغير قد أصبح أخطر مما يمكنهم السيطرة عليه بعد الآن.

خلال أسبوع واحد قد فهم علي طبيعة عمل العائلة من خلال مرافقته لقاسم بل ملازمته، فكّر علي في البدء بالانتقام من قتلة عم جميل، لكنه

خشى طلب المساعدة من قاسم، وهنا لجأ على إلى شخصان لم يكن يعرهما انتباها فيما سبق، لكنه أدرك قيمتهما الحقيقة من خلال ثقة كافة أفراد العائلة فيهم، وتعاملهم معهم دون تكّلف أو تعال، سعد الحاوي، وكريم المجنون؛ هما الرجلان الأخطر والأذكى في العمل، وأسمائهم الثانية لا تعبّر عن أسم الأب، أو أسم العائلة بل هي كنايات قد اكتسبها كلّ منهم عن جدارة، لطالما عاملهم الوالد بطريقة تختلف عن بقية رجاله؛ لقد تناولوا الطعام كثيرا على مائدة العائلة، ولطالما عاملهم غسان الأب بفائق الاحترام والتقدير، فكانا كأنهما فردان من العائلة الكبيرة، طلب على منهما مقابلته في مقهي بمنطقة وسط البلد وقد ذهبا إلى هناك لكن بعد موافقة الوالد وهو ما توقعه علي تماماً.

وصل في الموعد ليجدهما ينتظرانه، سعد كان له مظهر لا يمكن إخطاءه، أو حتى تكراره؛ فله رأس ضخم يشبه الثور يكسوه دائما شعر قصير أسود غير منتظم، وله عينان واسعتان لا تشعران بالخجل، تصوّبان نظراتهما إلى كل شخص بلا تردد ودون حياء، له جسد ضخم وقامة قصيرة إلى حد ما، وأيضا بطن سمين لكن ليس مترهّلا تماما، وله ذراعان قادران على حمل رجل بالغ دون عناء، أمّا كريم فهو أطول من سعد بقرابة عشرين سنتيمترا، حيث يبلغ مائة وخمسة وثمانون سنتيمترا، منكبيه عريضان لكن أقل من سعد، وله مسحة ذكاء تغطى وجهه الأبيض الوسيم، وله طلّة باسمة تضفي إليه مزيدا من الجاذبية والعذوبة، دار حديثا حول الانتقام،

ظل علي يتحدث ويتحدث وهما يتابعان دون إضافة، ظنهّما سيوافقان لمجرد أنهما تحت خدمة والده دون نقاش، وحين رفضا شعُر بالضجر وعندما سأل عن السبب أجابه المجنون بطريقة عاقلة تماماً:

– أنت ترغب في الانتقام ولا تعرف حتى كيف تطلق الرصاص بعد، أنها ليست لعبة يا فتى، من تحاول قتله سيحاول قتلك أيضا، وليس الجميع محترفين بما يكفي للنجاة بأفعالهم، والغضب وحده لا يكفي للنجاح.

رفضا التورط في عملية لا يعرفان مداها، أو أعدائهم بشكل واضح، أخبرهم أنهم سيعلمونه اطلاق الرصاص فقهقه سعد بشكل هيستيري وكانت له تلك العادة السيئة في السعال أثناء الضحك الشديد مما يصيبك بالملل وأضاف قاطعاً:

– أنت تمزح يا فتى، لن نورّط أنفسنا مع شاب يلعب.

قال كلمته ثم شرع في لف سيجارة من كومة التبغ المخلوط بالحشيش أمامه على الطاولة، فصُعق علي من جرأته فابتسم مرة أخرى لتظهر أسنانه الصفراء وتتجلى رائحة فمه البشعة، أخبرهم على بأنه لا يمزح وأنه يريدهم أن يساعدونه فقط في جلب الأسلحة وتعليمه عليها، وربما أيضا تسهيل دخوله إلى المستشفى القابع فيه جلال ليستجوبه بطريقته الخاصة، لمح كريم الشرر يلتمع في عيني علي فوافق بتحفظ شديد، وعندما سأله سعد عن السبب بعد رحيلهما أجاب بكلمات متأنّية:

– لقد نفّذنا تعليمات غسان باشا في الرفض، لكن رأيت في عينيه رغبة شديدة قد تدفعه للتهور أكثر، ولن يسامحنا والده إذا تركناه وحيدا، سنساعده وسنراقبه في الوقت ذاته، أظنه اتفاق عادل للطرفين.

خلال أسبوعان كان قد تعلّم أطلاق الرصاص بدقة وثبات كافيين لصيد الدببة، وقد فهم علي لماذا يُطلق على كريم لقب المجنون عندما لمح نظرته أثناء إطلاق الرصاص وفرحته بالأمر، جلبوا معلومات حول ما حدث لكن لا زالت تنقصهم الأسماء والعناوين، اكتشفوا أن زوج عم جميل السابقة هي المحرّك الأول لعملية القتل، أغرت زوجها الجديد بقتله خوفا من انتقامه عندما يخرج من السجن، وقد شاركها رجال عم جميل جميعهم في العملية، عدا عزوز بالتأكيد الّذى ظل مخلصا حتى آخر نفس خرج من حلق رفيقه ومعلّمه، عندما عرف علي ما جرى، احتقر النساء كما لم يفعل من قبل، لعنهم جميعا وقرر قتل زوجها وكل من عاونها من ثم قتلها، الفكرة بدت له عاطفية بشكل مميز، لكنها بدت لسعد وكريم درامية بما لا يمكن احتماله، رفضا المشاركة ليس خوفا بل لأنهم يرونه مبالغا إلى حد كبير، فنطق في تلك المناقشة المحتدة بينهم:

– إنهم في النهاية مجرمون، ويستحقون ما ينالون.

أجابه سعد قاطعاً:

– ونحن أيضا، وأعني نحن جميعنا.

قال علي عن دون قصد، لكن بتلقائية محضة وغطرسة بحتة، يجب أن توافقوا دون مناقشة:

- لكنكم لستم جزءا من العائلة؟؟

نظر سعد وكريم إلى بعضهما البعض في حنق، وانتابتهم حالة من الرفض لاستكمال الحوار، لكن عاد كريم مرة أخرى ليقدّم التنازلات وتحدث بلهجته سليمة الأحرف، وبصوت خفيض لكن مسموع:

- لطالما عاملنا والدك على أننا جزء من العائلة، واليوم أنت تستمر في مسلسل إهانتنا؟

تراجع علي عن طيب خاطر:

- لم اقصد لكن عليكم مساعدتي في التخلّص من زوجها ذلك، لكن أولا سننتظر حتى نتأكد من جلال بأنفسنا، وأيضا معرفة موقع تواجد الخونة، وأسمائهم الكاملة، وفقط سنقتل العقل المدبر وأعوانه.

قال كريم وقد بدى كلامه مسموعا عند سعد بلا نقاش:

- لكن بمفرده، لا مزيد من الضحايا الشرفيين ولا مزيد من التهور؟

أجابه علي مستسلماً:

- موافق.

الفصل الثاني

تنساب أشعة الشمس عبر فتحات النافذة شبه المشرعة فتسقط جوار رأسه على هيئة خطوط رفيعة متوازية، ذبابتان يتناوبان على ملامسة أرنبة أنفه مما يثير الحكّة، يتقلّب ليسقط في فخ الشمس فيفتح عينيه الواسعتين السوداويين كطفل يبصر لأول مرة، نظر إلى النافذة بغضب، لا يدرى كيف نسى أغلاقها جيدا بالأمس، عندما وقف شعر بجسده كأنه دُهن بالعسل وصار له خاصية الالتصاق العجيبة تلك، العرق جعله يشمئز من الغرفة اللعينة، بعد حمام من الماء البارد انتهت أزمة الصباح، خرج إبراهيم من الحمّام ملتفًا ببشكير ليموني اللون، شعر بظمأ ومرارة في حلقه، فأتّجه إلى الثلاجة في المطبخ بينما يتقطر الماء من جسده المتناسق، شرب الماء البارد في زجاجة كانت سلفا لحفظ عصير ما، ونظر إلى زجاجات المياه الغازية والعصائر بلا أدنى رغبة، ثم سمع طرقات الباب، تعجّب لأنه يظن أن هذا ليس موعد حارس البناية، وترجّى وجود سبب مقنع يجعله يزوره في ساعة الصباح، فتح الباب ليبصر وجها جعله يرفع حاجبيه من الدهشة، ثم دلف شاب في الثلاثينيات من عمره في بذلة رمادية من جواره دون مقدمات وقال بسخرية:

– أنت لا ترتدى سوى منشفة؟ هل هكذا تفتح الباب عادة؟

لم يكن به طاقة للرد فتجاهل الجملة، وسار ناحية الغرفة الثانية والأخيرة للشقة الصغيرة، ولما سأله فتحي عن وجهته أجاب بفتور:

- سأعود فوراً.

جلس فتحي على الأريكة التي تتوسط حائط الصالة المستطيلة المفروشة بمفرش متهالك، وأمام الأريكة تلفاز من طراز قديم وفوقه جهاز تحكّم عن بعد فقد ذرّين أساسيين، أشعل سيجارة بقدّاحته ثم وجد منفضة السجائر ممتلئة عن آخرها، أراد إلقاء ما بها فلم يجد سلة مهملات فخبت عزيمته، وقال بتلذذ:

- منفضة سجائرك ممتلئة كغابة.

لم يجب إبراهيم من الداخل فتحسس فتحي المسدس في جيب المعطف، ثم نفس الدخان الأبيض من فمه دون إخراج السيجارة وهي حركة يحبّها كثيرا حتى تظنّه قد بدأ التدخين فقط ليفعلها، لكن الحقيقة أنه بدأ منذ صغره حتى أكتشفه والده، وبعدها صار يدخن بتلك الطريقة لأنه ما عاد يخشى إخفاء شيء مرة أخرى، نظر حوله فلم يجد سوى الكراس الخشبية المتهالكة، ومرّوحة سقف تعمل بكفاءة جيدة لا يوحى بها شكّلها المترّب، شعر برغبة في تناول مشروب لكنه خشى السؤال لما يوحي به مظهر الشقّة، لكنه قد سار طويلا في الأسفل ليصل للمبنى القديم في أحدى الشوارع الجانبية، وقد سأل خمسة أفراد مذ دخل المنطقة عن العنوان حتى يصل والحرارة في المكان تصيب حلقه بالجفاف، فسأل في النهاية مرغماً:

- لا يوجد هنا ما يشرب أليس كذلك؟

أجاب إبراهيم من الداخل بلا مقدمات:

- الثلاجة عندك في المطبخ، جوار الغرفة الأخرى بقليل.

فتّش فتحي عنها، ولم يجتهد ثم فتحها وتحسس هواءها ليدرك أنها تعمل، بحث داخلها وصاح زهوا عندما وجد زجاجة – مياه غازية – :

- ثلاجتك حققت أحلامي.

عاد إلى الأريكة وهو يتلفت حوله ليعرف مداخل ومخارج المكان، وجد نافذة ضيقة في المطبخ، لها أسياخ حديدية بينها فراغ لا يكفي لمرور فأر سمين، هناك واحدة أخرى في غرفة النوم لكنها أكبر ولها شيش خشبي يفتح للخارج، لكنه يطل على الشارع، فتح زجاجة المياه الغازية وشرع في تناولها، عندما عاد للأريكة شاهد إبراهيم يحك فروة رأسه ثم يفرك عيناه، وكان مرتديا شورت منزلي أزرق واسع، فنالة داخلية رمادية ليس لها أكمام، كان جالسا فجاوره فتحي ثم قال دون خجل:

- شغّل لنا التلفاز.

أجاب إبراهيم وهو يتثاءب على راحته ودون خجل:

- التلفاز لا يعمل، لقد خدعني المستأجر.

وضع فتحي قدميه على الطاولة الخشبية أمامه فتحمّلته، فقال:

- على الأقل لديك طاولة جيدة.

نظر إليه إبراهيم بتبجّح، شاهد زجاجة في يده يرشف منها بين لحظة وأخرى، وفي اليد الأخرى سيجارة يتصاعد منها خيط من الدخان ليخرج من النافذة العالية خلفهما، قال بلا تردد تعليقا على راحة فتحي في المكان كأنّه ولد هنا:

– يبدو أنك تتدبر أمورك بشكل جيد.

تضاحك دون حياء حتى كاد يُسقط الزجاجة من يده، رمق الدهانات المتساقطة عن الحيطان لتخلّف الإسمنت بلونه الرمادي الكئيب، خاصة في أسفل الحيطان، ثم قال:

– بيتك حلو

فرك إبراهيم جبهته وتجاهل سخرية صديقه، وسأل بشكل مباشر

– لماذا جئت؟

رشف من الزجاجة حتى انهي نصفها ثم وضعها على الأرضية جواره، وسقط رماد السجائر على السراميك فلسعه بلون باهت:

– لي مدة لا أعرف عنك شيئا، لقد اختفيت بشكل أقلقني، فص مل وذاب، جئت أسال عن أخبارك.

رمقه بنظرة غير مصدّقة، ولا مبالية وقال دون عناء:

– فيك الخير.

تابع فتحي تناول زجاجته حتى أنهاها، وسيجارته قد قاربت النفاذ، رمق البيت بنظراته:

- تفاجأت بوصولي أليس كذلك؟

- على العكس، لقد كنت أنتظرك.

تضاحك فتحي وأكمل:

- ما زلت تتظاهر بتوقع الأشياء قبل حدوثها، لكن لن تلعب هذه اللعبة معي، لا أحد يستطيع قراءة الطالع يا صديقي.

لم ينظر إبراهيم إليه، ونظر خلفه ليتابع عصفورا هزيلا قد حط فوق حافة الشباك الواسع، المفتوح خلفهما وأجاب بمزيد من العبث براس فتحي

- ومن قال انى أفعل ؟

- حسنا، لا تقرأ الطالع ولكن ماذا تفعل؟

- فقط أتوقع الأشياء، أنت تعرف جيدا أن المقدمات تؤدى إلى نتائج

- وماذا تتوقع الآن؟

غادر العصفور فنظر إبراهيم إلى أعلى متظاهرا بالتفكير ثم التفت لينظر مباشرة في عين فتحي المرهقة من قلّة النوم:

- أتوقع مثلا أنك لم تنم جيدا منذ مدة، وأتوقع أيضا حملك لمسدس في جيب معطفك الآن، تتحسس موضعه كلّما أدرت لك ظهري، كأنك تستعد لما هو قادم.

عبس وجه فتحي، تمنّى لو أنه لم يسأل عما يتوقع إبراهيم، وأجاب درئا للشبهات:

- لا أريد قتلك، لا تخف.

وقف إبراهيم ثم سار ناحية النافذة ليواجه ضوء الشمس، ويحاول متابعة خط سير العصفور، ثم أجاب بلا تردد، وبثقة كبيرة:

- من قال أنّى أخشاك.

لقد نجح في إثارة أعصاب فتحي كالعادة، بينما هو جبل من الثلج لن تفلح الشمس في إذابته، وقف فتحي جوار إبراهيم والقى بعقب السيجارة إلى الشارع المزدحم بالمارة:

- لا تتظاهر بالقوة، أنت حتى لا تحمل سلاح.

- الخوف للضعفاء، سحقا للجبناء.

- أنت متهور.

أستدار له إبراهيم وأسند ظهره على الحائط جوار النافذة:

- وأنت ماذا تريد ؟

تحرك فتحي ليجلس مرة أخرى وقد كاد يسقط الزجاجة الفارغة المنتصبة على الأرض أثناء سيره، جلس ووضع قدمه اليمنى فوق اليسرى تماما وبميل شديد:

- أريد منك المساعدة.

شعر إبراهيم بخيبة أمل، لا فائدة من انتظار الخير من فتحي، إنها مصلحته فقط هي ما تحركه، الصداقة عنده قد تحل في المرتبة الثانية، أو ربما الثالثة بعد النساء، أو ربما تظل تتراجع في الترتيب لصالح ملذات الحياة، يستمر في الوقوع ويرغب في أن ينتشله إبراهيم من الوحل:

- مرة أخرى تطلب المساعدة؟

غيّر فتحي من وضعية جلوسه في شكل عصبي، شبك يداه منعا للتوتر، احنى ظهره للأمام ومال برقبته ناحية إبراهيم الثابت مكانه بلا رد فعل حركي، أو حتى ظاهري.

- هذه المرة أنا في ورطة كبيرة

أجاب إبراهيم بدون تأثّر:

- وما الجديد؟

اضطرب فتحي، لم يشعر بنفسه إلا وهو يمسك بكتف إبراهيم، ضغط بأصابعه على عضلات إبراهيم، ولم يحرك إبراهيم ساكناً:

- هذه المرة مختلفة، عليك مساعدتي

- اخبرني أولا كيف عرفت مكاني ؟

ترك كتفه وشعر بلزوجة العرق، مسح العرق عن جبينه بيده اليمنى ثم تذكّر وجود مناديل بجيبه:

- أحمد فخرى اخبرني أنك اشتريت مسكنا جديدا بعيد عن الأعين.

اغلق إبراهيم النافذة التي جلبت هواء حارا، ثم تثائب وهو يقول:

- لقد جئتني مبكرا جدا، هل تدرى كم الساعة الآن ؟

حرك فتحي يده اليسرى ليبصر ساعة البلاستيكية السوداء.

- التاسعة والنصف صباحاً.

- عليك اللعنة، يبدو أنك واقع في ورطة كبيرة.

يكره عندما يبدا إبراهيم في لومه، لماذا يستمر في لعب دور معلم الصف الثاني الإعدادي الّذى يلومه على شراء جلّاد أصفر للكشكول بدلا من كراسة صغيرة ذات جلّاد أزرق، وكان دائما ما يفكر في الفارق اللعين بينهما لكنه استسلم في النهاية لعدم وجود إجابة، والآن عليه تحمل سيل من التأنيب لكنه سيتحمل على كل حال، فلو لم يكن بحاجة للمساعدة ربما لم يكن ليسأل عن إبراهيم ولو اختفي قرنا، بل لو دفن وتحلل في قبره:

– اعرف انى في مصيبة اتفقنا؟ لا مزيد من التأنيب.

– قرابة شهر وانا انتقل بعد آخر عملية قد ورطتني بها، واليوم تطلب المساعدة بهذا الشكل الوقح ؟ ماذا تعتقد سيكون قراري.

سيحاول حتى آخر قطرة عرق في رأسه:

– المرة الأخيرة.

بدأت الأفكار تزدحم في رأسه، استدار في الغرفة قليلا، أشعل سيجارة مرة أخرى سقط رمادها يحمل كما هائلا من الغيظ ثم استكمل:

– اسمعني جيدا يا إبراهيم، إنها فرصتي الوحيدة كي أنجو، تخلى الجميع عني، حاتم عزام وحلمي الصباغ ورجالهم، حتى سليم الحقير قد تخلى عنى.

– أرى جيدا أنك وحيد تماما، وإلا لما لجات إلى، أعرف أني خيارك الأخير وورقتك الأقل ربحية في جعبتك، وعندما تخلو الجعبة من الأوراق ستغامر بآخر ورقة لديك.

لقد كان محقا بأكثر مما توقع فتحي، لطالما كان إبراهيم ذكيا لكنه لم يكن أبدا واضحا بهذا الشكل، أو صريحا بهذا القدر المؤلم، خرجت عن فم إبراهيم نبرة متعالية وهو يشير بإصبعه مباشرة في وجهه:

- توقف عن هذه النبرة الحقيرة

توقف فجأة مستدركا غضبته، أدرك أن الغضب لا يلائم طلبه، تلتف الشباك بسرعة شديدة حول عنقه، لو أن لديه خيار آخر لما تحمّل كلمة واحدة:

- إبراهيم، اسمعني جيدا، لقد صعدنا معا، قضينا حياتنا معا، ولن نسمح لهؤلاء الأوغاد بتفرقتنا مهما حدث.

اقترب من إبراهيم أكثر واستعت حدقتا عينه فيما يضيف:

- معا يمكننا تجاوز أي شيء، ولا يمكن لأحد إيقافنا، نحن الرياح العاتية التي ستقتلعهم، هل تذكر؟ انهم يخشوننا معا وقد حان الوقت لعودة الخوف.

حدجه إبراهيم بنظرة لا حياء فيها، نظرة حادة كنصل السيف ولا مبالية للحياة أو الموت.

- هل ينبغي أن أصدقك؟ هل ينبغي أن اصدق انك لا تستغلني لتنجو مرة أخرى ثم تتخلى عنى، بل ربما تتخلص منى؟ هل تقسم على هذا.

ابتسم فتحي بمكر ثعلب، احتضن إبراهيم الّذى ظل جامدا مكانه، قسم آخر كاذب سيتجاوز به رقمه القياسي السابق، هناك مثل مصري يقول: " قالوا للحرامي احلف، قال جالي الفرج " سيجعل من الكذب طوق نجاة وسحقا للضمير المتوفي منذ قرون:

– اقسم لك يا صديقي.

بعدها جلس فتحي على الأريكة غير المريحة وقال إبراهيم قبل أن يتجه نحو المطبخ:

– حسنا، سأعدّ شيئا نتناوله.

وبينما يجلس فتحي بمفرده في الصالة لاحظ صورة قديمة تجمعه بإبراهيم، كانت في اطار أصفر بسيط وبضعف حجم كف اليد، موضوعة فوق الطاولة التي كان لها لونا بنيا فيما سبق، وجوار التلفاز المعطّل حتى تكاد تلتصق به، أمسك بها ومسح عنها بعض الغبار بكفه، ثم صاح ليسمعه إبراهيم في الداخل:

– آه، أنت لديك تلك الصورة التي التقطناها في حديقة الحيوان، كم سنة مرت على تلك الصورة؟ تخيل انى لا أذكر.

داعبت الذكريات رأس إبراهيم وهو يفتح الثلاجة ليخرج علبتين من سمك التونة، وعلبة جبن أبيض، أجاب متذكرا مرور السنوات المتسارع، حتى صدمته الإجابة هو نفسه.

– حوالي ثلاثة عشر عاماً.

كرر فتحي جملة إبراهيم وأضاف:

- تخيل أني لا اذكر أحد في الصورة غيرنا نحن الاثنين واحمد سامح؟ رغم أننا كنا ثمانية كما هو واضح، لقد كان ولدا ساذجا بشكل يثير الضحك، هل تذكر حكايته مع فاتن؟

- نعم اذكر، الغريب أن تتذكر أنت؟

كيف لا يذكر؟ وقد كانت فاتن فتاة أحلامه في تلك الفترة، شعرها الأسود الناعم المسدول دوما، وصدرها الممتلئ بالأنوثة، كلما تذكّر أنها فضّلت أحمد سامح عليه يموت كمدا، يوم اعترف لها بحبه وإعجابه أخبرته أنها تحب احمد سامح، يذكر أنه أخبرها بانه طيب لكنه ساذج وليست به روح مغامرة، وساعتها غضبت ورحلت في صمت، وقد عاد هو ليصرخ في الغرفة المشتركة مع إبراهيم بأنها فضلت عليه ولد أقل رجولة منه فتضاحك إبراهيم وسخر منه قائلاً:

- وهي مهرة جامحة، يا له من فتى محظوظ.

- تخيل يا إبراهيم، أني لا أصدّق حتى الآن أنها أحبّت ذلك التافه ؟

ذكّره إبراهيم بنفس الإجابة التي علل بها الأمر منذ أعوام:

- لقد كان محترماً.

ومسح رأيه بأنها قد كانت ذكية بما يكفي لتدرك أنها لا تريد مشروع جثة مستقبلية، لا تريد حبيب مؤقت، بل تريد زوج دائم، لكنه كان مخطئاً

أيضا فهي لم تحتمل ذلك الساذج سوى ثلاثة أشهر ثم صاحبت غيره، فهي مهرة جامحة لا يقدر عليها:

- أجل، محترما، أنه لم يسبّ أحد سوى واستغفر طوال اليوم، هي لم تتحمل شدة طيبته فتركته ثم بعدها بعامين سمعنا خبر خطبتها على منير.

ضحك إبراهيم في الداخل وبصوت مسموع كمن سمع دعابة جنسية فاستفسر فتحي:

- علام تضحك؟

- على منير الغبي، هل تذكر أننا حضرنا حفل الزفاف؟ يومها قد غادرت أنت وبقيت أنا، أخبرني منير يومها أنه لم يقبّلها ولا مرة سوى في حفل الخطبة، يومها منعت نفسى عن الضحك بصعوبة، لا أغبى من أحمد سامح سوى منير، أنا حقا لا أدرى ما سر إعجابها بالأغبياء.

أجاب فتحي ليريح نفسه:

- ربما لأنها غبية.

جاء إبراهيم في تلك اللحظة وهو يحمل صينية معدنية فوقها بيض مسلوق، وصحنان من التونة المفتتة والجبن الأبيض، وأحضر معه زجاجتان مياه غازية برتقال، بادر إبراهيم بتناول الطعام ثم تلاه فتحي، كان إبراهيم يزدرد الطعام بشراهة دب، وفتحي يتناول من الأطباق التي يتناول منها إبراهيم أولا خوفا من الغدر، لاحظ إبراهيم الأمر ولم يعلّق، ثم تناولا زجاجتا المشروب المغلقتين، كان مفتاح الزجاجات حديدي صدئ، فتحاها

به ثم شربا حتى آخر قطرة، بعد الطعام ارتاحا على الأريكة لدقائق من الصمت، ثم بادر إبراهيم بالقول:

- هيا بنا يجب أن نذهب.

ظهرت علامات التعجّب على فتحي، لكنه الريبة قد غادرته فسأل مستفسرا مع وجود شعور بالشك يتناقص، لكن لا يمكن إجفاله:

- ما الأمر؟

- اعتدل إبراهيم في جلسته، وحرّك يده اليمنى مرّات لأنه كان مستندا عليها مما منع الدم من السيلان فيها بسهولة، فأصابها بشعور يشبه الخدر.

- أنت قلت أن أحمد فخرى قد أخبرك بمكاني، وطالما أنت عرفت مكاني فمن الممكن أن يصل شخص آخر إلى هنا وبسهولة.

فهم فتحي وأضاف وهو يسخر من خوفه المبالغ فيه من صديقه، فلن يعرف إبراهيم ما في قلبه أبدا ولو ضمر له الشر فهو وغد يقدّر الصداقة بسذاجة:

- إذن لم يعد المكان مناسبا للاختباء، معك حق، لكن أين سنذهب الآن؟

قال إبراهيم وهو يهم بالوقوف بطريقته المترنحة المعتادة كأنه سكير، وهو ليس كذلك في الواقع لكنه أعتاد التظاهر بالخمول حتى يأمن خصومه مكره، وقد أصبحت عادته في الحركة حتى ولو كان بمفرده:

- لدي موعد.

لم يكن بإمكان أحد أن يعرف صدق أو كذب إبراهيم، فلديه نبرة صوت عميقة وثابتة النغمات في كل الأحوال، ولهذا فأن فتحي كان دوما يخشاه، على الرغم من أن إبراهيم لم يكن يكذب على فتحي، بينما فتحي ظل دوما يراقب إبراهيم وهو يكذب على خصومهم بطريقة يكاد هو نفسه تصديقها:

- لم يبد عليك الانشغال ؟

ملّ إبراهيم النقاش كعادته، نفض الغبار عن سرواله ونظر بعيدا عن كسرات الخبز المتناثرة فوق الأريكة، والمصباح الأبيض المعلّق في السقف تنعكس أشعته في وجه فتحي المتعرّق، فتجعل حدقتا عينه تنغلقان وتنفتحان في غير انتظام، قال إبراهيم موضحا وهو يكره الوضوح ككراهيته غير المبررة ليوم السبت:

- لا أتسرّع عندما يكن عندي موعدا مع امرأة.

- لكنك لم تخبرني منذ البداية؟

اغتاظ إبراهيم، ونظر بعيدا وهو يزفر الهواء بعصبية، ثم وضع يداه في جيبا سرواله ويهتز جسده للأمام وللخلف قليلا عندما يتحدث بعصبية:

- هل ينبغي أن أخبرك كلما كان لدى موعد مع امرأة لعينة؟ هل بدأت في الشك من الآن؟ بربك يا رجل، نحن انتهينا من تناول الطعام توا وبدأت تستجوبني بشأن تافه.

- أنا متوتر قليلا، لا تغضب مني.

أجاب إبراهيم وهو ذاهب لغرفته من أجل تبديل ملابسه:

- لا عليك، انتظرني هنا لدقائق، سأرتدى ملابسي وأعود للنزول.

مضت دقائق ولم يخرج إبراهيم، فتحسس فتحي موضع المسدس، أحيانا يتمنى ألا يكتشف إبراهيم شيئا حتى يساعده في الخروج من مأزقه، وأحيانا أخرى يتمنى أن يكتشف إبراهيم أنه لم يعد صديقه منذ مدة، لكنها المصلحة ما تبقيهما على علاقة، يريد أن يكتشف إبراهيم الألاعيب التي حاول حياكتها للإيقاع بإبراهيم من أجل التخلص منه لكن للأسف فشل، فعندما يعرف إبراهيم كل هذا سيغضب، لكن قبل أن يتصرف فسيناوله فتحي رصاصتين في رأسه الصلب حتى يضمن انتهاء حياته بقلب، يحمل قلب فتحي الضغينة لإبراهيم لكن لم يحن الوقت لإظهارها طالما لا مصلحة في ذلك، صاح فتحي وهو يتخيل مشهد الرصاصات وهي تخترق قلب صديقه وهو ملئ بالغيرة:

- هل لديك سيّارة؟

لم تأت الإجابة، ثم خرج إبراهيم في بذلة رمادية، أسفلها قميص أبيض ناصع، ولا يظهر عليه علامات المبادرة بفعل شيء:

- نعم يوجد سيارة في الأسفل، لكن هل جئت أنت مشيا؟؟

أدرك فتحي أن ملاك الموت لن يكتب له عملا جديدا على يديه اليوم، وأجاب وهو يبستم على المزحة السخيفة التي لم يقصدها إبراهيم من الأساس.

- لا، لكن جئت في سيارة أجرة.

نزلا من البيت وعقل فتحي لا يكف عن التفكير، فهو يعرف أن إبراهيم لا يعير مواعيده الغرامية أهمية كبيرة، خاصة بعد زواج فتحي من حبيبة إبراهيم السابقة (هايدي)، كانت تربك إبراهيم بشدة مما جعله يفكّر ساعتها في الزواج منها وهو ما كان مستحيلا في رأيه، لكن كالعادة فأن فتحي لديه سرعة خاطفة كبرق، لم يهمل صديقه وقتا ولم تمانع هايدي الزواج من فتحي في مفاجئة غير متوقعة، بعدها تعامل إبراهيم مع النساء كسلعة استهلاكية لا يجوز الاحتفاظ بها طويلا منها للحموضة، فهي في رأيه منتج تنتهي صلاحيته بعد ساعات قليلة من استهلاكه، وكلما تكلم إبراهيم بعد ذلك اليوم عن فتاة يخشى فتحي من أنها هايدي وهو على جهل، مما زاد من الشجار بينهما وفي أول شجار كبير بين فتحي وهايدي، عندما ضربها فتحي بقسوة لأول مرة، وقفت في وسط الصالة وصرخت فيه:

- هل أنت رجل الآن؟ إن إبراهيم أكثر رجولة منك، فهو فحل بينما أنت قزم.

يومها استشاط غضبا، لم يكن يعرف هل هي كاذبة أم لا، وقد بدى كلام جنسي النزعة بشكل زاد من هياجه فضربها يومها بشدة، وضاجعها رغما عنها وبشراسة دب، ثم عندما انتهي منها وجدها مغمى عليها من التعب، فسقط جوارها خائر القوى، تنتفض أوصاله وعروق أعضائه التناسلية بشكل أفزعه، ولم يتركه فكره يخلد إلى النوم تى صباح اليوم التالي،

والذى قرر فيه عدم الأنجاب منها، لكن القرار لم يلبث أن أصبح خاليا من المعنى بعد أن أجبرته هايدي على الأنجاب بتوسلاتها التي لا تقاوم.

عندما نزلا إلى أسفل، وأمام البناية كانت شمس الصيف تلفح قفا عامل نظافة عجوز، يكنس الشارع بخطوات متسارعة غير متقنة، ويعبر قط ما بين أقدامه المسمارية فينتفض شعر ساقيه وما تبقى في رأسه الأملس من شعيرات على جانبي رأسه، ركب إبراهيم السيارة وركب فتحي جواره في سيارة بنيّة حديثة، أشعل إبراهيم مكيّف الهواء في السيارة وأغلقا الباب بنوافذه الزجاجية منعا لتسرب الحرارة إلى الداخل، فصارت السيارة رطبة ثم تحولت إلى البرودة الخفيفة المانعة لسيلان العرق المقرف، قال فتحي وهو يستمتع بجو السيارة:

- حر الصيف لا يمكن احتماله أحياناً.

تذكّر إبراهيم أيام الشباب الأولى لهما، وعدم تبرمهما من الطقس ولا صعوبة المهمة، فكانت لديهم سمعة قوية في تنفيذ المهمة في أسرع وقت، وبكفاءة عالية وبلا شكوى، قال إبراهيم وهو ينطلق بالسيارة إلى الأمام:

- هل تذكر عندما كنّا نركض في الشوارع بملابسنا البالية بحثا عن لقمة العيش، وليالي النوم على الأرصفة؟

لا يريد فتحي تذكّر تلك الأيام الصعبة ذات المخاطر العالية، هو فقط يريد تأمين حياته الآن بأية ثمن، ولا يحب استرجاع هذه الذكريات بل ويمقتها بشدة.

- هل أنت جاد في سؤالك؟؟

- ماذا تعنى؟

لا يكاد فتحي يصدق أن إبراهيم لا ينسى تلك الأيام، بل ويريد معاودة الحديث عنها كذكريات طفل ملكة مدلل:

- بالتأكيد لا أريد أن أتذكّر تلك الأيام، هل أنت مخبول للتفكير في أيام الجوع والفقر؟ أنا حقا لا أفهمك بشكل واضح.

لم يحاول إبراهيم التنصل من حياته السابقة مثلما فعل فتحي، لكن أيضا لا يفاخر بها أمام الغرباء، لكنه يكره عدم الاعتراف بحقيقة أنها كان لا شيء فيما سبق، فلو قال أحد لإبراهيم أنه سيمتلك سيارة مثل هذه في يوم من الأيام لأعتقد أنه يسخر منه، ولو أعطاها له أحدهم أو حتى سرقها فسيبيعها لجلب سيارة نقل جماعي صغيرة (ميكروباص) من أجل العمل عليها، لكن كما يقول فتحي دوما فعندما تعتاد ضغط الزناد فأن الأبواب تنفتح لك على مصراعيها، وترحّب بك الدنيا على طريقتها الفاخرة، قال إبراهيم:

- لكن هي ذكرياتنا على كل حال.

ضحك فتحي بصوت مرتفع انحصر مداه داخل حدود السيارة، وفي تلك الأثناء كانا يخرجان من الشارع الجانبي إلى الشارع الرئيسي المزدحم.

- كلامك مضحك، نحن الآن لدينا المال، لو أردت الذكريات فأشترى كما هائلا منها بمالك، وأصنع لنفسك ماضيا مزيفا، أرتدى بدلات

غالية الثمن، وأقتحم مجتمع الصفوة، ثم أختر لك فتاة فاتنة تجلس بمفردها وقل لها أن جذورك تعود لأسرة ملكية، أو حتى أن والدك كان من الأعيان في زمن فائت وستصدقك، هل تعرف لماذا ستصدق، لا تتظاهر بالجهل أنت تعرف أنها ستضحك وستصدقك بسهولة، ولن تشكك في كلمة واحدة منك طالما كنت قادرا على دفع حساب طلباتها الغالية، ولو هاديتها بخاتم ثمين فبعدها أختلق لها قصة وهمية عن مغامراتك الشيقة في أوروبا ورحلاتك الشهرية لجذر هاواي التي لا تعرف حتى مكانها، وستضحك على نكاتك السخيفة كلها كعاهرة.

يعرف إبراهيم أن بإمكانه اختلاق قصة وهمية لعينة وسيصدقها الجميع، فمعيار الصدق أصبح كم الأموال في حسابك البنكي، لكنه لا يريد اختلاق تلك القصص، فلن يكون سعيدا لو اكتسب احتراما أو حتى بغضا من أحد بتلك الأكاذيب التي لم يفعلها، فبداخله جزء يؤمن أنه لو نال احترام أحدهم فعليه أن يستحقه، ولو كسب احتقار أحدهم فمرحبا بذلك، قال إبراهيم وهو يسخر من الواقع:

- هل تعرف أنك كاذب حقير.

أخرج فتحي سيجارة، ثم أشعلها وهو يجيب مفتخراً:

- أعرف وهذا يسعدني، لكن عليك أن تعترف أنت أيضا أنك لعين، فلو كنت قديسا لما ركبت سيارة فارهة كهذه يا صديقي.

لم يغضب إبراهيم من ألفاظ فتحي النابية بخصوصه، وتذكّر ما سمعه منذ فترة عن شخص يعرفانه كلاهما.

– هل تعرف أن كلامك يذكرني بما فعله سمير إسكندر، ذلك السياسي المرموق في الانتخابات الماضية، هل تعرف أنه في حملته السابقة قد أوهم الناخبين أنه عصامي حتى النخاع، وأنه لا ينقطع عن الصلاة.

كان فتحي يتابع قطا يفترس فأرا على الرصيف، وقد شعر بوجع في معدته لكنه غير مقلق، ثم عقّب دون أن يحيد ببصره عن القط:

– هو لا ينقطع عن الصلاة فقط لو جعلوها فوق أجساد النساء العرايا، لقد شاهدته مرة رؤيا العين في مطعم شهير وكان في ضيافة عبد الكريم البني كالعادة، وكان لسانه منفلتا، خلافا لبرنامجه الشهير الذى يتظاهر فيه بالورع والفضيلة.

أضاف إبراهيم:

– نعم إنهما يتقابلان كثيرا في مطعم بمركز تجارى يمتلكه عبد الكريم البني، مركز الفيروز التجاري، أذكر أني في يوم كنت عند عبد الكريم البني في القناة التي يمتلكها، وقد شاهدة حلقة من برنامج (الحقيقة) من تقديم سمير إسكندر، كان يتحدث يومها عن الفقر ولقمة العيش، وعجلة الإنتاج وكل تلك الأشياء العصيّة على الفهم والفارغة من المعنى، وكان متأثرا جدا بمكالمة هاتفية من شاب عاطل، كاد يبك على الهواء من فرط التأثير بينما كنت أنا أشرب علبة بيبسي بكل برود، ولم أعرف كيف له أن يتأثر بهذه

الطريقة، كدت أصدّق أنه متأثر وكنت منخدعا كطفل غبي، خاصة عندما طالب الحكومة بمزيد من الرعاية والاهتمام بالشعب وهو في قمة الغضب وبنبرة صوت مرهقة، وفي نهاية اليوم وأنا أقابل السيد عبد الكريم البني في مطعم في الدور الثالث بالمركز التجاري وجدت سمير إسكندر يأكل الكافيار ويتضاحك بشراهة التهامه للطعام ويرمق النساء بنظرات ذئب لعين، ثم أخبرني عبد الكريم وأنا راحل بأن ساعة يد السيد سمير يبلغ ثمنها مائة الف جنيه، بينما يبلغ ثمن سيارته في الأسفل نحو نصف المليون.

ارتفعت ضحكات فتحي بشكل تلقائي مستفز كالعادة وقال بلا حياء:

– هل كنت ستصدق سمير إسكندر؟ أنت غر غبى حقا، أين تضع رأسك يا رجل؟ بالتأكيد قد فقدته في مقامرة فاشلة:

تضاحك إبراهيم وقال:

– كنت ساذجا، لكن تخيّل ماذا فعلت يومها ؟

– لا أعرف، قل؟

ابتسم إبراهيم بمكر، مسترجعا الموقف بفخر.

– لقد سألت عن سيارة السيد سمير، ثم اشتريت موسى وخربشت طلائها كله وثقبت إطارتها وقلبي يقفز من الفرح.

ازدادت ضحكات فتحي، وقد سعل حتى كاد يسقط في كرسيه خامدا، ثم قال وصوته يزداد ضعفا، بينما الوجع في معدته يزداد.

– مجنون.

ألم المعدة وحده أجبر فتحي على إيقاف نوبة الضحك، لكنه لم يستطع إيقاف السعال إلا بصعوبة بالغة، يشعر بأن عظام قفصه الصدري تصطك بعنف، وقلبه مضطرب لا يكف عن النبضان بعنف مريب، حاول تحمّل الألم حتى صعدت مرارة إلى فمه كادت ترغمه على استفراغ ما في معدته من طعام، وساد شعور لديه بأن الطعام كان فاسدا لا محالة، ولّما شعر أن الألم فوق احتماله، سأل دون مقدمات:

- إبراهيم، عندك أقراص لوجع المعدة؟

تفحّص إبراهيم مكنونات السيارة، وأجاب بإشارة النفي، فتح فتحي نافذة السيارة عن جواره ليشتم هواء صافيا، فهو يشعر بانقباض غريب في أنفاسه، نظر للخارج ليجد نفسه في خضم زحام لا ينتهي، حاول رؤية صيدلية قريبة لكن فشل، ثم سأل وهو راغب في تناسى الألم:

- إلى أين أنت ذاهب يا إبراهيم؟

نظر إبراهيم في ساعة يده اليسرى وهو يضغط على المقود بعنف مصدرا ضجيج مزعج، ولاحظ أن الوقت قد أوشك على النفاذ، فالتفت إلى صديقه بلا تعابير، أو كلمات، أخرج سيجارة من علبته ثم أشعلها ببطء متعمد، في تلك الأثناء بدأت أعصاب فتحي في الارتخاء، وخارت قواه وهمدت عضلاته، شعر أن الكون أرحب، لكن قصبته الهوائية أضيق من ثقب، يستنشق الهواء كغريق، ويتصبب عرقا، لاحظ خمول روجه وبدأ يفهم ما أصابه، نظر إلى عينا إبراهيم الصامتتان وقال وهو يبلل شفتيه:

- هذه هي النهاية؟ أليس كذلك؟

لم يجبه إبراهيم، تسللت فكرة المسدس إلى رأس فتحي، لكن لم يساعده بدنه على إتمام ما أراده، فورما مد يده أمسكها إبراهيم ثم وضعها فوق صدره المنقبض، وقد تسارعت وتيرة الألم والخمول بشكل عجزت أمامه أقدام فتحي عن الحركة، بل وبدأت أصابعه في التيبس، ابتسم فتحي ثم أضاف ساخراً:

- إنها النهاية إذن، هل ستتركني ؟

يسير السم في دمه بسرعة مبهرة، بتلك الوتيرة سيفقد حياته خلال دقيقتين على أقصى تقدير، فقد بدأ حلقه في الجفاف، ودنى أجله، أجاب إبراهيم وهو ينفث الدخان:

- أخشى أنها محطتك الأخيرة.

شعر فتحي بفناء كل شيء حوله، قبل أن يدرك إنه فناءه هو وليس فناء الأشياء، فابتسم دون ضحك ثم تابع الحديث الذى يدرك جيدا أنه الأخير:

- هكذا أذن، هنا في وسط الزحام سأموت، وسط السيارات والأدخنة والباعة الجائلين، أنت حتى لم تشترِي لي زهرة وداع؟

تحركت السيارات من أمامهم، فتقدم إبراهيم بالسيارة قليلا إلى الأمام، نظر إلى الخارج من النافذة جواره هو فلمح سيارة ليست فارهة، تركب سيدة في رداء أحمر قاني، وإلى جوارها رجل شعره قد تساقط نصفه، ويكبرها بعشر سنوات على أقل تقدير، فبينما هو في الأربعينيات فقد ظهر

أنها في الثلاثينيات على أقصى تقدير، لمحت وجه إبراهيم الصلب المحدق فيها، كادت ترتعب من نظراته الطويلة الصامتة، ثم فجأة اعتدل ونظر ناحية فتحي وهو يقول:

- الزهرة سأتدبر أمرها فيما بعد، وستكون سوداء بلا رائحة، يوجد امرأة في السيارة جوارنا وتبدو فاتنة ومن النوع الذى تحبه، هل تريد أن تلقى نظرة قبل أن تغادر؟

أبتسم فتحي ولا شيء في رأسه سوى الفناء، كان يرغب ألا يموت رغم أنه يشتم الآن نسيما مختلفا للهواء، يبدو خفيفا حتى يكاد يخترق خلاياه:

- هكذا تكون النهاية، أنها ميتة سهلة، لكنها مملة حقا، سأموت هنا حتى دون شرف الحصول على قتال، هل تعرف، لقد توقعت أن أموت عن طريق رصاصة في رأسي، لكن سحقا لعقليتي السينمائية.

نظر إبراهيم إليه بنظرة لا معنى لها، نظرة خاوية من الحياة وخالية من الموت، عيناه وساعتان وتجعلان الأشياء تبدو لهما أصغر قيمة وأقل أهمية، فأكمل فتحي:

- لقد تساءلت دائما بيني وبين نفسي عن طعم الموت، كنت أخشاه بشدة لكنه يبدو أقل رهبة مما اعتقدت، هل تريد أن أخبرك بطعمه.

تحرّكت السيارات مرة أخرى لكن هذه المرة لمسافة أطول، فتقدم إبراهيم بالسيارة ونظر عن يساره ليجد المرأة قد أخرجت سيجارة لتدخنها،

وسيارتها لم تكن جوار سيارة إبراهيم تماما، بل كانت على بعض سيارتين، لكنها كانت ملفتة للأنظار، وجاذبة للضوء، عاود إبراهيم الحديث دون أن ينظر لصديقه وهو يعرف أنه لا فارق ستضيفه معرفته لطعم الموت:

- ما طعمه ؟

كادت روح فتحي تنسحب، لكنها ظلت لدقيقة أخرى تنازع الجسد، رغبته في الحياة تجعله متشبث بالمادة، بينما الفناء يستهلكه، قال فيما بدى لإبراهيم أنها قد تكون الجملة الأخيرة:

- له طعم لاذع مثل النبيذ، مثل قبلة طويلة شهية، تتبعها طعنة باردة عميقة.

لا يوجد اهتمام لدى إبراهيم لمعرفة طعم الموت، وهو يعرف أنه قد يجرّبه قريبا، وربما قريبا جدا، في كل يوم يمضى يعرف أن الفناء يقترب منه أكثر لكن عنده هناك قناعة واحدة (سحقا لكل شيء) حتى أنه الآن لا يحقد على صديقه، ولا يشفق عليه كثيرا، هو فقط يجهل ما سيحصل له، وفي رأسه سؤال يتردد (كيف سأحقد أو سأشفق وأنا لا أعرف نتيجة ما فعلت) حاول طرد الأفكار الغريبة من رأسه وجاهد من أجل أن يشفق على صديق سابق لكنه تردد وبعدها لم يشعر بشيء سوى البرودة، وسأل سؤال ساخر وتافه، قد ورد على رأسه تواً:

- هل هذا طعمه حقا؟؟

حاول فتحي ترطيب شفتيه من تشققاتها، ابتلع ريقه، لم يزل يبذل جهدا بالغا في مواصلة التنفس، يعرف أن جسده سيهمد قريبا جدا، لكن لديه سؤال عليه طرحه:

– قل يا إبراهيم كيف فعلتها؟ كانت الأفضلية دائما معي، اخبرني كيف وضعت لي السم اللعين؟ لقد تناولنا الطعام معا، هل وضعته في زجاجة المشروب، لكن كيف عرفت أني سأشربها ؟

لم ينطق إبراهيم واستمر يدخن سيجاره، فعاود فتحي وهو يخبو:

– اخبرني كيف واعتبرها أمنيتي الأخيرة؟

في لحظة مماثلة لشخص آخر فأن أول ما يتبادر إلى ذهنه هو هل سيدخل الجنة أم النار؛ لكن يبدو أن الشك لم يساور فتحي قط حول مصيره، وأول ما يتبادر إلى الذهن من أمور الدنيا الزائلة هو حال الأسرة من بعده، لكن اللعين لم يظهر تعاطفا مع زوج سيتركها تترمل وطفل سيترعرع دون أبيه، خطر ببال إبراهيم أن يخبره كيف قتله، ليس لإثارة غيظه لكن فقط كرما لأيام الصداقة الغائبة، لكنه تراجع ليس إشفاقا وأيضا ليس زهوا، بل فقط لأنه لا يزال به مقدار من الحزن على صداقة وحيدة في حياته وقد انقضت دون رجعة، ولن يخبر هذا الصديق كيف قتله، ولا كيف عرف بأمر خيانته:

– لن أخبرك يا فتحي، لن أخبرك.

فتح فتحي فمه، ولسانه يكاد يتجمد من برودة اجتاحت الجسد كله، حاول فتحي نطق حرف جديد لكن يبدو أن رصيده في الحياة قد نفذ تماما،

عيناه تذهب في رحلة نحو الشرق ثم ترجع للغرب، ثم فجأة ثبت بؤبؤ العين مرة واحدة وإلى الأبد، همد الجسد النابض بالخيانة إلى الأبد، نظر إبراهيم إليه بلا تعابير، ثم التفت للنافذة جواره وألقى ما تبقى من سيجارته خارجا، وأشعل واحدة جديدة دون اكتراث لشيء، وفي عقله فكرة عدمية حول رحلة الموتى للعالم الآخر لكنه لا يجرؤ على ذكرها، ولا تصديقها، نظر للسيدة المثيرة في السيارة البعيدة، وهذه المرة حدّق في السائق المتوتر، كان سمينا بحق وله رقبة ممتلئة كخنزير، وكان يمسح عرقه عن جبينه بمنديل في حركة عصبية توحى بعدم الثقة، ثم يختلس نظرة إلى جسد رفيقته فيسيل لعابه، كاد إبراهيم يضحك لكنه منع نفسه عندما تذكّر وجود جثة جواره، وقال في نفسه وهو يتابع نظرة الثقة في عينيها:

- كيف لها أن تخرج مع فأر كهذا.

حين لاحظت نظرات إبراهيم لها، ابتسمت ثم أشعلت سيجارة، وكان إبراهيم يكره السيدات المدخنات لأن فمها لا يصبح نضرا كما كان أبدا، لكن كراهيته شيء وانجذابه شيء آخر، حين انفرج الزحام بعد نصف ساعة، كان عاقدا العزم على أنهاء خطته، اخرج هاتفه عندما بلغ سفح جبل المقطم فأدرك أنه قد تأخّر عن موعده، وكان من الممكن أن يذهب ويعتذر، أو حتى لا يعتذر ولن تعترض رفيقته على كل حال، لكن أيضا لم تكن به رغبة في رؤيتها اليوم، لأنه لو قابلها اليوم فربما يجعلها تبتعد عنه، وربما يصبح جافا بشدة لترحل وهو لا يريد هذا على الأقل لفترة، تخيّل غضبتها

وهي تنتظره على الطاولة البعيدة المطلّة على الماء، في ذلك المطعم النيلي الفاخر، أسم المطعم الوردة الزرقاء وهو أسم يجذب انتباه إبراهيم ولطالما عقبت هي عليه أنها تحب اللون الأزق، وكان دائما ما يتجاهل التعقيب على الأمر، وعلى كل فهي لا تعرف أنه لا يهتم بحب الأشياء، فهي من الأساس لا تعرف له سوى اسما مزيفا، وطلّة مهيبة، اسما مزيفا مخالفا للاسم المزيف الذى استأجر به الشقة، ومخالفا لذلك الذى ينطق به عندما يقابل عميلا جديدا لا يثق فيه، وهذه السيارة التي جرت فيها الجريمة، والتي تسقط الآن من فوق السفح حاملة الجثة إلى مثواها الأخير، ليست ملكا له، بل تخص عدلي فايز المحاسب الشخصي لرجل الأعمال علّام السيوطي، نظر إبراهيم للنيران المتصاعدة وهو يدرك أنه اليوم تخلص من شيء آخر من تلك الأشياء المتعلقة بالذكريات، تلك الذكريات التي عليه الانتقام من سبب تشويهها؛ لأنه للأسف لا يمتلك سواها.

الفصل الثالث

لا يوجد مجال للشك أن عم صابر صاحب دكان أولاد حمودة لتجارة الجملة لا يعرف كل أفراد المنطقة كلّها فحسب، فبرغم تجاوزه الخمسين من عمره منذ شهرين، إلا أنه يحفظ أولاد أبناء حارته واحدا واحدا، أسما وشكلا، فمنذ جاء إلى هنا وهو يتعامل مع الجميع كأنهم جزء من عائلته الشخصية، وتلك السيارة السوداء الطويلة لا تنتمى لحدود الحارة من قريب، أو من بعيد؛ لهذا خرج عم صابر من خلف طاولته الخشبية العتيقة، وبمساعدة نظّارته التي تعوّض ضعفا بصريا حادا، فقد استطاع إبصار شاب في منتصف الثلاثينيات، يقوم بإيقاف السيارة التي يقودها خارج الحارة التي لم يتجاوز بدايتها أبدا، ثم خرج من الباب الخلفي شاب آخر في نفس العمر تقريبا، طويل القامة حتى يجاوز المائة وثمانون سم، جسده متناسق وصدره مفتوح منبسط، عريض الكتفين، وله شعر مجعّد وأنف أفطس يقع في منتصف رأس قوقازي متناسق، سار الرجل الغريب خطوات حسيسه، متأملا المكان، ومتربصا بالشرفات في غربة.

- ماذا تريد يا أستاذ؟

قاطع عم صابر الرجل، فتوجّه نحو عم صابر متفادي طفلا يقود درّاجة هوائية بسرعة فارقة، ثم صاح عم صابر بصوته الجهوري المعهود:

- ولد يا أحمد، كنت ستقتلع قدم الرجل.

ثم أحال نظره مرة أخرى للغريب الذى لم يبد أنه تأثّر بالحادثة، ثم نطق أخيراً:

- لو سمحت، أين المنزل رقم أربعة عشر؟ تابعت أكثر من منزل بعيني فلم أبصر ترتيبا عدديا، ولا لوحات معدنية للمنازل.

من الغريب أن تجد رجلا يسأل عن رقم المنزل وليس صاحبه، وهذا ما جعل عم صابر يشك في إنه أما يعمد ويتعمد إخفاء مراده، أو إنه موظف في الحكومة يؤدى واجبا لعينا، لكن مع وجود السيارة فأن الاحتمال الثاني بعيدا عن الواقع، وبالطبع فأن عم إبراهيم لم يستبعد خيارا هاما، مع درجة عالية من الخطر، ثم سأل صابر:

- من حضرتك؟

ابتسم الغريب دون إجابة، ثم كرر في هدوء دون اكتراث:

- بيت رقم أربعة عشر لو سمحت ؟

كان صابر يعانى داء يسمى (الصراخ دون داع) صوته جهوري ودائما ما يبالغ في استخدامه، ويضغط أحيانا على بعض الأحرف مثل (ق) أو (ك) فيجعلك تظن أنه يشبه صوت منبه الصباح الذى تتمنى تحطيمه لكنك لا تقدر للأسف، صاح عم صابر مرة أخرى لكن هذه المرة لطفل يلعب مع أصدقاءه في الشارع، وكان قد قذف الكرة جوار حجرا، ثم اصدروا جلبة حول صحة إحراز هدف:

- كفوا عن الضوضاء يا ملاعين.

ثم استدار للرجل كأنما لم يسمعه في البداية، لكنه فعل، وقال متخذا دورا فاشلا لمخبري الأفلام الكلاسيكية:

- من تريد هناك يا أستاذ؟

أجاب الغريب بلا تردد أو خوف، وفي ثقة مقلقة وحميمية مخيفة:

- الأستاذ عادل مليجي.

سمعه طفل من المتصارعين حول صحة الهدف، وهو طفل هزيل في ملابس منزلية متسخة بقليل من الطين، وله عين ضيقة توحى بغباء فطرى

- ماذا تريد من والدي؟

انحنى الغريب للولد ثم أمسك كتفه بيده القوية، وأخرج من جيبه الآخر ورقة بخمس جنيهات وابتسم بلا داع في طريقة سمجة التكرار:

- أوصلني إليه، ولك هذه.

*****

مستندا إلى الحائط بظهره ، وممددا قدميه أمامه على الأرض المكسوة بفرش رمادي بال، يحسو الماء من قارورة بلاستيكية، وبعدها يبل أطراف أصابعه، وباطن كفه ببعض قطراتها، ثم يمسح بها على رأسه المتعرق، وينادي بصوت عال:

– الماء ساخن يا فتحية، قلت لك الف مرة أن الماء البارد في الصيف لا غنى عنه، انك زوجة مهملة، أنا لا أدرى لماذا ابتلاني الله بزوجة كسولة مثلك، لماذا لم يرزقني بواحدة مثل زوجة عم على النجار.

خرجت فتحية من المطبخ ممسكة بملعقة كبيرة، وقد عقدت شعرها بمنديل أصفر اللون مملوء بلمعان معادن الزينة، يتدفق التعب من عينيها الواسعتين دون سحر، وعظام أوراكها لا تكاد تحملها من فرط دهون جسدها المترهل، وكرشها المتدلي أمامها يجعلها تبدو كمرأة حامل في الشهر الثامن، ثم صاحت فيه وهي تضع ظاهر قبضتها في خصرها مختفي المعالم

: لقد مللت منك ومن شكواك المستمرة، وأنت تتلذذ في تمنى امرأة رجل غيرك يا سافل، أنا في المطبخ منذ الصباح الباكر من أجل تجهيز الطعام، والمطبخ في هذا الحر هو جحيم، ولماذا، لأن سعادتك لم تضع فيه مروحة، بل أيضا لم تشتر مروحة سقف من أجل الصالة يا رجل، واكتفيت بترميم تلك المتهالكة.

في تلك اللحظة كانت قد حجبت رؤيته تماما عن شاشة التلفاز المستقر فوق الطاولة المستندة إلى أوراق جرائد مقصوصة من أجل رفع قدمها المهشمة، هي قد قاطعت الفاصل الإعلاني لكنه لن يتهاون، وسيتظاهر بأنها عطلته عن واجبه القومي في مشاهدة التلفاز، ولن يتوانى لحظة في التنكيل بها، بل ومسح كرامتها وكرامة أهلها فردا فردا، لكن قبيل الشروع في البدء

قد قاطعه صوت جرس المنزل، فسارعت ابنته الصغرى منى تركض ناحية الباب كالمحمومة، فصرخت أمها بها قبل أن تفتح الباب كعادتها:

- اسألي من على الباب أولا يا منى.

لم تستجب البنت، وانفتح الباب ليتسرب عامر الصغير بعد فتح المزلاج، وقال بلا مبالاة مطلقة لهم:

- معي ضيف.

فصرخ والده:

- لا مكان للشياطين رفاقك هنا يا ابن الشوارع.

لم يُعن عامر بالسباب، وطلب من أمه أن تتوجه إلى المطبخ بهمسة في أذنها فأذعنت له، ثم قال بعدها لوالده دون أن ينظر إليه تماماً:

- ضيف لك.

فوقف الرجل بشعره المنتهي عند منتصف رأسه الهائل، والمستقر فوق كتفين غير متزنين، ويزين بطنه كرش منتفخ، ومضى ناحية الباب بخطوات متثاقلات، وعندما وجد أنه رجل لا يعرفه صاح في فتحية المتوجهة إلى المطبخ سلفاً:

- اذهبي للمطبخ.

ثم وجّه حديثه للرجل:

- أؤمر.

– اسمي أحمد ماهر، جئتك في مصلحة قد تهمك كثيرا، لكن لن نستطيع التحدث على عتبة المنزل.

رمقه عادل من أعلى جبهته حتى حذائه الجلدي الفاخر، فأدرك أن سعر ملابس ضيفه قد يحل مشكلات العائلة برمتها مما اكسبه مزيدا من الوقار، ابتسم عادل نصف ابتسامة بلهاء ثم حك مؤخرة رأسه حيث وقفت ذبابة تضايقه، بعدها أجاب وهو يزيد من مواربة الباب بما يسمح لعبور شخص:

– تفضل بالدخول.

ثم صاح:

– عامر، كرسيين بلاستيك من عندك في الغرفة من أجل الضيف، وقل لأمك تصنع لنا شاي بسرعة.

قال الرجل بعد ان دلف، وهو ينظر إلى كل ركن في الشقة المتواضعة دون حياء:

– لا شكرا، أنا فقط أريد الحديث معك على انفراد.

بعدها توجّها إلى غرفة سناء ، أبنة عادل الكبرى، التي هي الآن في جامعة القاهرة تحضر محاضراتها اليومية لكلية الآداب، ثم مضت نصف ساعة وبعدها خرجا معا مبتسمين، وافترقا لكن دون تصافح، حتى أن الضيف توجّه مباشرة إلى باب الشقة الخشبي ليخرج دون مساعدة إلى الدرج، ثم بعدها إلى الشارع الضيق، وعندما لمحه عم صابر في الأسفل، دفعه الفضول للتفكير بمصافحة الرجل، لكن الرجل لم ينظر ناحيته أبدا،

ومضى في طريقه واثق الخطى واضح الدرب، ثم دلف باب السيارة، فلم يجد صابر بدا من النظر ناحية الشرفة التي يقف فيها عادل، عندها ربتت يد على كتف عم صابر فانتفض ليجد أخاه بيومي السخيف.

- ماذا، هل أنت تائهاً في جمال الأستاذ؟

مزاحات بيومي كلّها تافهة بلا استثناء، لكن صابر يتحمّله لأنه أخاه على كل حال، وليس اخوه الصيق الذى قد يخبره بما يدور في خلده، بل هو اقرب إلى أن يخفي عنه كل أموره لأنه حسود كما تدّعى فوزية زوج صابر التي يثق في حدسها، تجاهل صابر الحديث الجاد وقال بهدوء غير معتاد:

- لا شيء.

في تلكم الأثناء كان أحمد ماهر منتظرا رفيقه في السيارة، التي تفاجئ عند وصوله إليها بخلوها، وبعد دقيقتين عاد الرفيق يحمل زجاجة مياه غازية، باردة كالثلج، ودلف السيارة ليضيف أحمد ماهر:

- بالك خال.

تبسّم وقال:

- عندي موعد مع خطيبتي يا خلق الله.

فتضاحك كلاهما حتى افتتح السائق الحديث:

- قل لي ماذا صنعت مع عادل؟

بلغت الحرارة ذروتها خارج السيارة وداخلها، ولن يحتمل أحمد المزيد من الضيق بعد رائحة العرق، التي استنشق في المنزل العطن.

- كل شيء تمام، شغّل مكيّف الهواء.

قالها ثم أخرج من جيب المعطف مظروفا بنيا، تفحّص المظروف ثم أخرج من داخله ورقة مطبوعة آليا وقرأ ما فيها على مسمع من صديقه، الذى باشر في قيادة السيارة:

- الاسم عادل مليجي، موظف حسابات، لديه زوجة وأربعة أولاد؛ واحد من الذكور وثلاثة من الإناث، سينتهز الفرصة إذا ما أتيحت له، فقط لكى ينجو من الفقر والفضيحة؛ فأبنته الكبرى قد تعقدت زيجتها ثلاث مرات سابقات بسبب أن والدها لم يدّخر مليما واحدا، الرجل ساذج جدا ولهذا فأن الدخول إليه مباشرة في الموضوع لا يُعد عيباً:

تلك المعلومات كانوا قد جموعها من خلال زملاءه في العمل بشكل غير مباشر لا يثير الشبهات، بعدما انتهي من القراءة أمسك الورقة من طرفها ثم أشعل النيران فيها وألقى بها خارج السيارة، ثم نطق من يقود السيارة:

- الواضح أن المعلومات قد أفادتك للغاية.

نظر الآخر إلى الورقة وهي تحترق ببطء، وهم يبتعدان بالسيارة في سرعة عالية، ثم اعتدل في جلسته وقال:

- لا توجد نتائج بلا مقدمات، ناولني سيجارة.

امسك العلبة وأعطاها له:

- اخبرني هل ساورته الشكوك؟ هل أخبرته باسمك؟

- أنت تمزح، بالتأكيد لا.

قالها وهو يشعر أن زميله غبي:

- كيف؟ ووثق بك دون اسماً حتى؟

كان قد فقد الرغبة في التدخين بعدما أخرج السيجارة من العلبة، فأدخلها مرة أخرى، ثم قال في حنق:

- اختلقت أسما مزيفا، قلت له أن اسمى هو أحمد ماهر، ممثل رائع كذلك، كان دوره مميزا في فيلم شمس الزناتي، لم يكن يستحق الموت يومها.

نظرا إلى بعضهما البعض، ثم أصابتها نوبة ضحك هيستيرية، وعندما توقفا قال السائق لأحمد ماهر المزيف:

- كلّم الباشا، وأخبره أن المهمة قد تمت بنجاح.

لم يستطع أن يتناسى توبيخ الباشا الشديد له في آخر عملية فشلت، بالتأكيد لم يؤثر الأمر على عمله، لكنه ترك فقط شعورا عاما بعدم الارتياح، وهذا الشعور سيدوم لفترة قبل أن يتهاوى كأن لم يكن، فقال للسائق المدعو جاسر:

- جاسر، كلّمه أنت،، فأنا لا أطيق محادثته.

لاحظ جاسر نبرة الغيظ، لكنه لم يعقّب، لن يضغط عليه أكثر، لكن هذا لا يعنى أنه سيتراجع عن قراره منذ سنتان بعدم التحدث في الهاتف أثناء القيادة، خاصة وأنه كاد يفقد حياته يومها:

- حسنا، سأكلّمه فورما نصل إلى وجهتنا.

بينما ينهي جاسر جملته، تم سماع صوت دوي، وتصاعدت نيران من مقدمة السيارة قذفتها إلى أعلى ككرة جلد، ثم دوي آخر قد قضى تماما على وعيهما كليهما، ثم تهاوت السيارة المهشمة على الأرض كبقايا جسيم بعد القصف، وتناثرت الشظايا المعدنية لتتراشق بالسيارات المارة في كافة الاتجاهات، السيارة لم يكن بها عطلا تسبب في انفجارها بالطبع، ومن يظن هذا فهو معتوه؛ فالسيارة تحولت فجأة إلى كرة من المعادن المنصهرة، بالتأكيد إنه أحمد فخرى؛ أحمد فخرى الذى جلس هناك بمقهى على ناصية الشارع قبيل وصولهما بساعة كاملة، ومعه حقيبة سوداء من الجلد تحوى ما يكفي لنسف بناية كاملة، تناول في الصباح قهوة سكر زيادة، ثم انتظر كصيّاد ماكر قبل أن يزرع العبوة في ظل غياب السائق، ففقط دقيقة كانت كافية ليترك الحقيبة في السيارة دون أن يجذب الانتباه، ثم رحل بعد أن وضع على الطاولة المعدنية في المقهى ورقة بخمسين جنيها لم ينتظر باقي حسابها.

في مكتب فريد بسيوني تعالت ضحكاته عندما سمع بالخبر، ثم أخبر أحمد فخرى ألا يقلق وأغلق الخط ليفتح واحدا آخر مع يوسف المغربي ليطالبه بإخفاء المفجّر في مزرعته في مدينة الإسماعيلية، فأدرك يوسف أن فريد قد أشعل فتيل حربا لن تتوقف قبل أن يحترق بنيرانها الكل، وافق على الاستقبال مجبرا حتى لا يدخل في صراع مع الوحش المتصاعد نفوذه، فقد فجّر للتو سيارة يقبع بداخلها رجال شريكا سابقا ليوسف المغربي، ولهذا فعلى يوسف أن يقفز بسرعة من السفينة الغارقة، ويتشبث بزورق فريد

بسيوني للنجاة، ذلك التفجير كان الضربة الثانية التي تلقاها علام السيوطي بعد وفاة محاسبه الماهر الذى لم يرضخ للضغوط، ولا لتهديد تفجير سيارته منذ شهر عبر سقوطها عن سفح جبل المقطم، وفريد بسيوني لا يحب من لا يقرأون المستقبل بعناية، فالأغبياء عنده لا يستحقون فرصة ثانية للحياة، وبموت المحاسب فقد وقعت الأوراق التي تدين علّام السيوطي بالوقوع في جرائم مالية في يد عائلة بسيوني، مثل الرشاوى والعمولات المحسوب بدقة وعناية، كان الملف ورقة للضغط على خصومه لكنه اليوم قد وقع في يد ألد أعداءه، وقبلهما فضيحة ابنة أخيه التي تورطت في علاقة غير مشروعة مع مسعد بسيوني، أبن السافلة قد حاصر الفتاة من كل حدب وصوب، فوقعت في شباكه المنحلة، ولم يعر اهتماما لما قد يصيب والدها من خيبة أمل، ذلك الأخ لعلام الذى لم يعتقد يوما أن أذرع الأخطبوط ستمتد لتصل إلى عائلته البعيدة عن كل ما يخص الأعمال القذرة من قريب أو من بعيد، وقد تم عقد القران قبل أكثر من عام، وقد رزقت طفلا بعد شهران فقط من الزواج.

لن ينسى علام مشهد أخاه وهو يقتحم عليه مكتبه، باكيا وقد أحمرّت وجنتاه خجلا بعد أن تلطخت سمعته وضاع شرف ابنته، كانت ضربة مذلّة والآن عندما فكّر في ابتزاز موظف بمكتب جورج القاضي، وهو الشريك الأهم لفريد بسيوني في عمليات غسيل الأموال، وهو السوق الذى يسعى فريد لسحب بساطه من إفل أقدام سمير فرحات العاجز عن السيطرة،

عندما بلغ خبر التفجير مكتب سمير فرحات، عندها قد فقد الرجل آخر حبل ثقة بينه وبين شريكه، وقد بدأ يخطط لتأسيس صداقة متينة مع فريد بسيوني ليأمن مكره، فالتفاوض باكرا يعنى فوائد أكبر، وصداقة أعمق، حاول علام محادثة سمير عبر الهاتف مرات ومرات، لكن الأخير لم يجب ولو في مرة واحدة، وفي النهاية جعل مدير مكتبه يخبر علام بأنه ليس في المكتب اليوم حيث يقضى إجازة في المنزل مع أسرته، تلك الخدعة التي يعرف أن علام لن يصدقها لكنه لا يملك غيرها، وقد أفلست أوراق علام في الانتقام والغضب من الأساس.

جلس علام على مكتبه يتابع خسائره التي عجز عن حصر مداها؛ فقد أراد ضرب جورج ومن خلال الضربة سيقسم ظهر فريد بسيوني الذى يمتلك من الأوراق كمّاً لا بأس به للزج بعلام إلى السجن ولفترة طويلة، واليوم قد خسر كل شيء فحتى حركته الماكرة قد عرفها فريد، وضربها في المهد؛ فاللعين فريد وأسرته أشبه بآلة ماكرة لعينة لقراءة الأفكار، والتنبؤ بالشرور قبل حدوثها، اليوم سيخشى الجميع من فريد بسيوني أكثر وأكثر؛ فقد أدركوا أن الخيانة قد سرت في رجالهم مسرى الدم، وقد استشرت في شركاتهم وتجاوزت أسوارهم بصورة واضحة لا شك فيها، شعُر السيوطي بضيق في صدره ففك ربطة عنقه، نظر حوله في المكتب المغلق الذى بدى أضيق كثيرا مما هو عليه، تقترب الأبعاد كلها حول نقطة واحدة في المنتصف وتضيق به حد الاختناق، وفي رأسه صورة له عندما دلف هذا المكتب لأول

مرة، ذلك اليوم البعيد حيث اعتقد أنه قد ارتقى درجات النفوذ واحدة تلو الأخرى، فيومها قد أنهي خيانته لزوج أخته الكبرى الذى توفي على إثر الصدمة، يومها لم يدرك أن سبب دخوله إلى هنا سيكون هو نفسه سبب خروجه، فلا أحد يأمن طريقا قد سلكه سلفا، والدائرة تدور بلا توقف، نظر نحو هاتفه الصامت، صامت لكنه يكاد يقسم أنه سمع ألاف الضحكات تتسرب عبر أسلاكه، وتسرى في الحيطان من حوله وتتردد كأنها آخر صوت في الوجود، هو يشعر أنه قد انهزم دون جهد، لكن فريد بسيوني قد خطط لكل حركة قام بها فوق رقعة الشطرنج المتقلبة، وقد عرف الخطوات سلفا وكسب المباراة في ذهنه ألف مرة قبل أن يقصى ملك منافسه في الواقع ربما بأسابيع، أو حتى أشهر، سينتظر السيوطي مكالمة يعلم أنها ستجيئ قريبا، سينتظر إعلان الخسارة عبر مكتب آخر غير مكتبه، وبصوت آخر غير صوته المبحوح.

على ما يبدو أن هذا اليوم كان دمويا بشكل لا يمكن إغفاله، فشمس اليوم التالي بدت أقل سطوعا على المشفى الذى يستقر فيه جسد قاتل عم جميل " جلال "، ما جرى في المشفى هذا الصباح كان يسيرا مثل تناول شربة ماء؛ فجلال كان مكبلا إلى سريره عن طريق أصفاد لا يملك مفتاحها سوى العسكريان على الباب، لا يمكن الزيارة دون إذن من النيابة، لكن سعد الحاوي يعرف جيدا أن لكل رجل ثمن، لهذا فقد دفع خمسون ألفا للعسكريين على الباب مع وعد بعدم لمس السجين، دلف هو وعلي وحدهما من دون كريم المجنون الذي كان واقفا عند بوابة المشفى يتابع حركة الموجودين، متصنعا الانشغال بتناول زجاجة مياه غازية، وقراءة مجلة تمتلئ بصور نساء جميلات، وشبه عاريات.

جلال بدى نائما كطفل أثناء دخولهم، فأخرج سعد الحاوي شريطا لاصقا كممه به، وعندما استفاق نتيجة ما حدث وجد سعد قد احكم وثاق قدميه بحبل سميك، وعلي غسان عن يساره حاملا سكّينه عاجية المقبض يلتمع نصلها ببريق خافت، يتحسس بجانبها الناعم وجه جلال الممتلئ بالشعر، وكان جلال قد دلف المشفى نتيجة محاولة اغتيال فاشلة، قامت بها العصابة التي طلبت إليه سلفا أن يقتل عم جميل، قال له علي وهو يعنى ما قاله حرفياً:

– يبدو أنك قد وقعت أخيرا في يدى، أرجو أنك تتذكر وجهي جيدا، ولم تفقدك الصدمة ذاكرتك.

انتفض جلال بجسده وهو يحاول أن يصرخ بكل ما أوتي من قوة، فتحرك السرير مصدرا صريرا كاد يزعج الحارسان في الخارج، ليدلفا الغرفة خوفا على عهدتهم، لكن سرعان ما أمسك سعد بجسد جلال، ونزع علي غسان الغطاء عن جسده وأشهر سكّينه، جرحه في قدمه وقال:

– حسنا تكلم مرة أخري وسأجعل تلك السكين تباشر عملها.

فهدأ جلال مرغماً، وسقطت قطرات عرقه فوق جبينه يائسة عفنة كالخيانة، وقد كانت الغرفة حارة لأنه ليس بها سوى مروحة سقف معدنية متهالكة لا تكد في الدوران، أدرك جلال أنهم بحاجة إليه وأن عليه التفاوض لنيل مزيدا من الوقت على سطح الأرض قبل أن يغادرها، فإنه قد فقد حياته سلفا مذ غُرر به لقتل الرجل الأول في السجن.

والحقيقة أن على كان يريد من كل قلبه قتل الرجل، لكنه لم يكن مستعدا لتنفيذ تهديداته له طالما لديه أسم الفاعل الحقيقي، محفوظا أسفل تلك الجمجمة التي كادت أن تتحطم من الضرب، وبالفعل فقد نزع سعد اللاصق عن فم جلال، وقد أدلى بكل ما يعرفه وهو يرتعد خوفا، انتهت المهمة بيسر تقشير تفاحة، وكان الرحيل لازما كتبدّل الفصول، مثلما كان الانتقام واجبا مقدسا كصلاة قدسية لكن من المجرمين الحقيقيين، بدى جلال كذبيحة تنتظر نصلا يزهق روحها.

وقد كتب له أن يعيش أطول مما يظن، فهذه هي المرة الثالثة في حياته التي كان الموت فيها أقرب إليه من الهواء، وحتى بعد نجاته هذه المرة بأعجوبة، فلن يتردد في الخطيئة مرة أخرى، كلما كان الموت إلى المرء أقرب، كان إلى الإحسان أقرب، لكن جلال كان وغدا من أولئك الذين يعتبرون حياتهم شيئا لازما على الدنيا كطلوع الشمس وبريق القمر، وأن القدر ملتزم بسلامته الشخصية كالتزام عروس بزينتها، الحقيقة أن على غسان لم يكن مستعدا للقتل في ذلك اليوم، ليس الوعد مع العسكريين هو ما منعه، وليس الخوف أيضا، فطوال الليل وهو يطعن الهواء استعدادا لتلك اللحظة، لكنه عندما وصل إليها أدرك حقا أنه غير مستعد بعد.

أظهر القمر للناظرين في ليلة اليوم التالي نصفه فقط، ويدارى بالظلال نصفه مثل حب خفي، تبصره أعين علي غسان عبر نافذة المخزن مهشمة الزجاج وهو لا يهتم، كان يرتدى قميصا فضفاضا، أحمر اللون كدماء القمر في ليلة الخسوف الدموي، وكان سعد الحاوي يرتديه بألوان صفراء كبيضة نزع زُلالها، بينما كريم المجنون يرتدى ملابس داخلية بيضاء، وسروالا قصيرا يمتد حتى ما بعد ركبتيه بقليل، وهناك رجل في ملابسه الداخلية، معلّق بسلسلة حديدية مثبتة بخطّاف في سقيفة المخزن، الرجل مرهق كأنه كان يخوض صراعا مع دب، ويتنفس بصعوبة بالغة نتيجة اللكمات الشديدة التي تلقّاها في قصبته الهوائية حتى كاد يفقدها، والرجل بالطبع هو فاروق

العرباوي، الرأس المدبر لقتل جميل، بصق فاروق دما من فمه، ونطق بما تبقى له من قوة:

- ستفتحون على أنفسكم بوابات جهنم بما تفعلون، أنا لست أعمل وحدى، وعندما يعرف رجال عزبة العرباوي ما حدث لي، فستكون حياتكم جميعا في خطر، أنا حتى لا أعرف لماذا تهتمون للوغد جميل هكذا، فهو الآن في الجحيم على الأغلب.

لم يكن سعد الحاوي شخصا يمكن تهديده، فهو ماكينة قتل متحركة، والتفكير هو آخر خطوة قد يقوم بها، أما كريم المجنون، فعلى الرغم من كونه قاتلا لا يمكن هزيمته عندما يتقاتل بيديه العاريتين، فأنه يستمع إلى الكلمات بإنصات بالغ، نظر كريم نظر إلى علي غسان الذي كان جاحظ العينين بشكل مخيف، وأدرك أنه لا مجال للمناقشة، أو للتراجع الآن، ثم أمسك رقبة الرجل ليكف عن الحديث، بينما جاء سعد بمطرقة حديدية وطرق بها قدمي فاروق العرباوي حتى صارتا بلا معالم، وقد صرخ كزانية في ليلة ماجنة، يغتصبها فيها ألف رجل دفعة واحدة، وعندما بلغ الألم مداه بجلال، جعل يبكى، جسده تتقطّر منه الدماء وتسيل، حتى تسقط على الأرض كحبّات مطر، أدرك جلال أنها النهاية لا مفر، فأخذ يسبّهم وهم ضاحكون، كاد علي يدير ظهره لهم وهم يبدعون في التعذيب، لكنه أجبر نفسه على المشاهدة، لم يظن أنه قد يجئ ذلك اليوم الذى يتشفى فيه من أحد،

ويبدو أنه كان مخطئا تمام الخطأ، ثم قال جلال في محاولة بائسة لجعلهم ينهون حياته:

– اقتلوني يا أولاد الزوان، وانتقموا لجميل ابن الزانية، تفعلون كل هذا لأني تزوجت من زوجته العاهرة، فلتموتوا جميعا يا أولاد الكلاب.

فقد جلال عقله بمنتهي البساطة، وأخذ يكيل لهم السباب، ظل هكذا حتى انتفضت عروق الدم في رأس علي، ووجد نفسه يتجه نحوه بشكل لا إرادي، كان مشهدا بطيئا كأفلام الرعب التي تحبس الأنفاس، علي ممسك بالسكين التي أهداها له عم جميل، وطعن جلال في قلبه تماما، وهو يقول:

– كتبت لك الراحة يا ابن الحرام.

وعندما أُخرجت السكّين من الجسد كطلوعها من الزبد، سكن القلب، وخمد الجسد، وجعل علي يطعنه بشكل مقزز، حتى تناثرت أجزاء من لحمه على الأرض كشظايا حرب، ثم أوقفه كريم بصعوبة، لأن المشهد مقرف بما لا يمكن احتماله:

لم ينم علي غسان في المساء، راودته الشكوك حول استعداده الشخصي للانتقام، لقد مزّق جسد جلال حتى بدا أثرا مدحورا، والآن هو نفسه لا يقدر على النوم، ويداه ترتعشان كجرس عيد الميلاد، يعتقد أن روح المتوفي سوف تطارده لبقية عمره، وهي فكرة لم يفلح في طردها بعيدا عن عقله، وظل معتقدا فيها كأنها حقيقة مسلّم بها.

ارتسمت في رأسه صورة عم جميل يبتسم، ورأس جلال بلا ملامح تدمي، وحبيبته السابقة وصديقه الخائن يضحكان، وتقف وهناك في الخلف صورة أمه أمام الضباب، وترجع إلى الخلف وهي تشير برأسها أنها غير راضية، ثم يستمر رجوعها حتى تتوارى خلف ستار الغبار الكثيف.

الفصل الرابع

دقت الساعة السابعة مساءا على تلك الفيلا الفخمة ذات الحديقة الخلفية الصغيرة، وأعلن صفاء السماء عن ليلة تعد بأكثر من أمنية، وتحرك بندول ساعة الحائط المطرز خشبها الأبنوس بماء الذهب، بينما يجلس حلمي الصباغ مغمض العينين على أريكته المريحة، والملونة بالأزرق السماوي الراقي، ثم خرجت زوجه كريمة من غرفتها في الطابق العلوى، ونزلت الدرج البنّى الخشبي اللامع، نزلت بخطواتها الواثقة دون حذاء وهي في ثوب أسود داكن مفتوح حتى منتصف ظهرها، وشعرها الأسود المقصوص قصيرا يبدو ناعما، ويتمايل على جانبي رأسها مع كل خطوة، وقد بدت في جسدها الممشوق ساحرة بما لا يمكن تصوره، وبشكل لا يمكن معه تصديق أنه تفصلها عن أن تصبح أربعينية العمر فقط ثلاث سنوات، اقتربت منه ووقفت قبالته تماما وقالت:

- افتح عينيك

فتحهما ليجدها في طلتها الساحرة تلك، فقد خسرت عن العام السابق بضع كيلوجرامات قد جعلتها ترجع مرة أخرى إلى رشاقتها المعهودة؛ فالفستان ملتصق بجسدها بشكل مغر يعد بالإثارة، وقد أجبرته على أن يأخذ إجازة للاحتفال بعيد زواجهما، نطق وهو فاغر الفاه:

- صاروخ يا كريمة، أنت لا تكبرين

ثلاثة أشياء قد تعلمها حلمي الصباغ حول الحياة الزوجية، وأهمها أن تظل تخبر زوجتك أنها لا تكبر أبدا، ولا تسألها مطلقا عن شيء لا تريد قوله، لكنه اليوم صادق في كلمته حتى آخر حرف منها، فامرأة شبه أربعينية مع قوام ممشوق تساوى احتمال ضعيف التحقق سوى لرجل محظوظ، قالت بدلع:

- أين تحب أن تسهر الليلة؟

أول ما تبادر على ذهنه، هو الاختفاء الواضح لأولاده، فخشى أن يحضروا في لحظة رومنسية تجعله محرجا، فسأل بلا مقدمات:

- أخبريني أولا، أين الأولاد؟

امتعضت لسؤاله، وقد تناسى أن مقدار اعترافه بجمالها لا يتساوى مع مجهودها المبذول سلفا، فعلى الأغلب قد انتظرت منه أن يمضى ساعة في التغزّل فيها بدلا من سؤاله السخيف هذا، وأيضا فأن الأولاد ليسوا أولادا بالمعنى الحرفي، فقد تجاوزت علياء الخامسة عشر، وقد تجاوز أحمد الرابعة عشر:

- أحمد في النادي، وعلياء عند خالتها.

اعتدل حلمي في جلسته، رفع حاجبه الأيمن بشكل عفوي:

- علياء عند أختك؟ كيف أقنعتها أن تذهب إلى هناك اليوم بالتحديد؟

– قلت لها أني أحضّر لها مفاجأة سأطلعها عليها في حينها، وطلبت من نسرين ألا تخبرها بأن اليوم هو عيد زواجنا، أريدها أن تفاجئ غدا بالخبر وبهديتي التي سأحضرها لها، وقد أخبرت أحمد بأن علياء تجهّز له مقلبا في بيت خالته، فاقترح بنفسه أن يذهب إلى هناك ليراقبها عن كثب حتى يأمن مكرها، فبطولة السباحة قد اقتربت وعليه أن يأمن مقالبها الخطيرة.

لم يتمالك حلمي نفسه، واتسعتا حدقتا عينه، لا يمكن اعتبار الأنثى كائنا أرضيا بالمعنى الحرفي؛ فلها مكر عجيب لا يمكن للثعالب حتى أن تتغلب عليه، وكل هذا لأنها أرادت أن تنفرد به ليلة واحدة، وقال في نفسها أنها لو أرادتني أن أقتلع شعر رأسي فستفعل، وهو الذى ظن نفسه ماكرا لا يساوى شيئا جوارها، فلولا أنها لا تخشى على الأسرة من الأعمال غير الشرعية التي لطالما نفي وجودها لشاركته فيها وحقق نجاحا مضاعفا، سألت:

– لماذا تضحك؟

– أنت ماكرة، وتقولين أني ماكر ومتلاعب، سحقا، يجب أن أتعلم منك.

رمقته بنظرة زائغة، وظنته يسخر منها فأضاف درءً للشبهات:

– عقلي لا يساوى شيئا أمامك.

– هل تعنى أني أُفقدك عقلك؟

لم يقصد مغازلتها بهذا المعنى، لكن لديه حنكة تجعله ينتهز الفرص وقد أحب سوء تفسيرها لجملته المراوغة، فغزل على منوالها.

- عقلي وقلبي

خلال ساعة إلا ربع كانا قد وصلا إلى مطعم فخم بمنطقة وسط البلد، وقد أختاره بالغ الرقي، فالذوق الرفيع جلى في اختيار قطع الأثاث وترتيبها، وتوزيع نباتات الظل المريحة، والطاولات مكسوة بمفارش حريرية ناعمة ذات لون أبيض كالزبد، وعند الأطراف لون أصفر ذهبي متمايل الخط، ناهيك طبعا عن الإضاءة الساطعة والسقف الزجاجي الذى بظهر السماء في زينتها النجمية البديعة، سألها:

- ما رأيك في المكان؟

تظاهرت بالتفكير وقالت:

- رائع، لكنه يختلف كثيرا عن أول مكان قد التقينا فيه، هل تذكّر أول لقاء لنا بعد أن تمت خطبتنا ؟

الرجال عادة لا يتذكّرون تلك الأشياء، فضغوطات الحياة تجعل الاحتفاظ بالتفاصيل دربا من الخيال، قال حلمي وهو يرمقها بعينيه الواسعتين المثبتتان في وجهه الأبيض المتورّد دماً:

- كان يوما رائعاً.

ظنها ستغيّر الموضوع، لكنها تذكر كل تفصيله في ذلك اليوم؛ من بذلته الرمادية حتى تلك الشقراء التي كانت تجلس على بعد ثلاث طاولات وتتابعه في إعجاب، وبادلها نظرة خاطفة عندما ظن كريمة منشغلة بتناول الطعام، لكنها في الحقيقة لم تكن منشغلة ولاحظت، بل وراقبته لأسبوع كامل بعدها:

- هل تذكر اسم المطعم؟

عليه أن يشغلها بشيء آخر حتى تتناسى سؤالها، أشار للطاولة خلفها وقال:

- انظري هناك

فاستدارت ولم تجد شيئا، ونطقت وهي ترجع برأسها

- أين؟

لكنها فوجئت به يقبّلها على وجنتها، ولا تعرف متى وصل إلى هذا القرب منها في سرعة فراشة، ومن أين جاءته تلك الفكرة الرومانسية الغريبة عن تصرفاته المعتادة، شعرت بعذوبة في القبلة لا تشعر بها في تصرفاته اليومية السريعة، فهو دائما رجل الوقت الضائع، دائما على عجلة من أمره بينما هي سيدة التفاصيل، فاليوم فقط منذ عام قد شعرت بوجوده يخترقها، أحسّت بأنفاسه دافئة كالربيع، على خلاف برودته الصادمة حتى في

الليالي الحميمية، نطق وهو ينظر إلى عينيها الواسعتين الدائريتين اللتان تجعلان الحجر ينطق، والجبل ينشق عنه الماء:

- جائز ألا أذكر أسم المطعم، لكن ما أعرفه جيدا هو أني رجل محظوظ جدا، فعندما أصحو كل يوم لأجدك جواري أشعر بالفوز،

لم تحب كلمة الفوز، وأرادته لو يقول أشعر بالدفء، أو أشعر بالحياة، فالحب لا فوز فيه ولا خسارة؛ لأنه قدر محقق رغما عن إرادتنا، ووجدت نفسها مدفوعة رغما عنها أن تسأل:

- إذن فقد نسيت اسم المطعم؟

ولم تدر لماذا قالت تلك العبارة اللائمة، لكنها عزت ذلك إلى أنها لم تتوقع أن يتصرف بشكل حميمي، ولم تعتد منه هذا المستوى الشاعري الساحر في الحديث، فلطالما كان منطقيا وواقعيا، بينما يتطلب الغزل كثير من الخيال الذى للأسف تعرف أن زوجها لا يمتلك الكثير منه، ذم شفتيه في حنق، فبادرت بالتراجع عن حماقة سؤالها، واستقلت أول قطار ناعم:

- أنت هديتي في هذه الحياة، أنت والأولاد كل شيء وأهم شيء في حياتي، ومن يقترب منكم بسوء فسأقتلعه من الحياة، فأنا لا أحتمل خسارتكم.

جاءت عبارة " من يقترب منكم " من عقلها الباطن المليء بالتساؤلات حول عمله السرى، فكلما زادت الضبابية حول عمل زوجها، زادت الشكوك وتضاعفت الأسئلة دون إجابات، بدّل حلمي دفة الحوار بمهارة قرصان:

– ماذا تحبين على العشاء؟ أطلبي أنت فالليلة كلها ملك لك.

وبعدها مضت الدقائق سلسة بلا معوقات، لكن مع عودة نسائم البرد على تصرفاته، وفي الزواج علي المرأة أن تتحمل تبدّل الفصول، وساد الشعور الذى لازمها طوال حياتها، الثبات والهدوء المرح، والقلق الدائم، تجاذبا أطراف الحديث حول الأولاد، وحاول نسج قصصا واهية عن عمل شرعي يدّعيه، وقد حاولت هي الأخرى تصديقه، لكن الواضح أن كلاهما فشل في مراده، لقد طلبت السمك المشوي مع سلطات متنوعة من الخضر والمشهّيات، أرادت لليلة أن تمتد للأبد لأن زوجها كان حاضرا ولأول مرة منذ فترة، فحتى في المنزل كانت تراه لكنه لم يتواجد حيث هو أبدا؛ فكان يجلس في مكتبه ورأسه كله في عمله، يتناول معها الشاي في الشرفة بينما ينتظر محادثة هاتفية هامة، وكانت كل محاولاته لتمضية وقت ممتع معها جهدا غير مكتمل، وبينما سرد له قصة مضحة تضاحكت عليها وانتظرت لو يعاود الحديث عنها لا عن نفسه، راوده ذلك الاتصال الهاتفي المعتاد، والذى يقطع كل لحظاتهما في الأغلب، وتذكّرت أنها لم تغلق هاتفه المحمول

وندمت على ذلك، لم يجب في البداية فتكررت نغمت الرنين مرة أخرى، قامت لتغسل يدها، وتعدّل من طلتها وقالت:

- أجب الهاتف، ولو كان فاخر البرماوي بلغه تحياتي وغضبي.

عندما مضت، فتح الهاتف:

- قلت لك يا فاخر لا تخاطبني سوى في الضرورة القصوى.

أجاب فاخر بلا مقدمات:

- كارثة.

عندما عادت إلى الطاولة لم تجده جالسا، فنظرت حولها لتراه عند باب المطعم يتحدث هناك في الهاتف، وبدا عصبياً، زفرت الهواء الثقيل على صدرها، ونظرت ناحية اليمين لتشاهد رجلا يجلس بمفرده، والقلق ظاهر على أنامله المتشابكة، وعلى الطاولة أمامه مجموعة من الورود الحمراء، مضت دقائق قليلات ظلت فيها كريمة تتابع زوجها البعيد، ثم تختلس النظر إلى الشاب عن جوارها، الذي بابتسامته السخية، وذقنه الراقية يمثّل الحلم الرومنسي الكامل، وفوق الطاولة أمامه تقبع ورود أوراقها زرقاء، وفي وسطهم وردة بيضاء تسُر الناظرين، لّما لمحتها كريمة ابتسمت، ومضت بها الذكيات حيث الضياع الأبدي في ذكرى لها حلاوة اللوز، ومذاق العنب، ذكرى لن تغفلها مهما مضت الأيام، ولن تختفي مهما توارت خلف ضوضاء الحياة، عندما عاد زوجها مرة أخرى تبدّل لونه إلى الشحب، حاولت طمأنة نفسها بأنها مشكلة عمل عادية، عندما عاد كان النادل قد

أزال بقايا الطعام من فوق الطاولة، لو كان متوتراً فقط لما فزع قلبها، لكن في عينيه كانت نظرة رعب لم تعهدها، فسألته:

- ماذا حدث؟

رمت سؤالها دون أن تتوقع إجابة، أو تنتظر ردة فعل، وبالفعل فقد تجاهله، وعندما وضع النادل المشروب، أمسك كأسه وارتشف منه قليلا ثم قال دون أن ينظر إليها تماماً:

- في الصباح ما كنت لأتوقع أن يأتي الليل بنسمات باردة، ربما تأثير مكيّفات الهواء بالمكان، لكن هل تعرفين أن بالخارج أيضا الهواء منعش.

تسألت داخلها " ما علاقة ما يقوله بأي شيء " لم تساره في الحديث، وساد الصمت لربع ساعة قد أكل الصمت معظمها، وفي الخارج قد وصلت سيارة فاخر البرماوي، الذى نقل النادل خبر وصوله إلى مسامع حلمي المنتظر، تظاهر حلمي بالقوة وابدى بعض الملاحظات التافهة حول شكل المكان، فلاحظت كريمة توتره العالي، لاحظ الحزن يتسلل إلى عينيها، فبادر:

- حبيبتي، آسف لو أن اليوم لم يكن على مستوى توقعاتك.

أدركت أنها مقدمة سخيفة يستهل بها خبر ذهابه، فسألت بصراحتها المعتادة:

- ماذا أخبرك فاخر على الهاتف، لا تحاول أن تخفي شيئا عنى ولا تتظاهر بالجهل، عيناك تفضحانك يا حلمي، توقف عن التظاهر بالثبات أرجوك.

- لا شيء، فقط بعض المشكلات في العمل.

تخشى الكذب، ولهذا تابعت بسرعة:

- هل الأمر له علاقه بما قاله لك النادل في أذنك الآن ؟ أعتقد أننا وصلنا إلى الجزء الذى ستعلن فيه انتهاء السهرة، ستقف بكل هدوء وتعدّل من هيئتك، وربما تأخذ رشفة أخرى من كأسك ثم تقول أن عليك الذهاب

ذكائها الحاد هو أحد الأسباب الهامه لإعجابه بها منذ زمن، ولن يحاول التظاهر بأنها مخطئة لأنها محقة فيما قالت:

- نعم للأسف، أعتقد أننا وصلنا إلى هذا الجزء من الليلة.

مسّت شعراتها الناعمة بأطراف أصابعها، وأمسكت بخصلة وفركتها بهدوء وقالت:

- حسنا، لا تقلق ليس عليك اختلاق كذبة تحيكها الآن في رأسك لأني لن أصدقها يا عزيزي.

- كيف تعرفين كل هذا ؟

- بعد زواج طويل لا تسألني هذا السؤال، أنا أعرف رائحة كذبك قبل أن تنطقه يا عزيزي الكاذب.

اقترب منها وهمس:

- حسنا لكن ليس لدى وقت للنقاش، الأمر هام وعلينا الرحيل الآن لكن بهدوء.

في تلك اللحظة رفع يده ليطلب النادل، وقالت هي:

- حسنا، سأنتظرك في المنزل، لكن عندما ترجع فعليك اختلاق كذبة مقنعة حتى لا أجتهد في محاولة التصديق، وغدا يا حلمي، أخشى أنه عليك أن تجيب على أسئلة كثيرة.

قالت عبارتها ولم يجب عليها، ثم أمسكت بحقيبة يدها، ثم جاء النادل وقام حلمة بدفع الحساب، وبعدها وقف كليهما وسألته وهما يمشيان ناحية الباب:

- هل الأمر له علاقة بالعائلة أو الأولاد؟

مهما حاولت الأنثى أن تتظاهر بالقوة والثقة، فلن تفلح في إخفاء توترها الشديد على عائلتها وهو أمر غريزي لا اصطناعية فيه، أراد طمأنتها فقال في ثقة:

- لا تقلقي، كل شيء على ما يرام.

إجابته كانت ماكرة، فقالت:

- حلمي، هل الموضوع له علاقة بالعائلة أو الأولاد؟

نظر إليها، فأمسكت يده وقال:

- هل تريدين الصدق؟

تنهدت وقالت برويّة:

- أجل

نظر إلى مدخل المطعم القريب، ثم وقف لينظر إلى عينيها وهو يجيب:

- الأمر لا علاقة له بالعائلة، ولا علاقة له بالأولاد، هي فقط أزمة كبيرة في العمل واخبرني فاخر عنها بالهاتف، مشكلة لا يمكن أن تنتظر إلى الغد.

خرجا من البوابة، بعد أن دفع ثمن الليلة قلقا، ودفعته هي دما محترقا، وجدت سائق سيارتهما الذى لم يحضر معهما، وقد دلف السيارة في انتظارها، ثم شاهدت فاخر يقف منتصبا على بعد أمتار قليلة من البوابة، فأدركت أن زوجها سيركب معه في سيارته، على الرغم من خوفها الشديد من تلك الأعمال التي تخشى تورّط عائلتها فيها، إلا أنها تثق في فاخر ودهاءه، وبالطبع قبله في حنكة زوجها، ركبت السيارة بعد أن رمقت فاخر بنظرة نارية، ثم دلف حلمي العربة ليجلس في الخلف جوار فاخر، وخلفهما عربة أخرى تنتمى لسليمان مساعد فاخر في المكتب، ومعه رجلا حراسة في درجة عالية من الثقة والكفاءة.

داخل السيارة؛ فقد الرجل الرزين هدوءه المنزلي، وارتدى وجه الشيطان، وقال للمحامي عن جواره:

- ابنى أنا يتعرض لمحاولة اختطاف، وماذا تفعلون إذا؟ هل نغيّر عملنا إلى ورش للخياطة، ونستبدل اسم عائلة الصباغ باسم امرأة ونقص شواربنا؟

- اهدأ يا حلمي باشا، أحمد باشا بخير، وهو الآن في مكان آمن.

ضرب حلمي بقبضته في باطن يده الأخرى.

- جاء الوقت لكى أختبئ أنا وأسرتي إذا؟ أصبح رجالي يرتعدون من محاولات الاغتيال ويصرخون كالأطفال، أنت تهرّج؟ هل أمسكتم بهم يا فاخر؟ من فعلوها يجب أن يكونوا بحوزتي الآن، اسحق عظامهم وامضغ لحمهم.

لم يحصل فاخر على ولا واحد منهم في الحقيقة، لقد كانوا في خفة الفراشات ومهارة ودهاء الثعالب.

- مجرد وقت وسنجدهم يا باشا.

أدرك حلمي أنهم لم يعرفوا عنهم أي شيء، وغالبا هذه العبارة لن تليها معلومة مفيدة، أصابه خوف من عدم كفاءة رجاله، لكنه أزاحه وصرخ في عصبية:

- كم كان عددهم؟

- أربعة، بعد تدريب النادي مباشرة، انتظروا في الخارج أمام البوابة وهم يجلسون في سيارة سوداء، أطلقوا الرصاص من مسدسات كاتمة للصوت وقتلوا أثنين من الحرس، تبقى واحد فقط وقد نجح بأعجوبة أن

يهرب منهم، وبمساعدة الحارس الشخصي لأحمد باشا فقد نجحوا في الهرب.

لم يتوقع حلمي هذا السيناريو، اعتقد أنها محاولة فاشلة وقد نجح رجاله في منعها، لكن الحقيقة أن رجاله نجحوا في الهرب بأعجوبة، بل ولم يصيبوا واحد من الجناة.

- هل تعنى أن رجالي لم يقتلوا منهم أحد، وأنه لولا هروبهم لكانوا الآن هالكين مع ابنى لا محالة؟ أجبني بصراحة:

تجنّب نظرة اللوم، وقال:

- أشك في أن الخيانة من الداخل، لقد كان الحادث مدبرا ومخططا له منذ مدة، لولا براعة الحارس الشخصي وحارس السيارة الآخر لربما حدث ما تخشاه يا سيدى، على كل حال نحن متوجهون الآن إلى مخزن الشركة، الباشا هناك في المكتب، ونحن في انتظار أوامرك.

المكتب بابه خشبي يفتح على الجانبين، مطرز ببعض العاج الأصلي، فتحه حلمي ليدلف بلهفة، وفي الداخل شاهد ولده أحمد يجلس على مقعد جلدي مريح، ويحسو عصير البرتقال برويّة، يتجاذب أحمد أطراف الحديث مع نجلاء محسن، وهي مديرة مكتب الشركة التي طلبها المحامي البارع، عندما شاهدت حلمي باشا توقفت عن الحديث والابتسام الماجن، رمقها حلمي وهو يكاد ينعتها بالسافلة، وهي تجلس مرتدية جيبة قصيرة للغاية، وتضع ساقا فوق ساق لتبرز ملوحتها العارية أمام الولد الصغير، لاحظت غضبته فعدّلت من جلستها، ثم بعد ثوان وقفت ممسكة بحقيبتها، وقالت وهي تمضى جواره لتخرج:

- الف سلامة على صحة أحمد يا باشا.

بينما تخرج تجاهل المحامي النظر إلى وجهها تماما، لكنها عندما كانت خلفه قد اختلس نظرة إلى خصرها وساقيها، ثم أغلق الباب خلفها بالمفتاح، وجلس على كرسي في زاوية الغرفة، احتضن حلمي أحمد ولده، وبرأسه ألف سؤال حول وجود تلك الماجنة هنا في تلك الساعة، لكنه ليس وقت الأسئلة على كل حال، فرك شعر ولده ثم عاد لينظر إلى ملامح وجهه الأبيض النابض بالحيوية:

- الف سلامة، هل أنت بخير ؟

- الحمد لله.

عرف حلمي أنهم افهموا الولد شيئا مختلفا، حتى لا يشعر أنها محاولة لقتله هو، وأراد التأكد من خلو رأس ولده من الشك:

- ماذا حدث ؟

لم يتخيل رأس الولد سيناريو للحادثة، وقد استخدم فاخر تأثيره البارع في حياكة القصص الوهمية ليقنع أحمد بما يريده أن يعتقد، خاصة وان أحمد لا يعرف من رجال الحراسة سوى حمدي، والبقية يعملون في الخفاء.

- أنا نفسى لا أفهم يا والدي، رجال يطلقون النيران على بعضهم البعض، وكنت أنا وحمدي الحارس في المنتصف، لقد قتل شخصان أمام ناظري، وأنا لا أعرفهم ولم يسبق لي رؤيتهم، لولا حمدي لربما أصابتني رصاصة طائشة الآن، أرجوك يا والدى يجب أن تكافئه.

تنفس حلمي الصعداء، وظل فاخر يرمق الحديث وهو يجلس شابكا كفّيه، أحتضن حلمي ولده مرة أخرى وهو يقول:

- سأفعل يا أحمد، لا تقلق، عليك الذهاب للمنزل الآن، لكن لا تخبر أمك حول الحادثة العابرة حتى لا تقلق، ولن تحتاج للمبيت عند خالتك اليوم.

- لماذا؟ هل لن تحتفل أنت ووالدتي بعيد زواجكما اليوم؟ لقد أخبرتنا أن نذهب عند خالتنا لكى نجهز لك مفاجأة

عندما أدرك حلمي أن زوجه لها ذكاء خارق، وأنها خدعته حول تلك المسألة وبتلك البساطة، أدرك أن عليه تجهيز كذبة متقنة كما طلبت، حتى تتاح له فرصة الخروج من المأزق، وأن عليه مداعبة عقلها الرومانسي حتى تتناسى الأمر:

- حسنا، سأجعل رجالي يقومون بإيصالك إلى بيت خالتك، ولو كلمتك أمك في الهاتف فلا تخبرها حول ما حدث حتى لا تقلق، أتفقنا ؟

قال الولد ببراءة:

- حسنا، أسف على إزعاجكم في يوم كهذا.

قال حلمي في نفسه " ماذا لو عرف الولد أن والده هو من يجلب لهم المتاعب وليس هم " ابتسم إلى ولده بلا مبرر، ثم قال متظاهراً بالصفح.

- لا، المهم أنك بخير.

تعانقا بحميمية لا يمكن معها تصديق حقيقة حلمي الصباغ، هي تلك اللحظات التي لا يكاد فاخر أن يصدّق حدوثها، خرج الولد بعدها من الغرفة بهدوء دون أن يودّع فاخر؛ فهو ليس صديقا له، الأسرة كلها تخشى من فاخر وتتجنب الحديث معه أمام الوالد بالأخص، وتمقت العائلة وده المصطنع في المناسبات، ومجاملاته الزائدة عن الحد، لكنهم لا يعرفون أنها جزء لا يتجزأ من مهام وظيفته وعليه أداءها بإتقان، توجّه حلمي ناحية فاخر وأمسكه من ياقة القميص الأبيض، ثم جذبه بشدة حتى كاد يلتصق

أنفه بفمه، وعندما اطمأنت نفس حلمي على خروج الولد إلى غرفة أخرى قال كثور هائج:

- اعطني سببا واحدا كي لا أتخلص منك، سببا واحدا فقط كي لا ألقى بك إلى أقرب صفيحة قمامة يا فاخر؟ ما الذى جلب نجلاء إلى هنا في هذا التوقيت بالذات؟ انقذ نفسك واخبرني شيئا يروقني.

أجاب بلا خوف، وقال ببروده المعتاد وبثقة لا يخالجها شك:

- أعتقد أنها الخائنة.

ترك حلمي ياقة القميص، فعدّل فاخر من هيئته دون تبرّم، التفت حلمي ليجلس على كرسي جلدي أمام المكتب، وأشار لفاخر أن يجلس بحركتين سريعتين من كفه:

- اخبرني، هل تستدعى الفريسة قبل أن تجهّز لها المكيدة؟

فهم فاخر المغزى وأجاب وهو ينظر إلى عينا رئيسه مباشرة؛ وهي طريقة أعتاد الحديث بها عندما يريد أقناع أحدهم بشيء، ولطالما نجح في نيل مراده:

- لقد نصبنا الفخاخ بالفعل، لقد جلبتها من منزلها عنوة، ثم أخذت هاتفها الخلوي رغما عنها، وسننتظر أي مكالمة تردها حتى تتأكد ظنوني.

حك حلمي أرنبة أنفه وهو يقول:

- أذن فقد عرفت أن لديك شكوك، وماذا لو لم يردها اتصال يا سيادة المحامي الفاشل؟

- حتما سيردها اتصال، فقد فشلت المهمة وعليهم التنسيق معها بشكل ما، لكن فلنفترض أنها لم يصلها شيء، فبإمكاننا تفتيش منزلها، أو نخفيها ونتظاهر بقتلها ثم نتأكد بطريقتنا القديمة.

- يستحسن أن تحصل على إجابات، خاصة الليلة، لو انتظرنا يوما آخر فسيختفي كل شيء، ماذا عن تعقب المنفذين.

- يتم الآن بمتابعتي الخاصة، وسأصل إلى نتيجة حول الآمر كله عما قريب.

تمنى فاخر ألا يغضب حلمي، وقد تحققت أمانيه، ثقة فاخر في الحديث تجعل الجميع يصدقه، وهو بالفعل لم يفشل في مهمة قد أوكلت إليه منذ أمد، وسنوات العمل لدى حلمي الصباغ قد وطدت نوعا خاصة من الثقة بينهما، يكفي لهما فيه التخاطر بالأعين فقط حتى يتفقون.

- فاخر، أين الحارس الشخصي وحارس السيارة ؟

جال بخاطر فاخر أنه حتما سيكافئهم، وهو بالفعل قد تحفظ عليهم من أجل الحصول على معلومة من أي نوع.

- في المخزن، سأذهب بنفسي وستكون نجلاء حاضرة، وسأحضر طاقم الحراسة بالكامل لنحقق في الأمر، نصف ساعة وسأنتهي من التعامل معهم جميعا، وبعدها سأكافئ الحارس الشخصي بنفسي.

-لا أنا سأحضر؛ أريد مقابلتهم بنفسي، خاصة الحارس الشخصي.

بعد ساعة وقد رحل الجميع، وظلت السماء الخاوية من القمر تعلن غياب الحقيقة، داخل سيارة سوداء يجلس فاخر مرهق النفس، متوتر الأعصاب، ويجلس سليمان في المقعد الخلفي، يدخن سيجارة أضاءت ظلمة السيارة، وانعكس ضوئها على الزجاج خافتا، ثم تكلّم إلى فاخر في تلك اللحظة التي مضى فيها خمس دقائق على حركة السيارة بهما.

– يوما عصيبا، محاولة اختطاف أحمد باشا، ثم اكتشف خيوط المؤامرة وخيانة معاونة السيد حلمي، يكاد عقلي ينفجر من التفكير.

فتح فاخر نافذة السيارة عن جواره، ونظر إلى السيارات المسرعة بلا مبالاة، ثم عاود النظر إلى سليمان وقال وهو يعنى ما يقول:

– هذا لو كان لديك واحد في هذا الرأس الخرب.

تضاحك سليمان، وسليمان في الحقيقة هو قريب لفاخر ولهذا كان يتقبل منه المزاح الثقيل أو العتاب، ناول فاخر سيجارة فرفضها فاخر، وأخرج هاتفه لينظر إلى شاشته المعلنة عن وصول ثلاث رسائل جديدة، ناهيك عن خمس مكالمات فائتة، عاود سليمان الحديث:

– كيف عرفتم أنها خائنة؟

أجاب وهو يقرأ رسائل هاتفه:

– لقد وصلتها رسالة من رقم مجهول تخبرها أن العملية فشلت، وأن عليها أن تهدأ إذا ما سألناها عن أي شيء، لقد قرأ السيد حلمي الرسالة

بنفسه، وعند المواجهة تنصلت من كل شيء، لكن أحد الحراس قد شهد أنها قابلت رجلا في بذلة سوداء أمام الشركة قبل أسبوع من الآن، وهو يشبه أوصاف من أطلقوا الرصاص كما وصفهم حارس السيارة.

ظن سليمان أن الدليل ليس كافيا ولكنه لم يتكلم مباشرة، أخذ نفسا من السيجارة وهو يقلّب الأمر في رأسه، ثم بعد دقائق من الصمت قال بلا ريب:

- أخشى أن هذا دليل غير مكتمل، هل هناك دلائل أخرى حول العملية، وهل هي عملية من أجل السرقة، أم الترهيب، أم الابتزاز، لدينا الكثير من العمل حول الأمر قبل أن نصل إلى إجابة نهائية.

أخذ فاخر نفسا عميقا من الهواء عبر النافذة، ثم زفره مرة أخرى مع تعب اليوم كله، تأفف من رائحة سجائر سليمان وقال:

- ما نوع هذه السجائر القذرة؟

فتح سليمان نافذة السيارة من جانبه، وألقى بالسيجارة خارجا، هو لا يكاد يناقش نقد رئيسه في العمل، وينفذه بلا مجادلة، وبإنكار شديد للذات، وهذا يعجب فاخر للغاية، لكنه أيضا لا يمنعه من وصف معاونه بالجبان، قال سليمان دفعة واحدة:

- ماذا تعتقد بشأن عملية اليوم؟ وتلك الخيانة؟

- أعتقد أن الأمر وراءه لعبة كبرى، لعبة أكبر كثيرا من اختطاف أحمد، تلك الخائنة مجرد دمية في يد تحركها، وتلك اليد كبيرة بحيث تسيطر على

مجال خيالي كله، وتبتعد بي إلى خيوط غير مترابطة، لكنها مجرد احتمالات لا يمكن إثباتها.

على الأغلب لم يفهم سليمان شيئا، وعلى الأغلب لن يسأل وسيتظاهر بالفهم والتقدير الشديدين، نظر فاخر إليه نظرة خبيرة في البشر، وهو ينعته في سره "الفاشل"، فعاود الشاب يتحدث كالببغاء.

- أعجبني حلمي باشا عندما اكتشف خيانة الحارس الشخصي بنفسه، لقد انقذ أحمد باشا لكن لم يعفه ذلك من الشكوك، من كان يتصور أنه متورط في هذه المسألة:

- فقط شخص ذكي يمكنه أن يتصور ذلك يا غبي، الحارس أوهم الجميع أنه يستحق المكافأة، حتى أنا كنت قد بدأت أصدق، عندما دلفنا المخزن اعتقدت أن حلمي باشا سيكافئه، وفور ما وصل إلى الفتى المبتسم فخرا، فاجئه الباشا بلكمة قوية، ثم خنقه بكلتا يديه، أقسم أن روح الشاب كادت تخرج من جسده، وعندما أمرنا بإحضار كرسي وحبل، وأوثق قيده، عندها تبدّل لون الشاب وظل الباشا يصرخ "احضروا لي عصا يا أغبياء، إنه شريكها اللعين"، لم يتمالك الفتى أعصابه وخرّ باكيا، وبعد عشر دقائق كان معترفا بأنه خائن لكنه لا يعرف عنها شيئا.

لم يصدق، كان يسمع كثيرا عن ذكاء حلمي الصباغ، لكنه اليوم فقط تأكد أنه لا يعرف شيئا جديا حول الرجل ومكره:

- لا يمكن تصديق ما جرى؟

- عليك تصديق أي شيء هذه الأيام، حتى عامل المطعم الذى تأكل فيه يوميا وتضع في يده خمس جنيهات لأن حاله يرثى لها، لا تتعجب لو عرفت أنه مكلّف بمراقبتك، ولو وجدت خالتك السمينة تمسك ساطوراً تقطع به شرائح اللحم، فعليك أن تخشى منها كثيراً.

أدرك الفتى أن عقليته القذرة لم تتجاوز حتى الدرجة الأولى في هذا العالم الكبير، العالم كبير إلى حد لا يمكن إحصاء خدعه، والخدع كل يوم تتغير وتتطور حتى تصبح الحياة أكثر تعقيدا وصعوبة يوما بعد يوم.

- هل قتل الفتى ؟

- لقد وعد الفتى بالأمان حتى سمع كل كلمة لعينة يقولها، ثم في النهاية خرج مبتسما وأمر أول رجل يحمل مسدسا بأن يفجر رأس الشاب بلا هوادة، لقد قتله دون معاناة وهذه خدمة كبيرة من وجهة نظري.

لم يدرك سليمان المغزى من الموت الهادئ أبدا طوال حياته، حتى عندما توفت جدته لم يعرف ماذا يعنى أن يموت المرء ببساطة، كان يعتقد دوما أن الموت هو الموت، له نفس الرائحة ونفس النتيجة في النهاية، سيعطب الجسد كثمرة فاسدة، ثم يتحلل بسرعة وبلا ألم، لكنه عندما تخيّل مظهر تلك الرصاصة وهي تخترق عظام جمجمة شخص ما، حتى تترك ثقبا في رأسه يكفي لعبور صرصورا إلى الجانب الآخر، بدت له الفكرة بشعة إلى حد بعيد لا يمكن فيه أن تتساوى النتائج أبدا مع اختلاف المقدمات، لكنه لن يسأل

فاخر عن مقدار الألم الذى يصيب الميت لأنه سيسبه على الأغلب ويلعن أفكاره الغريبة، ابعد سليمان تلك الأفكار عن رأسه وقال:

- وماذا همس لك في أذنك قبيل ركوبك السيارة.

- قال لي أنه يجب تغيير طاقم حراسة الشركات، وطلب منى تجنيد المزيد من الرجال الجدد، لكن مع درجة عالية من الحذر، أمامنا عمل عظيم في التحقيق بشأن كافة الرجال، وعلينا أن نقرر من سيكمل معنا، ومن سنطرد، وطلب أن أحضر رجل أو أثنين يعرفون كيف يقتلون بدم بارد.

لم تعجب فكرة القتل عقل سليمان، لكنه اعتاد سماعها على كل حال:

- نقتل، نحن محامون ؟

في بداية عمل سليمان مع قريبه فاخر، أفهمه أنه يسمع كثيرا أن عمل فاخر لا يخل من مخالفة القانون، وأنه يسمع أيضا أن العمل في مكتبه يعد خطرا، فنفي له فاخر كل شيء وقال " في العمل هناك الكثير من الشائعات" فاطمئن الفتى، لكن الحال لم يدم طويلا فبعد عام واحد اشركه فاخر في كل تلك الأعمال التي نفي وجودها يوما:

- نحن أصدقاء الشيطان يا سليمان، هل تسمعني، أصدقاء الشيطان، وعلينا إرضاء عميلنا مهما كانت المهمة.

أدرك سليمان أنه قد تورط منذ زمن، وليس هناك مجالا للتراجع أمام كل تلك الميزات الكثيرة الأخرى، فقد يصبح القتل فعلا مباحا عندما يلبى ثمنه طموحات حياتك من رغد العيش.

- هل سنحضر غدا إلى مكتب المحاماة ؟

- مكتب المحاماة، هل تمزح؟ بالتأكيد المكتب الخاص يا غبي.

تعوّد سليمان السب، ولم يعد فيه ما يصيبه بقلة الاحترام، بل وأصبح يعتبره جزءا روتينيا من الحديث مع محامى الشيطان " فاخر البرماوي" أوحت كلمة محامى الشيطان لسليمان بسؤال فطرحه فوراً:

- لو نحن محامو الشيطان، ويجب أن نلبي طلبات الزبائن، فماذا نطلق على أمثال حلمي باشا الصباغ؟

ابتسم وقال وهو ينظر إلى المرآة العاكسة:

- تجّار الموت.

الفصل الخامس

لن ترى عبر النافذة سوى جسدين ممددين أسفل الغطاء، ولن تتمكن من اشتمام الهواء المنفلت، مع كل يوم يستيقظ فيه إبراهيم فوق سرير العشق العابر، يدرك أنه قد خسر جزءً جديداً من نفسه، وسيستمر هكذا حتى يخسر كل شيء، يدرك أنه يسير في طريق ذلقة لا حواف لها، وأن أبعاد العشق لا يمكنها أن تصل به إلى أبعد من حدود سرير، أمسك بعلبة سجائره وأخرج سيجارة يبدّل بها طعم الصباح الفاتر، وبعدها سيصدم جهازه العصبي بكوب من القهوة الساخنة، في عقله يخطط أن يرحل بعد تناول الإفطار معها لكنه تراجع عن الفكرة؛ على الرغم من قراره فهو يحب مذاق الطعام في حضور امرأة، فهن يجعلن طعم الأشياء أشهى، لكنه تخلى عن الفكرة تماما عندما استيقظ ليجد كل الأشياء متشابهات، نظر إلى جسد نسرين العاري الممدد جواره بلا تحفظات، وأعاد رسم تفاصيل الأمس مرات عديدات في خياله، كانت مستلقية على بطنها، وشعرها مسترسل بحرّية فوق ظهرها العاري حتى منتصفه، انسابت أصابعه عبر خصلاتها فتحركت ليدرك أنها واعية، فنطق: - صباح الخير.

نطقت بصوت مبحوح:

- صباح النور.

قبّل ظهرها حتى شعرت بالدغدغة، فضحكت وفركت عينيها بسبابتها ببطء شديد كمن يزيل بقياء الطلاء، اشتمّت دخان السيجارة فنطقت:

- هل تدخن قبل الإفطار عادة؟

- لا، لا رغبة عندي في الطعام.

- لن تفطر معي ؟

هي تعرف أنه رجل المداعبات، والوقت الضائع، لا يمتلك الوقت منه سوى السخرية، ولا يجتذب الضوء إلا في الليل، وهو يظن أنها واحدة من عشرات ولا يبالي سوى لمتعة اللحظة المختلسة من الحياة:

- سأتأخر على موعدي

لقد انتظرت هذا الصباح طويلا، وهو الآن يخبرها أنه ليس جاهزا لإفطار عشقي، له شهر يصيبها بالجنون والارتباك، وقد يرحل الآن بلا مقدمات ولا ذكريات صباحية بسيطة:

- لا يمكنك الرحيل هكذا فجأة.

لم تعد تحتمل ضبابية وجوده، هو كالبخار؛ حالما تتمكن منه يتسرب من بين أصابعها دون معاناة، هي لا تعرف أنها ليلة مميزة له ولها ثم لا شيء؛ فمعه لا بدايات مكتملة ولا نتائج محتملة، دائما يصل قبل المطر بساعة ويرحل عندما تتوقف المظلات عن الارتفاع، غالبا ستراه مرتين قبل أن ينقطع عنها فجأة كساق شجرة لا جذور لها، سيترك لها فقط ذاكرة مميزة، وطموحات محطمة، وأهداف ضائعة، سيتركها للنسيان ولن يصيبه الندم

برصاصة واحدة، يعرف أنها ستكافح في الشهر الأول للرحيل من أجل إزالة بقاياه، لكنها ستفلح في النهاية بعد حمام بارد، قبل أن تبدا رحلة مقارنته مع جميع الرجال، ثم ستلعنه بعد ثلاثة أشهر، وبعدها ستعاود المسير دون الالتفات إلى الوراء، وربما لو قابلته بعدها في الطرقات لن تعرفه، ستقابله ربما وهو يمضى هائما على وجهه، يبحث في الأوجه عن ملامح يحفظها، وفي الظلال عن أبعاد يقفز فرحا لها ثم تفتر رغبته المندلعة وتخبو شعلة حماسه، وبعدها لا شيء، بل حتى أنها لن تعرفه يومها؛ ليس لأنها ستنسى تفاصيله، أو ستتجنب وجوده، بل لأنه يتبدل مع كل امرأه، ويختفي في ذاكرة كل امرأه، ثم يتجدد رجلا آخر، حاولت اجتذابه بالكلمات، لكنه ليس أديبا حتى تأسره.

- أنت حلم رائع لا أريد الاستيقاظ منه أبداً.

يدرك أنها شطحات العشق الأولى، ستبهت تلك الكلمات بمرور الوقت، وكثرة الاستخدام، سترتفع كلماتها المنعشة إلى حدود الشمس، قبل أن تستسلم لجاذبية الأيام، ستسقط كما لم تتمنى، لكنه سيترك لها من كراهيته ما يعاونها على الوقوف، يعرف أنها قد تختلق ألف عذر لتبرير غيابه المتقطع، لكنه عندما يصبح غيابا دائما ستصمت، وبعدها ستختلق عشرات القصص الوهمية التي تُبرز فيها أنه الشيطان نفسه، وبعدها ستعتاد الاحتفاظ بصورته في ملف الذكريات.

- الأحلام دائما لا تتحقق.

تجاهلت فهم حديثه واضح المعالم، حاولت تلفيق جملة عشق لكن جهدها العقلي لم يفلح، كانا لا يزالان فوق السرير وقد حرّك يده قليلا لتعود الدموية فيها، حيث شعر ببعض الخمول، ثم استمر في نفث الدخان بلا مبالاة، تحرّكت مرة أخرى لتنام على بطنها، وبمساعدة مرفقيها رفعت رأسها لترى وجهه الجانبي، ثم داعبت خصلات شعره البنيّة، ولمست وجنته في حركة إثارة متعمدة وسألت:

- أين كنت عندما انتظرتك في المطعم ؟

لا يحبها أن تسأل، لأنه يكره الإجابات القاطعة، وهي لن ترضى بالحلول الوسطى:

- كنت أهتم ببعض الأعمال.

سألت:

- ماذا تعمل ؟

حدجها بنظرة حادة، فتراجعت عن سؤالها على مضد وفي رأسها إجابات متنوعة لا رابط بينها، تذكر أنه طلب منها عدم سؤاله عن عمله، لكن الأسئلة التوضيحية للمرأة هي بوابة الأمان؛ عليها أن تعرف كيف يكسب المال حتى تعرفه أكثر، عليها أن تعرف من هو من خلال الكلمات، قالت وهي تحرّك يدها لتجذب الغطاء الأزرق:

- متأسفة، لكن أحيانا أرغب في معرفتك أكثر، لهذا أطرح الأسئلة، أريد أن أشعر بالأمان، أريد أن أشعر أنك ملكي.

الامتلاك، مرة أخرى عليه أن يستمع لشكوك الضياع ورغبة الحصول على الحب واقتناء الأشياء، لكنه يعرف أن إجابته الصادقة لن تجلب لها في النهاية سوى الخوف وستخلف مزيدا من التساؤلات، وعليه أن يواصل رحلته الأبدية في تسلق جبله الجليدي الذى لا قمة له دون تبرّم أو شكوى، وهي لا تعرف كيف تطارد حلما لا يصل خيالها إلى مداه.

– أقوم بالكثير من الأعمال، ليس شيئا محددا لكن ..

في هذه اللحظة حرّكت كفها الناعم لتغلق فمه بميوعة، ولم تنس بالطبع مداعبة شعيرات ذقنه، تحرك يدها جيئة وذهابا فوق وجنته فيقبلّها، ثم تتحس بأصابعها شفتيه وهي تقول:

– توقف لو ستكذب، لا أريد أن أعرف شيئا تريد إخفاءه، سأكتفي بمعرفتي عنك، بدلا من معرفة شخص غيرك.

قبّل أصابعها مرة أخرى قبل أن يتحرك من فوق السرير وهو مشتت الأفكار:

– سأذهب الآن، لدي أعمال مهمة.

استسلمت له ممتعضة، ثم قالت وهي تكافح رغبة النوم بصعوبة:

– لكن عليك أن تكلّمني في الهاتف قريبا، سأشتاق إليك.

لقد نال كفايته منها كما يعتقد، ولهذا ينبغي أن يرحل بسرعة قبل أن يتعلّق بها، ليس عليه تذكّر كيف تنطق كلمة "حبيبي" ولا كيف تتناول قهوتها في الصباح، لا يريد أن يتذكّر كيف ترتشف عصير البرتقال من دون

سكر؛ لا يريد معرفة الأشياء حتى لا يعانى من حساسية الذكريات، فلن يفرط اليوم في تناولها لأنه طالما تذوقها، فأن الخطوة التالية هي الاعتياد عليها، وهذا ما لا يمكنه المخاطرة بحدوثه، ربما سيعود ليقابلها مرة أخرى، أو ربما مرتين، ثم كفى، وعلى كل حال فإن إيجار الشقة سينتهي خلال شهر من الآن، وبعدها لن تعرف له عشا، وستتكفل أجنحة القدر بحمله إلى حلم آخر، وربما بعد شهر قد يصل إلى قمة مغامرة أخرى ستنتهي أيضا، فمنذ تعود السير فوق سلم الطوارئ، يرفع الحب على قلبه دعوى طلاق.

- سأحاول، المفتاح فوق الكومودو، لن أرجع للمنزل اليوم لذا لا تنتظريني.

جاف كورقة شجر أسقطها الخريف بعنف، لم تعقّب بشيء لأنها تعرف أنه لا ينتظر تعليقا، وهذا ما تعرفه عنه إلى جانب اسما لا تدرى صحته وعنوانا سيزول قريبا، لكنه يظل يمثّل لها طعم تقلّب المزاج، وتوتر الموسيقى:

- لن أنتظرك، ستطلبني في الهاتف قريبا، أنا متأكدة

لم يؤمن يوما بإفراط التأكيدات، يعرف أنه اندفاع شعوري لا قيود له، وهو يعرف جيدا أنه ليس عليه اعتياد الوعود، حتى لا يصاب بالخيبة، يكره الشعور بخيبة الأمل، يمقت الأشياء الخارجة عن حدودها، لكل شيء عمر، وعمر الأشياء يختلف باختلاف نوع الأمنية، وهي تتمنى ما لا يمكنها تحقيقه.

- هل أنت واثقة لهذا الحد؟

ابتسمت وأجابته بثقة : فلنترك للقدر الكلمة

*****

داخل السيارة الرمادية أدار إبراهيم المقود وصورة فتحي عالقة بذهنه بشكل مريب، لا تصيبه نوبة ندم، لكنه قد اقتسم مع الرجل الطعام يوما، الخيانة مؤلمة لكن هناك أشخاص حتى لو توقعت منهم الخيانة، فستتمنى ألا يفعلونها، ليس فقط حتى لا يفقدوا قيمتهم عندك، بل حتى لا تشعر معهم ولو بقليل من الشفقة، كانا في الماضي يتقاسمان كل شيء تقريبا، لكن نشبت المشكلة وانفرج الصدع مع وجود ما لا يمكن اقتسامه " الحب " لن يتمكنا من اقتسام نفس المرأة، حاول إبراهيم تناسى الأمر لكنه أصبح عنيفا أكثر، وصديقه قد بات الطمع دينه وديدانه، صارت علاقتهما توازى خطان لا يلتقيان أبدا، ولم تفلح المصالح نفسها في إيجاد نقطة وصول دائمة، لطالما حظى فتحي بحظ أكبر كما يعتقد إبراهيم، فلقد نال كل ما يريد، لكنه في النهاية قد نال ما يستحق وبشكل مفاجئ، فتحي كانت لديه دوما تلك الحاسة القوية باقتناص الفرص، يشتم النجاح بشكل دائم وغريب، حتى الحب كان ناجحا فيه، واختطف فتاة صديقه بقليل من المكر، الإيقاع بفتحي في شباك سليم لم يتأت إلا من خلال خطة محكمة، والخيانة كانت

تجرى في دمه وهم فقط أطلقوا لها العنان، والآن يتقاسمون جميعا دمه، لكن تبقى يد إبراهيم من نفذت، إبراهيم لا يريد الانتقام له، لكنه يعرف أن في التخلص منهم انتقام شخصي لآخر معنى نبيل قد انتقل إلى القبر مع جثة رفيقه السابق، وصلت السيارة إلى مقهي وليد الشواشي بمدينة نصر، وقد فوجئ وليد بخبر وصول ضيفه الثقيل، ونظر للخارج نحو كرسي من البوص المشدود جيدا، وكان إبراهيم يجلس فوقه أسفل الشمس كرجل لا يهاب الظلال، مضى أسبوع على خبر وفاة فتحي، واختفاء إبراهيم المفاجئ أدى إلى تكهنات خاطئة بوفاته.

وفي الخارج يحسو إبراهيم القهوة الساخنة وطلب إفطارا خفيفا، وكما العادة يدخن سجائره بتلك اللهفة نفسها، والشوق المتكرر ذاته، وتمضى صورة ما جرى أمامه واضحة بلا شوائب تعكّرها، فتحي كان لديه شوق الكلاب للحم، ذلك الشوق الدائم والولع الشديد للحصول على المزيد، عندما القوا لفتحي عظمة تغريه، أخذ لعابه يسيل دون توقف، عماد النمر، رجل ثرى ورزين، مع قدرة عالية على الإقناع وتربية الحيوانات الأليفة، اغرى فتحي بالحصول على هذا المقهى، وأنهم سيدعمون انفصاله عن عبد الكريم البني، البني يكبر باستمرار ولا يشبع، ولن يلقى لفتحي بلقمة تُشبعه، سياسة البني كانت دائما أن يطعم رجاله ما يبقيهم أقوياء بما يكفي للاستخدام، لكن ليس بما يكفي للاكتفاء، أوتار الطموح عند فتحي كانت جاهزة لمن يعزف عليها لحنه المنتظم، ولن تضر الخيانة فتحي حيث تقع

عنده في قائمة الاعتياد، وكانت المهمة صعبة لكنه كان مستعدا لها من قبل التاريخ، الصفقة التي يتوسط فيها فؤاد حلمي المحامي، والتي سبق الإعداد لها منذ أشهر، انتُزعت من بين شدقي البني عندما ظن أنه قد تذوقها تماما بل وبدأ المضغ، وفي النهاية أدرك أنه لن يتمكن من هضمها أبدا، توقع فتحي يومها أنه قد حصل على الخلاص من شباك البني، وأن المقهى سيبيت بين أحضانه، لكن وليد عماد تنصل من وعوده، وتنكر لفتحي كما فعل الذئب للغراب.

وقع فتحي بعدها في براثن مشتعلة من غضب سيده السابق، وفقط بمساعدة إبراهيم كُتبت له النجاة، حيث قام إبراهيم بأوراق أثبات سرقة فتحي لأسرار الصفقة، وتخلص منها دون مساومة وقد قال له يومها " أرجوك لا تورطني مرة أخرى في مشكلاتك "، وظن بعدها فتحي أن صاحبه قد أغلق ملف الخيانة بعد أن عضه وحش الكذب، لكن فتحي قام بفتح تلك الصفحة المغلقة مرة أخرى، وأراد ابتزاز عماد النمر، لكنه لم يعرف أنه في مواجهة خاسرة مع حصان طروادة المخادع، حيث ألقى عماد أوراق اللعب في يد سليم، الرجل الأشرس في مجال العالم السفلى سابقا، ورجل الأعمال الشهير حاليا، عندما يقابل أحدهم سليم لأول مرة يدرك أنه لديه خياران فقط، إما أن يصبح صديقا له، أو عدوا له، وهنا كانت المشكلة التي اربكت فتحي المتردد، أراد فتحي السير على الحبل المشدود بمهارة، لكنه لم يدرك أن من يمتلك شد الحبل، يملك ارتخاءه، عندما عرف سليم أنه

لا فائدة من المغفل، وأوقعه في أزمة واضحة مع البني، حسب البني الأمر واهدر دم فتحي، وهنا جاء فتحي يلهث إلى سليم دون أن يعرف أنه الرأس المدبر، وبعدها ساوم على حياة إبراهيم التي رفضها سليم، وطلب منه أن يستدرج إبراهيم للعمل معهم، بعد أن تم طرده من عند البني، لكن للأسف لم يكن يدرك كلاهما معرفة إبراهيم بكل هذا، لكن على كل حال لم يحزن سليم على ورقته المحترقة كثيرا، ولم يخسر ملك الموت شيئا من قبض روحه في موعدها، بل حتى زوجه لن تفتقده كثيرا، لا هي ولا الحياة نفسها، الحياة التي لطالما ركض خلفها ولم يلحق بركبها أبدا، وما نال منها ربحا إلا وطلب المزيد، وقد حصل في النهاية على كفايته من التراب، بينما ينهي إبراهيم فنجانه وهو ينظر نحو السماء بلا خجل، جاء طعام الإفطار للرجل الشجاع الوحيد تحت شمس المقهى، وترجّل الخنزير وليد الشواشي ليقف أمامه مرتديا بذلة بيضاء أنيقة، بينما تلتمع صلعته الأمامية كاسرة لشعاع الشمس الرقيق المنساب عبر فتحات المظلة المصنوعة من البوص أيضا، وكان إبراهيم يأكل البيض المقلى الشبيه بقرص الشمس، ويبتسم كأن الحياة لن تتكرر غدا، بادله وليد الابتسام بغمازتيه المشرقتان اللتان تشبهان مثيلاتهما عند إبراهيم صاحب الشعر البنّى الناعم، والبشرة القمحية الفاتحة، ثم افتتح وليد الحديث بسماجة تخفي صدمته:

– والله لم أصدّق عندما أخبرني رجال الأمن في المقهى عن وصولك، إنها زيارة غالية يا أستاذ إبراهيم.

لم يقف إبراهيم، ومسح يده اليمنى في منديل، ثم اختفت الابتسامة ليتبدل وجهه إلى الجمود البارد مرة أخرى، حتى لا تكاد تصدّق أنه نفس الشخص الباسم منذ قليل، ثم صافح وليد وضغط على يده بقوة وقال:

- بالتأكيد لم تصدّق، أنها مثل زيارة الموتى لا تتكرر، كنت أعتقد أن المفاجآت لا مكان لها خارج عيد الميلاد،، لكن أخشى أني سانتا كلوز بلا كريسماس.

تصنّع وليد الضحك، بينما يحاول أن يفسّر عبارات إبراهيم ولم يفلح كالعادة، داخل وليد هاجس دائم أن إبراهيم شخص خطير وغامض؛ حيث لا يمكن معرفة ما يفكّر فيه إلا بمعجزة، ولا يمكن التنبؤ بحركته إلا بعد حدوثها بأيام، ولطالما شعر بالضيق الشديد في وجود إبراهيم الثقيل على نفسه، كأنه يستنفذ الهواء في الجو:

- لا زال ظلك خفيفا يا إبراهيم.

- هل تشرب شيئا معي، أطلب لك القهوة مثلا ؟ هل تحبها مع السكّر مثلي؟

أشار إبراهيم له ليجلس، فجلس دون تردد، بينما اختفت الشمس خلف سحابة صيف نادرة:

- هذا كرم

صفّق وليد للنادل، بينما يتابع إبراهيم في حذر، طلب القهوة ثم ظل يختلس النظر من عينيه أسفل نظارته الشمسية التي لم ينزعها، ثم وضع قدما فوق الأخرى، ورفع أنفه لأعلى درجة ممكنة، أشار له إبراهيم بشريحة بيض يحملها بشوكته في دعوة للطعام لكنه رفض بإشارة من يده، ظلت الطاولة مكدسة بالصمت حتى حضرت القهوة بعد دقائق، لم يحتمل وليد ازدحام العبارات الصمّاء، فبادر بالقول:

– ما سر الزيارة المفاجئة ؟

في تلك اللحظة كان إبراهيم يلوك آخر قطعة بيض، ثم مسح يديه في منديل وأجاب:

– هل تخشى المفاجآت ؟؟

مال وليد برأسه إلى الأمام ناحية ضيفه:

– لا تعبث معي.

لم يستطع إبراهيم منع نفسه عن الضحك، ثم نظر حوله ليشاهد رجلين مسلّحين ظهرا على بوابة المكان للحراسة، ونظر للأعلى كأنما يخشى أن السماء تراقبه، ثم أخرج من جيبه زهرتين؛ واحدة بيضاء وأخرى سوداء ووضعهما على الطاولة:

– كنت أزور قبر صديق قديم، ثم عبرت من مكان قريب، قلت ماذا لو ذهبت لإلقاء التحية، وربما أتناول شيئا، واشتريت لك تذكاراً أيضاً.

نظر ولد للزهرتين دون فهم، كانتا زهرتان لا توحيان بالراحة، وليد شخص حذر للغاية، وهذا ما يجعله آمنا طوال الوقت، وهذه ميزة لا يمتلكها الكثيرون، لكن الوغد إبراهيم قد أمسك الزهرتين بيديه العاريتين ولم يخش شيئا، وهذا يعنى أن على وليد أن يفعل المثل، ولو خشى من زهرتين فسيغدو طفلا ضعيفا أمام غريمه المحتمل، أمسك وليد الزهرتين وأضاف:

- في الحقيقة أنا لا أحب الورود كثيراً.

يعرف كلاهما أنهما لن يصبحان صديقين أبدا، ولطالما خشى وليد من ذكر أسم إبراهيم حتى، لكن عليه التظاهر بالود، لهذا تبدّلت ملامحة الجامدة إلى ابتسامة خجولة لا توحى بالصدق وأضاف:

: لكن سأقبل الوردتين منك، هل تعرف يا إبراهيم، أنت تعجبني حقا، لماذا في رأيك لم نصبح صديقين إلى الآن ؟

الأطفال من الممكن أن تلهو بالنيران لأكثر من مرة، لكن إبراهيم تجاوز الطفولة منذ سنين، لن تفلح تلك المحاولات البائسة والكاذبة في جذب انتباهه، كانت هناك سيدة جميلة تعبر من خلف مقعد إبراهيم، تابعها وليد بعينيه فخشى إبراهيم أنه يشير إلى رجاله بشيء، ولهذا ارتخى إبراهيم في جلسته وفرد يديه كأنما هما جناحا لقلق، وفرك رقبته مما سمح له بزاوية من الميل نفت شكوكه، ثم اعتدل وأجاب:

- أعتقد أني لا أعرف إجابة هذا السؤال، هل لديك أنت واحدة؟

استبشر وليد من كلمات إبراهيم شيئا اسعده، وهذه هي الدنيا، الكلمات جرداء من التأويل والبشر يصنعون دوما حولها هالة من الاحتمالات، فرك وليد أرنبة أنفه وهي حركة بدنية دائمة لديه، يفعلها عادة عندما يباشر في سرد الأكاذيب كتقرير صباحى في نشرة الأخبار:

– لأننا دائما ما نفهم بعضنا بشكل خاطئ، أنت دائما تبتعد كثيرا عندما يكن عليك الاقتراب أكثر، تنقصنا الثقة في بعضنا البعض، فنحن نخشى بعضنا.

أشار إبراهيم للنادل، وعندما مرّت السحابة ضربت الشمس نظّارة وليد فالتمعت بشكل خاطف ثم خبى بريقها فجأة، يعرف إبراهيم أن كل شيء تحت الشمس واضح، إلا الخيانة والكذب، فلهما ألف وجه، أخبره صديق قديم كان قد قارب الستّين من العمر عندما سأله إبراهيم عن الأمان "يا فتى لا تأمن مكر عدوّك، ولا تثق أبدا في كاذب"، وقد توفي الرجل بعدها بشهر، ولم يمشى في جنازته سوى اللحاد وشيخ الجامع.

– سأخبرك شيئا واضحا كتلك الأشعة التي تضرب نظارتك، أنا لا أخشاك وينبغي أن تعي هذا بوضوح كامل، ولا أثق بك أبدا فهل تفعل أنت؟

نظر وليد لرجاله، ثم انتصب واقفا وقال وهو يضع كلتا يديه في جيبي السترة الغالية:

- لو جئت لتهديدي فأنت لا تستطيع المساس بي يا إبراهيم، وأعتقد أنك قد تناولت فنجانك وعليك الدعاء لصديقك المتوفي ؟

ابتسم إبراهيم كمن شاهد مهرّجا، وقال:

- المتوفي لم يعد صديقي بعد الآن، أخشى أنه صديقك أنت

قطع وليد بالقول محتداً:

- اعتياد أصدقاء في القبور ليس من طباعي.

وقف إبراهيم، وهو يضع ورقة من فئة خمسين جنيها فوق الطاولة:

- عليك اعتياد هذا من الآن.

حاول إبراهيم أن يلتفت ويرحل، لكن وليد أمسك معصمه بقوة، كان يخشى أن يلاحظه الزبائن غاضبا، وهو رجل حريص في كل أفعاله، وربما هذه أكثر ميزاته ظهورا، لهذا همس وهو يضغط على أسنانه بعنف:

- أنا لا أخاف أسلوبك هذا هل تفهم؟؛ حركاتك الرزينة وخطواتك الثابتة، وحتى كلماتك الغامضة لا تخيفني.

أجاب إبراهيم ببراءة، وهو يبستم تلك الابتسامة التي تجحظ معها عيناه، وتبرز عضلات وجنتيه، لتشكّل ابتسامته الأكثر وقاحة:

- وهل قلت أني أخيفك؟

قال جملته، ثم أفلت معصمه من يد وليد المبهوت كأنما تخلت الألوان عنه، وفي رأسه عبارة "في منازلة مليئة بالصدمات عليك أن تخشى الإصابة بكدمة كلامية"، خرج إبراهيم عبر البوابة وهو ينظر إلى كل شيء، أولا نظر

إلى وليد دون أن يحيد وجهه، أو يرمش له جفن، ثم نظر إلى النادل القادم بلا مبالاة وغادر قبل أن يحضر، ثم تاليا نظر إلى كلا الحارسين على البوابة في تحدٍّ بلا ألفاظ، يدرك جيدا أنه قد فتح أبوابا جديدة للصراع، لكن وهل كان يتوقع شيئا آخر؟ بالطبع لا، هذا هو ما يريده بالضبط، وسيقضى بقية اليوم يقود سيارته إلى أماكن بعيدة، وسيتنفس الهواء بلا توقف، ثم يقف فجأة يتابع طائرا ينوح، وينظر ناحية العدم كمن ينتظر ضيفا، ثم سيحيد بنظراته عن النساء الجميلات طوال الليلة حتى يشعرن أنهن مهملات، ويشعر هو أن الكون ملكه، ثم يصمت بعدها إلى الغد بلا أمنيات، أو توقعات، نظر إلى سيارته البيضاء وهمس بينه وبين نفسه:

– هيّا يا حلوتي لننطلق مرة أخرى.

ثم تذكّر أن علبة سجائره لا تزال ذاخرة بالوعود، فأخرج منها واحدة جديدة، أشعلها كأنّه يقبّلها دون اكتفاء، ويستنزفها كما ستستنزفه يوما دون هوادة، ثم يزفر الدخّان في المكان الذى يعتقد أنه الأنسب ليراقبه الموت عن كثب.

وفي نهاية الشهر، كان عليه إتمام خطوة ليس عليه تأجيلها، كانت الساعة الثامنة مساءا، حيث غادرت الشمس السماء، ولن ترجع لتعكّر صفو الهواء المنعش الذى يخترق فتحات النوافذ الصغيرة، ثم فتح النافذة الضخمة في الصالة، وكانت الشقة في الطابق الثامن في هذا الحى الراقي، والمنازل حوله أقل طولا بطابق على الأقل، فاستمتع بمشهد القمر المنكسر

على الغيوم وحده، تذكّر حبه السابق للاختلاء في الشرفة، والنظر للسماء بالساعات، ثم عاوده صوت أمه في مخيلته يكرر العبارة التي لا يمكنه أن ينساها " أنت حالم مثل والدك "، تراجع ليجلس فوق أريكة واثره ، وفرك شعره البنّى كعادته الطفولية والتلقائية، تدور برأسه أفكار لا يمكن حصر مداها، وأحلام لا يمكنه الاقتراب من مضاربها، فيبدو أقرب إلى الزوال منه إلى التمني.

هو يعرف أن ما في نفسه لا يمكن البوح به بسهولة، لأنه يجهل نصف ما يريد، ولكنه يعرف فقط أنه يفقد مذاق الأشياء تدريجيا، هو يعرف أن الحل الوحيد عندما تتساوى كل الحقائق داخل نفسه، هو أن يترك كل شيء دون إجابة؛ فعندما يجيب عن تساؤلاته المتشابكة، يجد كل الإجابات متشابهة، مما يصيبه بخيبة الأمل، تجاهل إبراهيم فض اشتباك أفكاره، ثم توجه ناحية المنضدة، التي وضعها فوق فرشها الأبيض البسيط تلك الدفعة الأخيرة من إيجار الشقة، لأن عليه الرحيل في الغد إلى مكان آخر، يحمل إليه عدوى الرحيل، ثم أحضر تلك الورقة التي كتب فوقها كلمات رقيقة إلى نسرين التي سيرحل عنها، وحالما تذكّر ابتسامتها الرقيقة، وبشرتها القمحية المشدودة، وبراعتها حين تقول " أحبك " لم يحتمل ترك الرسالة لها، وأخرج قدّاحته، ثم أكلت النيران عبارات الوداع، بعدها كان عليه إجراء اتصالا، فأخرج هاتفه وطلب رقما محفوظا على الشاشة منذ ساعة على الأقل،

ومن داخل تلك الغرفة البعيدة عن الأعين، أجابه فاخر بسيوني دون أن ينظر لشاشة هاتفه:

- الو ؟

اندفعت الكلمات من فم إبراهيم:

- أستاذ فاخر البرماوي، أنا إبراهيم بركات.

اصطنع فاخر عدم تذكّر الاسم لبرهة، ثم حاول أن يبدو منشغلا، أو غير مهتم بالمكالمة على النحو الكامل:

- خير؟

النبرة كانت ملفقة بشكل رخيص، فبادر إبراهيم في الدخول إلى الموضوع مباشرة:

- عندي شيء يخصكم، شيء مفيد، وأحتاج للعمل.

فاخر البرماوي شخص لا يمكن ابتزازه عبر الهاتف، وهو يحتاج إلى إبراهيم من أجل العمل فعلا، فإبراهيم رجل خطير كما يحب لفاخر أن يطلق عليه، وكان سيحادثه عاجلا أم آجلا على كل حال، ففاخر يحتاج لرجال من أجل مهام ربما تبدو للبعض انتحارية، لكنه أبدا لن يخبر إبراهيم بذلك.

- حسنا ، بخصوص المعلومات فأعتقد أني أريد أن اسمعها في أقرب فرصة، وبشكل ودى في مقابلة شخصية، فكما تعرف تلك الموضوعات

الهامة لا يمكن مناقشتها عبر الهاتف، أما بخصوص العمل فأعتقد أني سأفكّر بالأمر ثم سأخبرك بإجابتي، وأيضا من أجل تحديد موعدا للقاء.

– اتفقنا، وداعاً.

لطالما كان إبراهيم مغرما بالمحادثات الهاتفية القصيرة، ولم يعترض فاخر على الأسلوب، ولكنه لم يظهر اهتماما كبيرا بما يمكن أن يقدّمه إبراهيم من معلومات.

وفي غرفة المكتب الخاصة بفاخر البرماوي، وقف سليمان فاغرا فاه، والذهول يأكله، ينظر إلى أستاذه ببلاهة شديدة:

– لا أفهمك، لماذا لم تخبره أنك في حاجة إلى رجال، خاصة وأن حلمي باشا يستعجلنا في الحصول على أشخاص مناسبون لتنفيذ المهمات دون نقاش، أو خوف، وإبراهيم هو الشخص الأنسب لهذا النوع من الأعمال.

كان مزاج فاخر مثل ذبابة خرجت من الأسر توا، فتجاهل السؤال التافه من وجهة نظره، وقال بصوت عميق:

– أحتاج إلى قهوة بالحليب، معك ربع ساعة على الأكثر فلتحضّرها.

لم يكن في المكتب سواهما، فلم يأخذ سليمان الطلب من منحى الإهانة، وخرج مباشرة لتجهيز القهوة ولم يتبرّم كطفل من المرحلة الإعدادية، حيث لكل شيء معنى، ولكل تصرف مردود عكسي، وألف تفسير مختلف، ثم عندما جاءه بالقهوة، سمع فاخر وهو ينهي مكالمة هاتفية لم يستطع تحديد

الشخص على الطرف الآخر منها، وعندما دلف باب الحجرة ووضع القهوة على المكتب قال له فاخر:

- غدا سنذهب إلى مهمة في المساء.

فبهت وجه سليمان كأنما ذهب الدم عنه، وتاه قليلا في سميرة التي لن تقبل له عذرا، فسأله فاخر:

- ماذا ؟

قال سليمان دون تفكير:

- لدى موعد مع خطيبتي.

جحظتا عينا فاخر حتى كادتا تخرجان من محجريهما، ثم طرق على المكتب في شدة، وصاح بلا مبرر:

- قد بإلغاء الموعد، لدينا عمل هام في الغد، العمل هو أهم شيء في حياتك يا عاشق؛ فمن دونه أنت لا قيمة لك، إذا كنت مشغولا غد مساءا فأجلس في المنزل جوار والدتك.

ثورة فاخر لم تكن عادية، كانت الأحرف تخرج من فمه بسرعة مدفع رصاصات، وتحركت شفتاه في عصبية غير مسبوقة حتى أضاع نطق بعض الأحرف وهو فعل يمقته للغاية، لن يعرف سليمان أن السبب المباشر في الغضبة ليس هو ولا خطيبته، بل هناء زوجة فاخر؛ مقدّمة البرامج التي هددته بطلب الطلاق منه، وبحجة أنه لا يرتقى إلى طموحاتها الرومانسية، وأنه ليس رجلا أهلا للثقة (من وجهة نظرها)، والشك يأكل رأس فاخر،

والسبب الأقرب إلى المنطق هو عشقها غير الشرعي لوائل سالم؛ وهو شاب مفتول العضلات، محترف في العزف على أوتار النساء، بادر سليمان بالتوبة إلى سيده:

- أنا متفرغ في الغد.

حالما ركدت مياه الطوفان، وتذكّر فاخر أنه لا يحادث مساعده الشخصي الطموح فقط، بل أبن أخته الشاب، بادر سليمان بالنظر إلى الحائط البعيد، ثم بدت له فكرة الذهاب إلى الحمّام مناسبة لتخفيف حدة الحدث، لكن فاخر قد تحرّك من خلف المكتب ليقف تماما جواره، ثم أمسك بكتف سليمان، وقال بنبرة هادئة:

- العمل هو أهم شيء في حياتنا يا فتى، وضعك الاجتماعي سيتحدد من خلال احترامك لمسؤوليات عملك قبل كل شيء، ونظرة الفتاة لك سيحددها فقط رقم حسابك المصرفي، لا تجعلها تتحكم بك، صدقني لو أحبّتك اليوم لأنك أرضيت غرورها، فغدا عندما لن تحتمل طلباتها ستغادرك بسهولة.

تسرّع سليمان مرة أخرى، واندفعت كلماته الحمقاء:

- لا أعتقد أن سميرة قد تفكّر بهذه الطريقة.

استشاط فاخر غضبا، لكن بداخله شيء منعه عن الانفجار هذه المرة، ربما هي صورة أخته الهادئة على الدوام، والتي منعت الولد عن خاله لسنوات، فاخر دائما ما أراد أن يثبت لها أنه رجل صالح، وأن أعماله شرعية،

لكنها كانت تكتشف أمره بمجرد النظر مباشرة إلى عينيه، لكنه لم يعترف لها أبدا، ولا يريد للولد الذى يعامله كوالد حقيقي، فمذ اكتشف أنه عاجز عن الإنجاب صار سليمان هو شغله الشاغل، خاصة وقد توفي الوالد وطفله في سن الخامسة من العمر، أراد فاخر أن يلقّن سليمان درسا هاما، ينبغي له أن يحفظه، فأمسك به من ياقة القميص وجذبه ليجلس على مقعد خشبي، ووقف هو قبالته يستطرد:

– كلهن لديهن التفكير نفسه، ستحبك طالما كنت غنيا، وعندما تعجز عن سداد اشتراك النادي، وطالما لا تملك ثمن السيارة الجديدة، فلن تهتم لأمرك كثيرا، وربما في النهاية تستبدل قلبك بحفنة من النقود، أريدك أن تعي هذا جيدا لأن أمرك يهمني، ربما لو كنت شخصا آخر لما اهتممت لنصيحتك، أنت امتداد لي، ويجب أن تعي هذا جيدا أيضا، ومكانك هنا جواري، خلف هذا المكتب الفخم، المكتب الذى لن يتغير عليك، الأخشاب لا تتغير، لكن البشر يفعلون، المال يبقى هو المال، لكن الحب يكبر ويشيخ، ثم يفنى.

شرد الشاب، وفي رأسه صورة حبيبته، يلطخها فاخر بكل أنواع الحبر الأسود المقيت، لا يستطيع سليمان أن يتصور حبيبته في هذه الصورة، ولم يعقّب على المرافعة الملتهبة حتى لا يزيد شحن الكهرباء في الأجواء، لكن فاخر كان مستثار للدفاع عن رأيه حتى آخر لحظة، ويعرف جيدا أن التربية هي فن الزراعة، فغدا سيحصد ثمار ما غرس اليوم؛ فبادر مرة أخرى:

- لا أدرى كيف تستطيع أن تحب بعد ما رأيت من أفعال النساء، خاصة ما نعرفه في هذا المكتب، عليك أن تدرك أنهن لا يحببن، هم فقط يستسلمون للرغبة قليلا، ثم بعدها يغتالون أحلامك الوردية بكلمات أصلب من الرصاصات، فقط المصالح هي الرابط بين البشر يا تلميذي.

هز سليمان رأسه بعلامة قد يظنها فاخر استجابة، أو خضوع، لكنه أراد التخلص من وجع الرأس، ثم قال:

- أين سنذهب ؟

- ليس اليوم، غدا ستعرف.

الفصل السادس

الجو كان ملتهبا في الصالة، حيث داعبت تلك المرأة اللعوب أذن الرجل صاحب السيجار الفخم، والذى كانت جالسة على قدمه في رداءها اللامع القصير، وقام هو بصفع مؤخرتها وتحسسها بشكل ماجن، ثم أنزل النادل الطاعن في السن لهم زجاجة النبيذ الحمراء ذات الغطاء الأصفر، وبداخله ألف أمنية أن يرى ما هو أسفل رداء السيدة الرعناء، لكنه أدرك أنه لا يمكنه ذلك لأنه رجل وقور كما يستقر في نفسه، لكنه يخفي حقيقة يعلمها جيدا وهو أنها متاحة فقط للزبائن في هذا الملهي، وأنه لن يقدر على ثمنها، ويستقر في عقل عم بسيوني النادل أيضا طعما واحدا للنبيذ، فهو يذكر أنه قد جرّبه مرات قليلات أثناء شبابه، ويزين الأمر بعبارة " الضرورات تبيح المحظورات" وكم من جريمة ترتكب، ومن أثم يؤتى تحت ستار الضرورة، وهي في الأصل من أساسيات الشهوة، وعلى كل حال فالنبيذ كله له في فمه طعم لاذع عند بداية اللسان، وحارق عند البلع، ثم تتبدل إلى حلاوة ممزوجة بحرارة تبعث من الجلد، ثم ضياع، ولو أمتلك عم بسيوني ثمن زجاجة نبيذ فلن يحاول تناولها، وسيدّخر ثمنها من أجل مصروفات جامعة ابنه فريد، وبداخله رغبة تشتعل وتنطفئ بسرعة وتعاود التجدد في بداية السهرة وتخبو في نهايتها، ثم تحال إلى رماد يدعى التضحية، وهو أمر أبوي لا

يمكن افتعاله، وعلى الرغم من هذا فأن عم بسيوني لم يكن طيبا للغاية، أو ساذجا تماما، بل هو شخص ماكر وقد راودته الشهوة مرات بعيدا عن بيته، لكنه يخشى دائما على صورته المهيبة أمام أهل المنطقة، حيث يداوم على صلاة الجمعة حاضرا في الصفوف الأمامية، وخلف الخطيب مباشرة في أغلب الأحيان، وهي تلك الصورة المزيفة التي ساعدته زوجه على رسمها، وسرد تفاصيلها، وداخل جدران المنزل تشققت أعمدة الكذبة تدريجيا؛ فسرعان ما أدركه الأولاد من الخلافات المستترة داخل جدران الأسرة، أن والدهم يعمل في ملهي ليلي، ولو عرف أهل المنطقة بالأمر لبادلوه السخط شكلا، وليس موضوعا، حيث أنهم سيتعففون من مصادقته في النهار، ثم ينادمون الخيال الجامح بالليل، وهم يحسدونه سراً على وجوده هناك وسط النساء العرايا والكؤوس الناضحة بالبهجة الموعودة، عندما عاد عم بسيوني من عمله مساء ذلك اليوم منهكا كسلحفاة أرهقها السفر، شاهد أولاده يتجمعون في الصالة، وفوق رؤوسهم على الحائط المقابل لباب الشقة، صورة والدتهم المتوفاة منذ سنوات، يقود الأولاد ولده الأذكى فريد، والذى دائما ما شتته المظاهر وثبتته النفوس، حيث كان يبصر الغرائز في أعين الرجال مدّعين الصلاح ويسخر من تمثيلهم المبتذل للتقوى التي يتشدقون بها على الله كذبا، ابتسم فريد يومها تلك الابتسامة التي يفعلها عندما لا يحب أن يتحدث كثيرا، وقال بلا مقدمات "سأترك الجامعة، لقد اتفقت أنا وإخوتي على العمل معك في الملهي، ونحن نرى أن في هذا الخير لنا".

كانت صدمة الأب صاعقة، وتذكّر جملة زوجته الراحلة " ستقضى على أولادي بعملك الملعون" وعم بسيوني رجل هزيل البنية، زال الشحم عن جسده، وهجرته العضلات بلا رجعة، وانحنى جزعه كنخلة تضربها رياح عاتية، وتتمسك بجذر عجوز يمسك بشتات حياتها، واستسلم لهم في الجولة الثانية من الحديث وبلا مقاومة تذكر، فقط توجّه ناحية غرفته، وسريره النحاسي القديم، صاحب الأزيز المريع عند كل تقلّب يقوم به أثناء نومه المتقطع، ونام ليلته بلا عشاء، يناجى الظلال النائمة في الزوايا البعيدة والضيقة، هذه كانت قصة الولد الطموح وأباه الساقي في ملهي الوردة البيضاء، أو على الأقل هذا ما كان يُسمّى به الملهي ساعتها، فقد غيّره فريد بسيوني بمجرد حصوله عليه، فقد أزال اللافتة البيضاء الضخمة، وعلّق اللمبات النيون الحمراء، وأفرغ النور الملوّن في عشوائية، وكان هذا بعد عشر سنوات كاملات، وأصبح الكازينو يدعى اليوم باسم الوردة الحمراء.

إنه الدم الذى لطّخ القماش الأبيض الناصع، الطريق الإجباري للحياة الجشعة للابن الثالث لبسيوني الفلاّح الحزين، تغيّرت الأيام على شكري وإسلام وفريد، ومحسن الصغير الماكر، فيما مضى قد أُطلق على بريطانيا أسما شهيرا راج في كافة بقاع الأرض، الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وكان هذا في عقود غابرة، تحلت فيها القيم بروح مرنة، ونفس متقلبة خجلي، وبينما يرقد بسيوني اليوم بسلام في مدفن فخم فبدنه غير مرتاح، لم يطلب الفخامة في المدفن، ولم يعتقد أحد أنه سيحصل عليها،

فهو الذى قد دفن والده في مدافن الزكاة، لم يكن يعرف يوم تزوّج من حسنية بنت الشيخ عوّاد أن حاله ستتبدل بعد الخمسين، وهي لم تكن تعرف أنها ستنجب من يصنعون إمبراطورية لا تشرق الشمس بها، فالمغفور لها نجلة الشيخ عوّاد الطربيل، شيخ مسجد عمّار بن ياسر، في قرية صغيرة من محافظة الدقهلية، يوم ولدتها أمها دعوها بحسنية، ولم يعرفوا أنها ستصبح حسنة المظهر، بهيّة الطلة، واستقر لها المقام في دار الشيخ فوزى، في عصمة بسيوني الولد الوحيد، لوالد توفي بلا قرش واحد يملكه، وعندما انتقلت إلى مصر الواسعة تمنت سعة في الرزق، ولم تدرك أن المغلوب على أمره زوجها قد انسدت به الطرقات، وضاقت به السبل، ليعمل في ماخور كما أطلق عليه والدها الذى نمت بينها وبينه القطيعة منذ وقتها، وتحمّلت ما لا طاقة لها به على وعد من زوجها بألا يخبر أولاده عن عمله رديء السمعة.

لم تدرك وقتها أن السمعة الحسنة هي أقل ما ينبغي عليها أن تقلق بشأنه في هذا العالم الموحش الكبير، وحمد زوجها الله على وفاتها قبل أن تتبدل حال النعاج الصغيرة، وتنبت لها أنياب كنصول السيوف لا ترحم، في القصص الخرافية دائما ما تظل حال المخلوقات على طبعها، لكن في الحياة الواقعية تتبدل الأشكال والطبائع مع كل يوم تجرى فيه مياه النيل إلى المتوسط في رحلتها المقدّرة، وقد تنجب الشاه غولا يأكل اللحم بلا غضاضة، ولو أقسمت لها الجبال على أن ولدها فريد – تحديدا- ستتبدل طبائعه لما صدّقت، والحقيقة أنها لم تعرف ولدها من الداخل جيدا، فقد كان مداوما

على الصلاة، يغض البصر عن الفتيات، لكن في ليله يتخيلهن عرايا يصرخون باسمه في فجور، ويتحسسون أعضائه التناسلية في المنام ألف مرة، لكنه كان خاشعا في الصلاة وهو صادق في الأمرين، وهي تلك الخصال التي لا يمكن للبشر حملها معا في رأس واحد بلا ألم، وكان يسرف في الدعاء لكنه في داخله يخشى عدم تحققه، وكان صبورا في صغره، لكنّه مل، وأدرك أن الحياة لا ينفع معها سوى العراك، وليس المهادنة، فلن يأتيه نصيبه من الدنيا راغما، طالما ظل رابضا في المسجد، أو راكعا فوق سجّاد الصلاة.

وسرعان ما تسممت نفسه، وغزت الضغينة قلبه، فخصاله تحوّلت، وتبدلت مسبحته الخشبية، إلى سلاسل معدنية يخنق بها أعداءه بلا هوادة، ودونما إشفاق، في بداية عمله في الملهي، لم يخش شخصا سوى الشرطة، ولم يحذر سوى من الخوف، والخيانة، عمل في البداية على كسب ود صغار الأمناء، ثم عساكر مستجدون، وجمع المال بمساعدتهم، وقاسمهم في المكسب بلا جشع، أصغر أمين شرطة كان فريد يعرف اسمه، وعائلته، وكان يجاملهم في المناسبات، ويحضر بنفسه الكثير من الأفراح، وإذا ما أراد أحدهم المساعدة، فكان يلبيها دون تأخير، وكان هذا جزءا مما يسميه " المعايشة"، وعندما سأله شكري عن معنى ما يفعله قال له على مضد، حيث يكره التفسيرات، والتبريرات كما يمقت الموت، والفقر، " عندما تتعايش معهم، تصبح جزءا من حياتهم، أولا يطلبوا المال، ثم العون، ثم الصداقة، وبعد الصداقة يصبحون ملكا لك، ينفّذون ما تريده دون سؤال، كما تفعل

أنت معهم دون تردد، سيعرفون أن مصلحتهم من مصلحتك، ويصبحون هم أنفسهم يتصرفون في ترويّج أسمك، لأن في هذا ترويّج لأسمائهم وهيبتهم"، فريد هو داهية لا يمكن فهمها، يعتبره أخوته أذكى شخص عرفوه، وهو يعرف أنه ذكى، واستمتع بهذا كثيرا في مجال الجريمة، كان يمقت أعداءه، ويقدّر أصدقاءه، يضرب بلا رحمة، لكن لا يقتل بيديه أبدا، هو يعرف إنه يجب أن تظل يديه نظيفة ومعطرة، وظلاله ملطخة بالموت، يجب أن يخشاه الجميع في مرحلة ما، وهذا ما حدث، حين يقف في مواجهة أحدهم فهم يعرفون أنه لن يستخدم يديه أبدا، سيظل رزينا، وهادئ في حديثه، لكن لديه من يجلب رأسك في صندوق خشبي، ليصنع لك مقاما قذرا، يتلو فيه الأنذال صلوات الجشع، والضغينة إلى الأبد.

أما قصة حصوله على الملهي، فهي قصة طويلة تبدأ من العمل بلطجية انتخابات، وسطاء في تجارة السيارات المهربة، وأيضا تجارة تجزئة السيارات المسروقة، موزعين مخدرات، والكثير من الأعمال حتى شاركوا صاحب الملهي، وهو فاروق المنير، رجل طاعن في السن ولا وريث قوى له، لم يكن قادرا على ملاعبة القرود، فتركها مقابل صفقة مالية يظنها كل طرف رابحة له، وهكذا حصل كلّ على ما يريد دون إطالة في الأذى، ولا معاناة التصادم، بعدها بسط فريد نفوذه على المنطقة حوله، واشترى رجالا في كل المجالات، خاصة الصغار الأكثر ولاء، وطمعا في الحصول على المكسب السريع، المحليات كانت لعبته الأرقى، ثم أصبحت الشوارع حكرا عليه،

سيطر على صغار الخارجين عن القانون، ثم خلال السنوات العشر التاليات سيطر على غالبية الملاهي الليلية في القاهرة، والبقية تقع تحت طاولة يده الممتدة،

خبر توقيع عقد الشراكة بين شكري بسيوني وعلام السيوطي في شركات الإسمنت الخاصة بالصناعة والتوزيع قد ملأ قلب فريد نشوة، يومها خشى حلمي الصباغ على أسمه، خشي أن يتم سحب البساط من تحت قدميه؛ فحلمي الصباغ ووالده، بل وعائلته برمتها، لطالما كانت الأسرة الأكثر نفوذا، وقوة، وقتها كان لابد من حفظ التوازن بين الجميع، لكن اليوم خالف فريد كل الأعراف بين أسياد القمة، وقد حاول حلمي مرارا وتكرارا أن يحصل على هذه الشراكة عندما أدرك أن علام يترنح، لكن حلمي كان متأخرا بأشواط، فبينما لا يزال يحرك عساكره، كان وزير فريد قد أطاح الملك من فوق رقعة الشطرنج العتيقة، واليوم وقد سيطر شكري بسيوني على المصانع كلّها، لم يبق لعلام السيوطي سوى مصنعا للحلوى، ولهذا قرر حلمي التخلي عن حذره ولو قليلا، ومفاجئة فريد بزيارة كشف للنوايا، وتسوية لكل الملفات المنفتحة منذ سنوات، والتي قد آن الوقت لحلها، واليوم حان الوقت لكل هذا،

بلغت سيارة حلمي الصباغ مشارف الملهي، وهي تمضى بلا صوت كعادتها، ومعه حراسته الشخصية، بالإضافة إلى حارسه القديم، والمسئول

الأول عن أمن الأسرة، وتدبير أمور العمليات، نزل حلمي من الباب الخلفي للسيارة، ثم وقف أمام البوابة البوهيمية الطابع وقال

: أصحاب المكان لا يمتلكون ذوق أبدا

ثم نزل من الكرسي المجاور للسائق، رجل في منتصف الأربعينيات، أصلع الرأس، عريض المنكبين، لكنه أنيق في بذلة زيتية اللون، ولديه مسحة وسامة مقبولة، تخفي شخصا لا يثق بأحد، ولا يضحك إلا قليلا، وقد بدى ملكا مقارنة بحارس بوابة الملهي، الذى كان دميما، وأقصر بخمس سنتيمترات على الأقل، ويرتدى بذلة لم يغسلها منذ أسبوع كما يبدو، دلفوا الملهي، ثم عبروا البوابة الطويلة نسبيا، ليصلوا إلى الصالة في النهاية، وتحرك حلمي وحارسه بسلاسة حتى وصلوا إلى طاولة منزوية عن الأضواء، ولا يمكن لحارس أن يجلس جوار حلمي الصباغ سوى عامر، وعامر ليس حارسا أجيرا بالمعنى الفعلي، فهو أقرب إلى كونه صديق العائلة، حيث كان دوما، هو ووالده من قبله أقرباء جدا للعائلة، بل ويحضرون المناسبات العائلية معهم، ويشاركونهم في مناسباتهم، وعامر شخص غنى لا ينقصه المال، لكن موقعه يجعله مستعدا، ورجلا خطيرا بضراوة وله نفوذ شخصي خاص، وهو أيضا الاستشاري الأقرب من حلمي على مدى السنوات، وقبلها كان رفيقا في مرحلة الشباب، البعض يقول أن عامر هو العقل المدبر لجرائم القتل التي تحوم شبهاتها حول العمل السرى، لكنها تظل مجرد شائعات لا يمكن تأكيدها، وهي تساهم بشكل هيستيري في بناء صورة

سريالية خارقة عن عامر، تظهره كرجل من الغبار لا يمكن الإمساك به، وهذا غير حقيقي على الأطلاق، فقد كان قريبا من الموت لثلاث مرات على الأقل.

عندما لمح محسن بسيوني الرجلين على الطاولة البعيدة يتبادلان الكلمات على فترات، أصابته الدهشة في مقتل، جذبته الفتاة الشقراء عن شماله من طرف قميصه، لكنه دفع يدها ولم يعرها انتباها يذكر، وقد بدى أنه استفاق من الخمر فجأة على غير عادته، أمسكت الفتاة الشقراء بيده مرة أخرى، فافلت يده منها بعصبية، وزمّت شفتها السفلى الشهية التي تلهبه، لكنه لم يبالِ، ترك الكأس من يده، ثم أخرج من جيب سرواله الجينز هاتفا خلويا، وطلب رقم أخاه شكري بأصابع مرتخية، وفي رأسه يشك أن فريد أو شكري يخفون عنه أمرا، وبالفعال فقد كلمهم فريد مسبقا قبل المجيء بالطبع، وهو شيء بديهي، ولهذا فهم محسن ما يجرى بسرعة، تحرّك عن طاولته البعيدة جدا عن مكان تواجد حلمي وعامر، وهو ما جعله يشك أنه رآهما فعلا، وعليه التأكد، فرك عينيه وهو واقفا يترنح، ويحك شعر صدره الخارج من قميصه المشجّر فاقع اللون، والمفتوح حتى بطنه، وتتدلى سلسلة نحاسية تتأرجح فوق غابات الشعيرات، وتتلألأ أعين تميمة الجمجمة المعلّقة في طرفها، نظر محسن للكأس في يده، فوجده فارغا، أخذ كأسا من فوق طاولة لا يعرفها، وشرب الكأس، الموسيقى في المكان صاخبة، وهي

تروقه في الليالي العادية، لكنه الآن لا يكاد يسمع نفسه، طلب شكري مرة ثانية فأجابه، وقال محسن دون سلام.

- شكري،، حلمي الصباغ هنا، ومعه عامر حسبما أرى؟

- نعم أعرف، جاؤوا للتهنئة.

أخذ محسن رشفة من الكأس المذابة فيه قطعة من الثلج، قام محسن بامتصاص قطعة الثلج، ثم بصقها مرة أخرى داخل الكأس عندما شعر بلذة مضاعفة في لسانه، وارتعدت لثته:

- أنا آخر من يعلم إذن؟

- ماذا تفعل في منتصف الصالة؟

التفت محسن حول نفسه مخموراً:

- يبدو أنك تراقبني، أنت في حجرة المراقبة؟

نظر محسن ناحية أقرب كاميرا لاحظها، ثم ابتسم وأشار ناحية طاولة فوقها أربع نساء، نصفهن شقراوات، لهن بشرة بيضاء كالثلج، وناعمة كالجلد المدبوغ، ملابسهم ضيقة، وفي وجوههم ملامح واضحة على السكر والمجون:

- ماذا تفعل عندك في الصالة يا محسن؟

اعتقد شكري أن محسن سيتظاهر بالخوف، أو على الأقل سيكذب بلا ضمير، لكن الوغد محسن كان سكيرا بما لا يدع ثقب يسدد منه العقل لكمة خبيثة:

- أتناول الشراب بصحبة أربعة فتيات مثيرات كما ترى، سأسعد بتمضية السهرة بصحبتهم، ثم سأخلد إلى الفراش ومعي مومس منهن، أو ربما سأشارك الأربعة في نفس السرير، هل تحب أن تشارك يا أخي، أم ستتظاهر بالعفاف.

انهي عبارته الساخرة بضحكة مكتومة، وعجزت السمّاعة عن نقل رائحة فمه المخدر، ولسانه الذى يزداد ثقلا مع كل لحظة، أدرك شكري أن أخاه في حالة لا تسمح بالنقاش، وهو لديه شعور دائم بأن محسن هذا غبى سيفسد كل شيء.

- محسن،، من فضلك تصرف كرجل مسؤول، توقف عن هذا اللهو غير محسوب العواقب.

- يا الله، وماذا ستفعل بي لو لم أتوقف، لقد جاوزت الخامسة والعشرين وبإمكاني أن أتصرف كما أشاء، ومثلك تماما، سأحصل على متعتى الخاصة الليلة، وبلا ضمير مثلكم جميعا، ولن تمنعني عنها كما تمنعوني عن معرفة أخبار الأعمال.

تغّير وجه شكري، وتبدلت خلجاته، أراد لو يمسك برأس محسن الصغير، ويحشره في أقذر بالوعة، لكنه يعرف أن فريد لن يقبل أن يهين أحدهم الآخر، ولن يستطيع معاداة فريد أبدا، شكري كان وغدا لا يحب الخير سوى لنفسه، ودائما ما يختطف الفرص من بين أنياب أخيه الصغير، وأحيانا يقصيه عن ساحة الصالة تماما لينفرد واخويه بكل شيء، المال هو

الشيء الوحيد الذى يؤمن به، ولا يعترف كثيرا سوى بالموت لأعدائه، والحياة من أجل استنزاف الملذات بلا نهاية.

– عندما تستفيق من الخمر سنتحدث يا محسن، ولن يسُرك ما ستسمع مني، اذهب الآن وانته من سهرتك الحمراء مع المومسات الحسناوات، فغدا لن حساب.

تضاحك محسن بلا خجل، وقال بصوت يشبه الساقطات:

– هل ستمنعني؟ كلام فارغ يا حلو، صحيح كنت سأنسى، هل ينبغي أن اذهب لتحية الضيوف بنفسي؟

هذا الطلب لا يمكن لشكري أن يقبله، حتى لو كان محسن واعيا، فهو يسعى دائما لتهميش دور محسن، وهو من دفعه دفعا إلى النساء والخمر سابقا، قبل أن يتظاهر بدور الناصح الرشيد أمام فريد، وهو يتجمّل بكل صورة ممكنة أمام فريد، وهذه المقابلة ينبغي الاستفادة منها بأقصى ما يمكن، فسيلعب فيها دورا ثانويا هاما على هامش المقابلة، وربما يطلب فريد نصيحته ولو للمرة الأولى، فبرغم كل ما يظهره من ولاء، لم يستأمنه فريد على اتخاذ قرار فاصل واحد، ولم يستشره في عملية كبرى، وهذا ما يجعل شكري دائم الشك في كل شخص، وفي كل شيء، ويخشى من الدسائس التي يبرع هو نفسها في زرعها.

- لا يا محسن،، لدينا ترتيب آخر لهذه المقابلة،، وأنا لا أريد إفساد سهرتك على كل حال، استمتع بليلتك، وغدا صباحا، عندما تنتهي منهن، وتغادر سريرك الناعم، سأخبرك حينها بكل ما حدث.

تجاوز محسن عن نبرة الاستهزاء رغما عنه، فهو ليس واعيا تماما، وما بقى من عقله يطالبه بعدم إشهار العداء الواضح لأخيه الأكبر، وإلا لن يتمكن من تبرير موقفه أمام فريد، ولهذا اغلق المحادثة دون سلام،، ونظر ناحية الكاميرا مبتسما كأنه وغد، وأخرج لسانه حتى بدى ضفدعا قذرا، وقام بحركة بذيئة استخدم فيها أجزاء من يده، وبعدها عاد للترنح فخورا بفعلته، يدرك شكري أن محسن لا يعنى نصف ما يقوله في أغلب الأحيان، وفي حالة السكر فالنسبة ترتفع إلى ما يفوق هذا الرقم، لكن شكري يريد التظاهر أمام رجاله بأنه رجل المهام، فلربما بينهم من ينقل الأخبار؛ لهذا نظر شكري عن يمينه، فتقدم مساعده المختفي في الزاوية المظلمة من الغرفة، وهمس في أذنه كمن يلقى عظة، وهو وغد يحب تمثيل الأدوار الأكبر منه دوماً.

- تأكد من بقاء محسن بعيدا عن الأضواء طوال الليل، لا مجال للمصادفات اليوم، لو حدث منه شيء يعكر صفو الليلة، فحسابي سيكون معك أنت، لا وقت لديك لتضيعه.

حجرة كلاسيكية تلك التي اختارها فريد بسيوني مقرا لإدارة الملهي؛ الحيطان مزدانة باللون الرمادي الهادئ، والأرض بنّية، وفوقها سجّاد لونه أحمر داكن، وهناك بالطبع مكتب ضخم يجلس خلفه فريد بسيوني، جالسا فوق مقعد جلدي مريح، في تلك اللحظة كان فريد منشغلا بإدارة حوار مع رجل أسمر البشرة، طويل الهامة، مهيب الطلّة، شعر ذقنه الأسود مصبوغ بقليل من الحنة عند طرفه، الشخص له لهجة أعرابية، وصوت غليظ، يرتدى بذلة زيتية اللون من الحرير، مع ربطة عنق مشجّرة، وفجأة قاطع حديثهما صوت الهاتف الثابت فوق المكتب، أجاب فريد بعد أن أشار للرجل بلطف بأن ينتظر لثواني

- ماذا تريد ؟

- حلمي الصباغ قد وصل، ومعه عامر.

- في الوقت المناسب.

- ماذا يجب أن أفعل الآن، هل أدخله لك ؟

حك فريد عينه اليمنى في حركة لا إرادية.

- أذهب لتحيتهم بنفسك، لكن اتركه ينتظر.

- شيء آخر؟

- قم بعملك فقط.

بعد إغلاق الهاتف بادر الشيخ فارس بالسؤال:

- هل أخذت من وقتك الكثير يا أخي ؟

والشيخ فارس ينادى الأغراب عنه بهذه الطريقة الودودة، والتي توحى برجل شديد الاحترام، وبالفعل كان ملتزما ببعض الكلمات الراقية، التي تجعل الجميع يحترمونه ويقدّرونه، وتكسبه مزيدا من الوقار.

- بالتأكيد لا، أنت مرحّب بك في كل وقت يا شيخ، ولك كامل الوقت، نحن شركاء وأنا رجل يقدّر الرجال جيداً.

كانت محاولة من فريد لإبقاء الشيخ ولو لقليل من الوقت، لكن الرجل شديد الذكاء، فهو يعرف أن الرجل الحقيقي لا ينبغي أن ينتظر حتى ينفذ وقته، بل هو الذى يأخذ المبادرة قبل النهاية:

- الرجل منّا يجب أن يتحلى ببعض الفراسة، أنا لا أريد استنفاد طاقتنا، فقد اتفقنا على كل شيء على كل حال، أعتقد أنه قد حان وقت الذهاب.

تظاهر فريد بالمفاجأة:

- هل تمزح، ألن تقضى السهرة معي؟

- كنت أود ذلك، لكن والله أخي عدنان معي، وهو شاب لا أريد أن أجعله يعتاد السهرات، فهو لا يزال فتيا، وأخي سالم مرهق من السفر ويريد الذهاب للفندق من أجل النوم، وأنا سأرتاح أيضا، ربما نعوذها في وقت لاحق يا أخي.

بداخل فريد بسيوني رجلان، رجل سعيد بإتمام الصفقات، ورجل يرغب دوما بالمزيد، ولهذا فهو ناجح على الدوام، والان سيتفرغ للقاء غريمه المباشر، لكنه أراد أن يبقيه منتظرا في الخارج، ثم بعدها يخرج هو بصحبة الشيخ فارس، فهذا سيزيد من حطب اشتعال حلمي، وسيزيده غضبا على غضب، غيظ على غيظ، فالجميع ومنذ مدة طويلة كان محظورا عليهم التعاون مع الأعراب، وخاصة الشيخ فارس، واليوم يبغى أن يظهر جليا أن سحابة الصيف الغائمة لا تحجب شمس فريد بسيوني الممتد شعاعها بلا قيد.

انقضت ربع ساعة، ثم خرج الشيخ مباشرة بعد مصافحة حارة أمام باب المكتب، وعندما وطأتا قدماه أرض الصالة لمحته عينا حلمي الذى مال برأسه ناحية عامر، وسأله في حنق وقد بلغت درجة حرارته مثل سطح الشمس:

– الشيخ فارس هنا، وفاخر لم يطلعني على الأمر، هل يعمل في محل للحلوى، أم سأستفيق غدا لأرى فريد بسيوني قد حل محلي؟، هل ينبغي أن أشاهد كل شيء بعيني، ويرتفع ضغطي وأيضا لن أعرف ما يدبره فريد، ولا ما يدور برأسه؟؟

– سيدى، عليك الهدوء، فالآن علينا التركيز على شيء واحد.

أمسك يده:

– عليك أنت أيضا أن تقوم بعملك على أكمل وجه، انتظرني هنا ريثما أعود من مقابلة هذا الوغد، واعرف لي إلى أين ذهب الشيخ، ولماذا كان هنا اليوم، وبعدها حاول تبرير أدائك المترهل أنت وفاخر.

في تلك اللحظة تحرّك النادل، ووضع زجاجة نبيذ أحمر على الطاولة، نظر حلمي للنادل باحتقار بالغ، ثم ترك يد عامر، بعد دقيقة، أو اثنتين، جاء شكري وهمس في أذن حلمي أن فريد باشا جاهز لمقابلته، وكان شكري حريصا أن يقول كلمة " باشا " بنغمة وقورة، فوقف حلمي وتمشى معه ناحية الغرفة، وعندما وصلا إلى الباب دلف حلمي بمفرده، تحرك فريد فوق كرسيه يمينا ليفسح مجالا من أجل وقوفه، وقبل تحية ضيفه صاح لشكري:

– أرجو أنك قمت بواجبك.

فاغلق شكري الباب دون إجابة، فقط ابتسم بلا معنى، ثم اشعل سيجارة ومضى في الصالة بلا هدف.

داخل الغرفة، اقترب حلمي من المكتب، لكن قبلها قال فريد:

– حلمي باشا الصباغ عندي، هل أنا أحلم ؟، لقد شرفتني بزيارتك.

عينا حلمي في الحقيقة هما مثلا عينا ذئب، ولديه تلك النظرة الماكرة التي لو تكلمت لفاقت الرعاع نفاقا، ثم اصطنع ابتسامة لم تنجح في إخفاء

غضبه الدفين، فكيف يزور اليوم من كان والده ساقيا لا قيمة له، بل ويقدّم له التهاني على صفقة دنيئة لطالما حلم بها لنفسه:

– أشكرك يا فريد باشا، الشرف لي أيضا، أعتقد أن الزيارة قد تأخّرت كثيرا عن موعدها؛ ففي الحقيقة كان ينبغي لنا أن نتقابل منذ فترة.

تصافحا، وأشار فريد لحلمي بأن يجلس، جلس حلمي واضعا قدما فوق الأخرى، بذلته الرمادية وبطنه المنتفخ قليلا جعلاه رجلا مع مرتبة عالية من الكبرياء، وربطة عنقه الملائمة للون القميص أضفت سحر ذوقي خاصا، عيناه الواثقتان لهما سحر على كل شيء يقعان فوقه، أما فريد بسيوني فقد بدى كرجل يشغل مكانا لا يلائمه، فقد تغيّر شكله كثيرا مذ اعتلى المجد، فالآن له بطن سمين، وقامة قصيرة، شعره يأخذ في الزوال من الأمام شيئا فشيئا، يرتدى قميص أصفر اللون لم يقم بإغلاق ذّريه العلويين عمدا ليظهر من تحتهما شعر صدر كثيف، وله ذقن يتشابك فيها اللون الأبيض مع اللون الأسود بعشوائية لم يحاول تنظيمها، وهي طلّة يحاول محسن تقليدها لكن بشكل أكثر شبابية، وعلى الرغم من هذا فقد تربّع فوق كرسيه كفرس نهر قد ورث بحيرة عن والده، ولا يبالي للأسماك لأنها أقل وزنا منه، عقّب على كلمات حلمي بهدوء حذر، حتى يرسخ أن مظهره لا علاقة له بعقله بتاتاً:

– على العكس، فقد تمت المقابلة في وقتها المناسب، وفي موعدها بالضبط، تأخرت فقط ربع ساعة.

وهنا يشير إلى الوقت الذى قضاه في توديع ضيفه السابق، في إشارة واضحة لعدم المبالاة لغضب أحد من استقباله للشيخ المنبوذ.

تجاهل حلمي تلميحات مضيفه، وظل يرمق الغرفة الراقية، والمتناقضة مع هيئة صاحبها بوضوح، وسأل بفظاظة متعمدة:

– ذوق الغرفة مقبول، وقد يبدو حلو أيضا، لكن أنا لا أعتقد أن ألوانها من اختيارك، هل أنا محق ؟

لم يظهر تأثي على فريد، وعلى الأغلب هو لم يفهم الإسقاط بشكل واضح، وحتى لو فهمه فهو لا يعير تلك الملاحظات الشكلية انتباها، وربما هذا فرقاً واضحاً بين كليهما:

– نعم إنه ذوق شكري أخي، المكتب تحفة فنية تليق بي، لا ينبغي أن يقوم المرء بكل شيء، لكن عليه الاستعانة بالرجل المناسب.

نظر حلمي في عينيه مباشرة، وتبدّلت ملامح وجهه إلى ابتسامة عريضة

– بلغني خبر عنك ولم أصدقه في البداية، أقل ما يمكن قوله أنها ضربة معلم، أملاك علام السيوطي تسقط بين يديك كحبات مسبحة منفرطة، لا أخفيك سرا فقد حاولت كثيرا الحصول على تلك الصفقة، لكني أتمتع بالروح الرياضية الكافية للاعتراف بفوزك، هزيمة السيوطي النهائية باتت على مرمى حجر.

تفاجأ فريد من دخول حلمي مباشرة إلى صفحة التهاني، فقد اعتقد أنه سيناور أولا بالحديث حول شيء يضايق عائلة بسيوني، أو يمس سمعتهم؛

فالمعروف عن عائلة الصباغ العريقة، أنهم أشخاص متغطرسون، لا يحبون الخير لأحد، ويمقتون الجميع بكل فخر، حتى نبرة حلمي الملونة لم تفلح في إزالة تلك الفكرة الحقيقية عن رأس فريد، فاعتقد فريد أن تبدّل نبرة الصوت له علاقة مباشرة برؤية الشيخ، وإحساس حلمي أن خصمه يتفوق عليه بخطوات، ولهذا فعليه المبادرة بالهجوم المستتر.

- يبدو أنك لم تحاول بالقوة الكافية يا حلمي باشا.

وقبل أن يكمل حلمي الحديث، استطرد فريد مرة أخرى:

- نوّرت المكان، ماذا تريد أن تشرب ؟

- شكرا لا أريد، يجب أن أدخل في صلب الموضوع مباشرة.

يتظاهر حلمي دوما بالانشغال، ولن يسمح له فريد بالتظاهر أكثر مما يحتمل الموقف:

- حسنا، أنا أيضا ليس لدي وقت لأضيعه.

شعر حلمي بالإهانة، لكنه تجاهلها وقال:

- لقد أذهلتني ببراعتك في الحقيقة، وأكثر ما أثار إعجابي هو تكتمك الشديد في كل خطوة، لديك عقل ماكر ورجال أقوياء:

- هذا لطف منك، ماذا أيضا ؟

تمنى حلمي لو أنه شرب شيئا باردا، فقد شعر بعطش مفاجئ، لكن لا بأس، سيدخل إلى الموضوع مباشرة، حتى لا يدع مجالا للجدل:

- جئت لكى أقدّم لك عرضاً.

استراح فريد بظهره على الكرسي الجلدي، وحدّق في عينا حلمي بلا خوف، أو توتر:

- وانا جاهز لأستمع.

قال عبارته ثم جال ببصره فوق المكتب بحثا عن علبة سجائره، وعندما وجدها أشعل واحدة، وأشار بواحدة أخرى لضيفه الذى رفضها بإشارة من يسراه:

- أنا أريد أن أشترى المصنع المتبقي من أملاك علام السيوطي، وشراء قطعة الأرض الضخمة التي يمتلكها في التجمع، ولا أحتاج منك أن تضغط عليه، سأتكفل أنا بالأمر، هذا ما يتعلق بعلام السيوطي:

- وفي المقابل ؟

- مكاسبك أنها ستكون بداية للتعاون بيننا، وأنهاء كافة الخلافات، في النهاية ليس لديك المال الكافي لشراء كل أملاك علام السيوطي، لا محاربة بيننا منذ الآن ولا مشكلات، وسأسهّل عليك التعامل مع الرجل الأول، حاتم عزام.

حك سعيد شعيرات ذقنه، حيث كان يتوقع صفقة أكبر، بالطبع أسم حاتم عزام شيء كبير، لكنه لا يكفي لتسوية صفقة بالملايين، زفر سعيد دخان سيجاره بعصبية:

- أعتقد أن العرض فاشل، وأنا لست ساذجا لقبوله، حاتم عزام سأتمكن من التعامل معه بمفردي ودون الحاجة إليك، أما بخصوص

الأموال غير الكافية لشراء أملاك علام السيوطي فلن أجيبك، لكن يبدو أنك أقل ذكاء مما كنت أتصور، على كل حال فقد تمت الصفقة بنصف الثمن، وهذا ما لم يخبرك به رجالك، والسيوطي الآن لا يستطيع الحراك ولا الكلام ليؤكد لك هذه المعلومة.

بدأ الشك يتسرب إلى قلب حلمي، فهو لم يعد يثق بقدرات رجاله مثل السابق:

– ماذا تعنى بأنه لا يستطيع الحركة، أو الكلام.

نظر فريد للسقف وكأنه يصلى، ثم قال بصوت كأنما يتضرع:

– لقد صار كسيحا، دلف غرفة ولده الوحيد ليجده ميتا، جرعة زائدة من المخدرات قد أودت بحياة نجله، فلم يتحمل الرجل الكبير الصدمة، لقد طلبوا طبيبا خاصا في البداية، لكنهم قد نقوله إلى مشفي بعدها بساعتها لخطورة الحالة، وهذا في سرية تامة بالطبع، وأعتقد أن رجالك كانوا نيام حينها، وقد عقدت صفقة الحصول على المصنع منذ ليلة أمس.

تقبّل حلمي هذا الكم المكدس من وابل الإهانات الممطرة، وأدرك أن قلة معلوماته قد وضعته في خانة غبى مع مرتبة الشرف، لكنه لن يخسر كبرياءه أبداً.

– أنت يا ابن الساقي لن تقدر على مجاراتي، حتى فوزك على السيوطي لن يجعل منك ندا لي، لا تعتقد أنك أخفتني بنبرة صوتك الواثقة التي تمرنت عليها طوال الليل في فراشك الدنس، فقد تعلمت أنا العمل من والدى،

بينما كان والدك يشحذ لكم ثمن حاجيات الحياة، ويرقّع لك سروالك، سأزيد عرضي من المال فقط لأني أهتم بالحصول على الصفقة أنهاء المجادلات بيننا، وستقبل بمشاركتي لأنك لا تقدر على مجاراتي.

انهي حلمي كلماته وهو يحدج بشدة، ويحملق في عيني فريد نصف المفتوحتين، ثم تضاحك فريد بشكل مبالغ فيه كضبع لعين، ووضع يد فوق المكتب، ومن فوقها يده الأخرى بعد أن أسقط سيجاره في منفضة السجائر

– آسف لكني، لم أستطع كتم ضحكاتي، وعلى الأغلب لم استمع للجزء الأخير من تهديدك الهزلى بشكل واضح، فقد كان أداؤك مملا ولم أحتمل، أعتقد أنك الآن صرت مثيرا للضحك، وللتقيؤ أيضا، فهذا الكلام محله الوحيد هو في أنابيب الصرف، لكن لن أتقي على سجّاد غرفتي الثمين، هل تعرف كم دفعت ثمنا من أجل شراءه، هو أغلى من كل ما ترتديه، وأنا أخطو فوقه بقدمي كل يوم.

لقد بلغ الشرر بينهما أشده، ونظر حلمي لفريد شذرا، حيث أفلح الأخير في رفع ضغط دم الأول إلى مستوى قياسي، وقف حلمي وضرب المكتب بقبضته المغلقة، وقال محاولا الحفاظ على نبرته الوقورة.

– أُقسم أنك ستندم يا فريد، لقد جئتك بالصلح، لكنك رفضت، يبدو أني كنت مخطئا بمقابلة شخص من مستوى وضيع، فماذا كنت أنتظر من صرصور مجارير مثلك؟

لم يبدّل فريد من جلسته، ولم ترتعش فيه شعرة واحدة، وقال واثقاً:

- احفظ أدبك، على كل حال أنت ضيفي، لكن أعتقد أن المقابلة قد انتهت.

- المعركة لم تبدأ بعد، سأجعلك تخسر كل قرش جمعته، وسأعيدك مرة أخرى لتسكن الشقوق كأمثالك من المشردين، ستلتهم الهواء من الجوع، وستصرخ طلبا للنجدة دون جواب.

ضحك فريد لكن بشكل متقطع هذه المرة، ضحكات ممزوجة بسعال أنهاه بمنديل تمخط فيه بلا أدب:

- تهديداتك بمستوى هزيل، بالمناسبة لقد سمعت عن وفاة مديرة مكتبك، وقد نسيت التعزية، البقاء لله، حافظ على عائلتك جيدا، والمرة القادمة يجب أن تتحمل نتيجة ألفاظك يا حلمي باشا، لكن سأسامحك هذه المرة، وداعا يا حلمي.

لم يمد فريد يده من أجل المصافحة، فقط تحرك بكرسيه لينظر ناحية الحائط الجانبي المعلقة فوقه لوحة مقلّدة لمنزل ما، وترك ضيفه أثيرا للمفاجئة الصاخبة، والصمت الحائر، خرج حلمي من المكتب وقد بدت الدنيا أضيق من ذي قبل، والهواء أثقل على النفس، أشار لعامر من بعيد فتبعه إلى الخارج، وكان كل ما في باله هو أنه عليه مقابلة حاتم عزام في أقرب فرصة، وعندما ركبا السيارة مرة أخرى، طلب حلمي من عامر أن

يتأكد من خبر علام السيوطي، وعندما تأكّد أستشاط حلمي غضبا وصرخ في عامر قائلاً:

- أريد إجابات حول التقصير في أقرب وقت يا عامر، عليك أن تتحلى بالسرعة هذه المرة فلم يعد الوقت مناسبا للتقاعس، اخشى أن الخطر يحدق بالجميع.

شقت السيارة طريقها في الليل، وكان نصف القمر فقط في السماء السوداء المرتبكة بالرياح المتناقضة، ولم يشق طائر واحد قلب السماء الخالي، وبقى الصمت يعشش على النجمات الوحيدات في الفراغ المديد.

وفي غرفة فريد بسيوني كان شكري يثير زوبعة من الأسئلة بلا ترتيب، بينما يحرّك فريد أصابعه فوق مسبحته الخشبية العتيقة، وصاح شكري:

- أنا لا افهم، كنت أعتقد أن اليوم هو الفرصة المناسبة لعقد صفقة تريحنا لفترة طويلة، سلام يدوم لسنوات، لماذا أغضبت الرجل، لا يمكنني أن أتخيل إضاعتنا لهذه الفرصة، هل تعرف ماذا تعنى معرفة حاتم عزام لنا، وفي النهاية فإن المصنع وقطعة الأرض لا يساويان الكثير.

لامس فريد حبات مسبحته المفضلة، فكم يحب ملمسها الناعم على جلده، وقال هو ينظر لرماد منفضة سجائره:

- و؟

لم يتمالك شكري أعصابه، وارتفع صوته دون قصد:

- ماذا أيضا، هل تسخر منى ؟

وضع فريد يده اليسرى أسفل ذقنه، وداعب شعيراتها مطولاً:

- بالتأكيد أسخر منك، هذا واضح.

نظر شكري ناحية السقف عندما أدرك أنه قد تجاوز السياج بينه وبين الأسد، أخذ نفسا عميقا، ثم بعدها أشار له فريد بالجلوس، فجلس دون رفض، قام فريد بإشعال سيجار جديد، ونظر إلى أخاه بعتاب سافر، فهو يكره الغباء الممتزج بالغضب، كما يكره إلقاء التعليمات على أخوته دوماً،

لكنه مضطر لهذا فهم أقل ذكاء منه، ولن يدع له الفرصة الكاملة حتى لا يضيّعوا تعبه الطويل.

– قلت لك غير مرة أن تهدأ، التفكير بعصبية لا يجلب غير المشكلات، وأنا أكره تكرار كلماتي.

اندفع شكري كقطار:

– والمعركة التي أشعلتها منذ قليل، هل كنت هادئا وأنت تشعلها؟ الفرصة الذهبية لدخول قصر حاتم عزام التي ضاعت، حلمي الصباغ هو الرجل الأقرب للشيطان الأعظم وأنت أغضبته، سأجن يا فريد، رفع فريد سماعة الهاتف أمامه وقال للخادمة الشخصية:

– أريد كأسين ليمون.

من ثم أغلق الهاتف، وأخرج سيجارا عرضه على شكري فرفض، تشكّلت على وجه شكري قسمات هي مزيج من الغيظ، والكبت، تجمّع ماء في فمه فخشى بصقه على السجّاد خشية غضب أخيه، ففريد يكره كل من يلوّث ممتلكاته، ويعتبرها إهانة شخصية له؛ فقام شكري بابتلاع السائل في فمه، على الرغم من مرارته، بادر فريد:

– هل هدأت الآن، هل أنت جاهز لتستمع؟

سكت شكري وهو مغتاظ، فأكمل فريد:

– إذا دخلنا القصر بهذه الصفقة فسندخله بوساطة، ودون دعوة مباشرة من حاتم عزام نفسه، وساعتها سنرسخ لمبدأ أننا رجال من الدرجة

الثانية، ونتعامل مع الرجل الأكبر من خلف ستار حلمي الصباغ، سنتحول من رجال يخشونهم إلى رعاع وصعاليك ينتظرون منهم الموافقة على طلباتهم برجاء وخوف، سيملون علينا شروطهم كأنهم أسيادنا.

انخفض توتر شكري، وبدأ ينصت بإتقان، لم يكن ليعتقد أن ما حدث كان صائبا، لكنه الآن أدرك كم كان مغفلا، ساد الصمت لثواني عندما طرقت الخادمة السوداء الباب، أمرها فريد بالدخول وهي واحدة من أشخاص قليلون يمكن لفريد أن يثق فيهم، تحركت في خفة ووضعت الأكواب فوق الطاولة، وخرجت في هدوءها المعتاد نفسه، أمسك فريد كوب الليمون وناوله لشكري، فشربه على دفعتين لأن الماء كان باردا مثل الثلج، وارتشف فريد قليلا منه ثم وضع الكوب أمامه واستأنف الحديث:

– إذا ما وافقت على العرض، فكنا سنصبح خدم، لكن اليوم وبعدما لقّنت ذلك المتغطرس درسا لن تمحى آثاره من فوق جلده الثمين، فقد أغلقت بوابة تسوّل الرضا منهم وإلى الأبد، اليوم فقط أصبحنا مثلهم فعلا، نتقبل الوعيد دون خوف، ونبادلهم السباب دون ذرة تردد.

إنها ملاعيب الشياطين، حسابات تختلف عن حسابات بقية البشر؛ فهؤلاء لا يفكرون في اغتنام لقمة العيش، ولا يريدون السير على الرصيف الموازي للخوف، وعلى حيد طريق الظلم المقنن، هم لا يأكلون الخبر المعجون بطحين القهر، والمغمس بالجبن، بل يأكلون اللحم، حيا، ونيا دون غضاضة، نطق شكري بعد أن فهم:

- أنت على صواب، أعذر غضبتي.

فريد لا ينسى شيئا وهذه صفة يعتبرها الأفضل فيه، خاصة عندما يعامله أحدهم بطريقة لا تليق، ولو كان أخاه، لكنه يرخى حباله عندما لا يساهم التساهل معهم في المساس بصورته كزعيم عليهم.

- لا بأس عليك، لكن عليك أن تثق في شخصي أكثر، أعرف أنه لا أحد فوق الخطأ، لكن ينبغي أن تهدأ لحين معرفة الهدف الحقيقي من القرار، ثم بعدها تبدأ في التفكير، لكن بهدوء وبلا عصبية، وصدقني، سندخل ذلك القصر في مهابة، سأجعل هاماتنا في ارتفاع الجبال، ولن يجرؤ أحد على التقليل من قدرنا مرة أخرى، فقط علينا أن نسير بلا خوف بمزيد من الصبر والثقة.

ثم سكت فريد ونظر لشكري بإمعان، هو يعرف أن شكري ليس صافي النوايا، لكنه أخاه على كل حال، وإسلام بعيد عن هنا ولو لبعض الوقت، ولهذا فعليه أن يتدبر الأمور برويّة، ودون مبالغة، نظر فريد للسقف وهو يتخيل صورة محسن وجوارها صورة والده، وهما شبيهان إلى حد بعيد؛ في الشكل والصوت، وخاصة الطباع، وقد حكى له شكري ما جرى في الصالة بطريقته الماكرة، لكن فريد ذكى بما يكفي ليبصر الضغائن والطمع في عين شكري، فعلى الرغم من حصوله على نسبة كبيرة للغاية في شركات علام السيوطي ودون تضحية مثل التي قام بها محسن، إلا أنه لا يتورع عن

الدس للصغير بشكل مقزز، ينم عن نفس مريضة، وعقل موحل بالشر، ثم دار بينهما نقاش طويل حول زوجة محسن، وهي قريبة علام السيوطي.

عندما عاد فريد إلى منزله في ذلك اليوم، ظلت عبارة شكري تتردد في رأسه " علينا أن نأمن مكر زوجة شكري، أعتقد أن عليه أن يطلقها ويحصل على الولد منها رغما عنها "، يوم تزوج محسن تلك الفتاة ربما لم يكن يحبها، لكن فريد يعرف أنه الآن متعلق بها، وربما غضبها منه هو سبب انفراط عقله، واندفاعه نحو ملذاته بوحشية، اعتزم فريد أن يحادث أخاه في اليوم التالي ليجد حلا لتلك الشكوك المتصاعدة بين الزوجين، لكن دون إثارة المشكلات، لكن هل سيأمن محسن لها بعد كل ما جرى بين العائلتين؟ يجب الوصول إلى صياغة عادلة للطرفين، ولن يحتمل فريد أن يحرم أم من ابنتها مهما حدث، فحتى عندما صار غولا، لم تتبدل مشاعره نحو الأبرياء، وهو يعتقد أنها بريئة حتى آخر قطرة دم في عروقها، فهي مثل زوجته، لا علاقة لها بالعمل، ولا تريد سوى زوج يقدّرها ويحترمها، وأولاد يحبونها، لكن في النهاية فالحياة سجال لا هوادة فيه، وصراع نفسى لا نهاية له.

الفصل السابع

عندما دلفت عايدة سعد فيلا علام السيوطي كزوجة له، تخيلت أنها خطت أبواب الجنة؛ فزوجها الثرى يعد بالراحة، والسعادة مدفوعة الأجر، وفي زيارتها الأولى لمنزل والدها بعد إتمام الزيجة، كانت تحمل سلة ملئ بالحلوى عن آخرها، وعقد ذهبي له تميمة على شكل مصحف، وسوار ذهبي سميك يزيّن يدها، حين شاهدها والدها أدرك أنه قد وقى عائلته الفقر لقرنين من الآن على أقل تقدير، واليوم ها هي تجلس هناك في الرواق الأبيض الطويل للمشفى الخاص، تنتظر خبر وفاة زوجها في كل لحظة، وهذا بعد أن فقدت ولدها الأول نتيجة جرعة مخدرات زائدة، لكنها على الرغم من الضغوط كافتها لا تزال قوية، تأمر رجالها بإحاطة غرفة زوجها تحسبا لمحاولة التشفي منه، أو تسلل الصحافة، ولو كتبت له النجاة فستحميه الحراسة من محاولة قتله، نعم قتله، اليوم تتحدث عن القتل والانتقام كأخبار الصباح المكررة في الجرائد المهترئة بالأكاذيب، وكطلوع الشمس الطبيعي، ولن تفكر في النواح ما دام المجرمون طلقاء، لن تنسى أبدا مشهد الأمس، مشهد دخولها إلى غرفة ولدها حيث كان ممددا على سريره مترامي الأطراف كورقة لا تقاوم الهواء، وفمه مفتوح يتساقط منه بياض لزج، أما الوالد فكان ساقطا على الأرض في غيبوبة سكّري حادة،

والمؤلم أنه سقط دون صراخ، ودون دوي، لقد شاهد نهاية ولده إحسان، وتزلزلت خلجاته في صمت هدم كل ما فيه من كبرياء، فبينما هو الآن في سن الستين، يشاهد ولده أمام عينيه يموت وهو لا زال في العشرين من العمر، لقد انكسر كشجرة عجوز جذرها سقيم، وخلال أيام ستسرى عقود البيع أيضا، لقد خسرت عايدة كل ما حلمت به؛ عائلتها، زوجها، والطمأنينة، فلم يبق لها سوى المال الكافي للحياة الرغدة لكن دون كرامة، وبلاء كبرياء، فلماذا أذن تعيش؟ ولمن تعيش وهي منكسرة.

مضت دقائق مرّت عليها أجزاء من حياتها التي فقدتها وإلى الأبد، ثم دلفت غرفة العناية رغم رفض الأطباء الدائم، تكره برودة الغرفة، وهدوء الأروقة البشع، ونصوع الأبيض الساطع، الذى يسطو بفراغه على كل بقعة من المكان، كل شيء هنا يبدو لها مخيفا، في الخارج لم تجد ما تنظر إليه سوى بعض نباتات الظل الكئيبة، وهنا لا يوجد ما يسحب أنفاسها سوى زوجها الصامت حتى الحساب، تذكّرت والدها المتوفي منذ أعوام، المكان له الرائحة الجامدة نفسها؛ رائحة الموت الخالي من المتعة، ورائحة غرفة العمليّات المخدرة للأعصاب، وحدها البرودة في المشفى تجلب لك شعورا غريبا، ومتناقضا في مضمونه في أغلب الأحيان، فهنا الولادة، وهنا الموت، فهنا قد يبدأ مؤشر عمر في العد، وقد ينتهي العمر الافتراضي لواحد آخر في الحجرة المجاورة، وقد ترفض الأطفال الوليدة الحياة الكبيرة الواسعة فتزهو نفسها، وتعلو إلى السماء في كبرياء، وقد تنتظر الأرواح العجزة ملاك الموت

في أرذل العمر، تلفتت حولها كمن يبحث عما ينقصه، وكطفل أربكته المفاجأة، ثم توجهت إلى سرير زوجها، واستمعت في إتقان إلى صوت الأجهزة الطبية تسجّل أرقاما، وتمحو أخرى، ثم صوت جهاز نبضات القلب يدق في روتين سمج، ابنها قد غادر الحياة، وتشعر به يبتسم لوالده في مكان ما في الغرفة، فاتحا ذراعيه في ذهول، والأب صامت بلا أسئلة أو إجابات،" هل ستفقد ولدها وزوجها في أسبوع واحد "؟

ظلت الفكرة تطرق رأسها حتى استسلمت أخيرا، فدمعت، نظرت حولها مرة أخرى، وفي كل مرة تسقط نظراتها على الفراغ كأنها المرة الأولى، تنظر مرة أخرى حتى تتأكد ألا يراها أحد في هذه الصورة، هي لا تريد لأحد أن يدرك حقيقة أن أسرة السيوطي قد انكسرت، تريد إخفاء حزنها لو تقدر لكنها غالبا ما تفشل، ولهذا تحرص أن يكون فشلها هذا بعيدا عن الأعين، وأمام عينيها لا توجد صورة أبلغ من النيران التي تأكل الورق، الانتقام فقط يُغزى تلك النار أبدية الوجود، شفتا زوجها باتتا خاليتان من الدماء تماما، بشرته أقرب إلى التيبّس، تابعت رسم القلب ووجدته لا يزال يعمل بوهن، أرادت الإمساك بيد علام، لتلمسه، لتحادثه، ولتشكو له، وربما تشاركه الألم كما يقتسمان الأحزان ويتشاطران ألم الموت، لكنها دوما ما تخشى أن تلمس المرضى، ليس خوفا من عدوى غير موجودة، لكنها حُمّى هاجسها الدائم أن ملك الموت يجلس في غرفتهم، متربصا، ومنتظرا للوقت المناسب ليفتك بآخر أمل لذويهم، وهو يعرف جيدا من داخله أن فعلته

خير، ولن تجلب مشيئة الرب في عمله شرا أبدا، دائما ما تذكّرها قشعريرة الأطراف في البرد بملك الموت، ولهذا ربما ظلت تخشى الشتاء في صغرها ولفترة طويلة، والآن هي تشعر بتلك البرودة الغامضة تقف أسفل قدمي زوجها، تماما إلى جوارها حيث تقف، ينظر إلى روح علام مباشرة، ربما يدخن سيجارا، أو أن من أسفل عباءته هناك غبار داكن، وربما أيضا يقضم تفاحة حمراء، أو حتى صفراء، أو ربما يقشّر حبة برتقال لم تنضج بعد، ثم يزدرد فصوصها الصغيرة بأسنانه الصفراء، لم تستطع عايدة مع كل تلك الأفكار التي اقتحمتها كموسم مفاجئ أن تقاوم فكرة الخروج من الغرفة.

عندما خرجت من الغرفة، وجدت الحارس يتناول شطيرة بنهم، وآخران يتبادلان حديثا حول مباراة كرة القدم التي جرت بالأمس، ويتضاحكان في الخفاء، توجّهت ناحيتهم بوجه عابس يتمنى اقتلاعهم من الحياة فامتنعوا عن النطق تماما، رمقتهم بنظرة احتقار شديدة، وشعر أحدهم بالحكة في مؤخرة رأسه، لكنه أمتنع عن الحركة، بعدها نزلت إلى المآرب واستقلت سيارتها السوداء الألمانية المنشأ، والتي اشتراها زوجها قبل عام من الأن، ولم تستطع مقاومة فكرة الانتقام التي ملأت عقلها بل وكيانها كله، هي لم تكن تعرف الكثير عن عمل زوجها، فدائما ما كان كتوما، لكنها تذكر أن أكبر مشكلة حدثت له كان لها علاقة بأبنه أخيه، التي تزوجت في ظروف غامضة لم تتسن لها فرصة معرفتها، واليوم سمعت في كلام داوود المحامي أن ثروة زوجها قد تقلصت، نتيجة أعمال تصفية أعماله، وبيعه

الشركات التي كان يمتلكها إلى شكري بسيوني، ولكن داوود لم يذكر أبدا أن تلك الصفقة كانت معيبة، ولم يقل ولو عبارة واحدة تنسج عليها خيوطا، وترسم بها وجه غريمها الذى دمر حياتها، لكنها عزت ذلك إلى أن داوود لا يعرف بعد ما هو مصير علام السيوطي، ولهذا يجاهد في إخفاء كل شيء عنها _ كما يفعل دوما _ وبحججه المنطقية له والواهية لها، وعندما وصلت إلى المنزل خلص عقلها إلى أن داوود هو المفتاح لكل الألغاز التي تحيّرها، وبه ستكشف الستار عن الحقيقي في مصيبتها الكبرى.

وفي صباح اليوم التالي، وردتها الأخبار التي توقعت سماعها على غير ما ترغب، فقد ساءت صحة علام، وقد يفارق الحياة خلال ساعات، وبعدها بقليل زارها داوود في الفيلا التي تقطن فيها حاليا بمفردها بعد وفاة ولدها، وهجرة ابنتها الأخرى مع زوجها إلى كندا، وبالطبع وفاة والديها منذ فترة طويلة تعجز عن تذكّرها، ودلف داوود في صلب الحديث مباشرة، واستجلب لها كافة الوثائق القانونية التي سترث بها زوجها، حيث زوّر أوراق تفيد بعودة الأرباح الناجمة عن بيع الشركات إلى السيدة عايدة، هي تكره داوود، لكن الكراهية والحب لا شأن لهما بالعمل، ولا يضيفان شيئا من الاحترام الذى يتمتع به داوود، حيث يقوم بعمله على أكمل وجه، وبحرفية تامة.

لم يباطلها داوود كثيرا، وسعى لكسب ودّها عن طريق فتح خزية الأسرار بصدر رحب، فأدركت السيدة من هو الشخص الذى عليها أن تثق به، ومن هو الرجل الذى تنتقم منه، وبينما جلس داوود شابك اليدين، أسفل الإضاءة البيضاء القوية للسقيفة، والتي لمعت على أثرها صلعته الكاملة، قالت كلمتها الحاسمة " ما رأيك بنسبة هائلة من المال على شرط أن تساعدني في الانتقام " وكانت جملتها صريحة بأكثر مما توقع، ونواياها معقودة العزم على قرارها منذ الأمس، وليس للتراجع منفذ واحد يعبر منه إلى قلبها القاسي، وافقها مرغما، وهي ظلت تنظر إلى عينيه الداكنتين طوال الوقت، لأنها ظنت أنها الطريقة المثلى لمعرفة مقدار صدقه، وقبل انتهاء اللقاء طلبت منه تحضير قائمة بالرجال الذين يمكن لها أن تثق فيهم، وعندما غادر داوود المنزل ظلت مستيقظة طوال الليل، وفي اليوم التالي أعلنت خبر وفاة زوجها، وأقامت عزاءا مهيبا في المنزل، وحضره محسن بسيوني مرغما بعد مجادلة مع أخوته انتهت إلى إجباره على الذهاب هو وزوجته " لبنى " إلى العزاء، وظل جالسا في خجل، يعتقد أن الجميع ينظرون إليه حتى، فازداد توتره، وأشعل خمس سجائر يطفئ كل منها عندما يبلغ منتصفها فقط، حتى كاد يفقد أعصابه، وعندما صافح السيدة عايدة سألته بوضوح:

– ماذا تريدون أكثر، لقد حصلتم على كل شيء، هل أنت سعيد الآن ؟

يومها خرج من العزاء دون إجابة يطارد وجهه في الطرقات، وذهب إلى الملهى، وعندما عاد إلى المنزل كانت لبنى تجهّز حقيبتها، لتغادر إلى بيت

والدها، وعندما حاول منعها بكت، سألها عن أبنته وقبل أن يشرع بتهديدها قالت بصوت مبحوح وممتزج بالدمع:

– لقد تركت مرة ابنتنا مع المربية في المنزل، ليس لأني لا أحبها، لكن لأني أخشى أن تحاول قتلى وهي معي.

كانت العبارة كفيلة بأن يغلق محسن فمه، وأن يستفق من تأثير النبيذ، وظل في منزله يومان، لا يخرج، ولا يجيب اتصالات أحد، انتظر عودة لبنى، لكنها لم تعد، وظل مشتتا بين تلك الأشياء التي ينتظرها، وتلك الأشياء التي لا تريده، وعندما فقد الأمل في نفسه، وفي كل شيء، قرر الذهاب إلى فريد دون مقدمات، ولّما وصل إلى الملهي نسى كل شيء، واستغرق في اللهو، جعل يحتسي الشراب كأن الشمس لن تشرق غدا، وعندما لاحظ وجها مألوفا يدلف إلى حجرة فريد، ذهب إلى الحجرة مترنحا، فمنعه شكري من الدخول بشكل فج، وعندما سأل عن الضيف الذى يعتقد محسن في داخله أنه رجل يعرفه، وشاهده مسبقا لكنّه لا يذكر أسمه، أجابه شكري:

– هذه المقابلة ليست من شأنك.

إجابة شكري الحادة ضايقت محسن حتى شعر أنه ليس أخيهم، وتمنى وجود إسلام لكنه لا يزال متغيبا بلا سبب كأنه نقطة في بحر، صاح محسن فيهم، وتشابك بالأيدي مع شكري، حتى فتح فريد الباب، وأمسك بمحسن، شدّه إلى الداخل، ثم أغلق الباب، شعر شكري بالإهانة، لأن

فريد لم يستمع له، ولم يطلب منه الدخول، فصرخ في الحرّاس ليفرّج عن نفسه.

- إلى من تنظرون، فلتعودوا إلى عملكم.

وداخل الغرفة، أجلس فريد أخاه على كرسي مقابل للضيف، وهمس في أذنه:

- أقسم يا محسن لو تدخلت، فأني سأنسى أننا أخوة، ولن ينجدك إسلام من قبضتي الآن.

ثم عاد سعيد ليجلس على كرسيه، وأشعل سيجارا ببطء متعمد، اخذ نفسا عميقا ثم أشار لضيفه وهو يقول:

- تكلّم يا أستاذ داوود.

تنهد داوود، وتناسى التوتر المشحونة به أرجاء الغرفة، وقال:

- لقد عرفت في الفترة الماضية ما يخصكم، وأنا هنا لأمنع كارثة قد تحل بكم لا قدّر الله،، لكن لهذه المعلومات ثمنها.

يكره فريد الإطالة، ويعشق الاختصار المفيد، فهو يعرف ما في الديباجات من أكاذيب، وكلام معسول لا فائدة منه ولا طائل:

- قل ما لديك، ولك ما سألت.

بسط فريد الريح أمام داوود، ليدلي بما لديه كاملا، فاندفعت الكلمات من فم داوود:

- خلال أسبوع وفاة علام باشا، أخبرتني السيدة عايدة أنها تريد الانتقام، وبالطبع فقد عارضتها لكنّها أصرّت على ما تريد، فسايرتها حتى عرفت أنها قد جهّزت خطة للانتقام، وبمشاركة لبنى هانم زوجة محسن باشا.

نظر داوود مبتسما إلى محسن المصعوق بما سمع ولا زال يفعل، ثم رفع داوود نظارته التي انزلقت عن عظمة أنفه نزولا إلى أرنبتها، ثم عاود الغزل على خيوط القربان، الذى سيتضرع به إلى سيده الجديد :

- لقد دبروا مكيدة لقتل مسحن باشا بعد ثلاثة أيام من الآن، وهو يوم الأربعاء، فستقوم لبنى هانم بدس السم للباشا في طعام الغداء.

زال الكحول من دم محسن دفعة واحدة من هول ما يسمع، ولأنه يثق في لبنى ويأمن جانبها، وانتفض يدافع عن زوجته المصون ثائراً.

- لقد انكشف كذبك يا لعين.

جحظت عينا فريد بشكل عفوي، وأشار لأخيه بإشارة مفادها أن أسكت، وفريد لديه طابع محقق، يستمع كثيرا، ولا يعقّب سوى في نهاية الحديث، ولا يشارك الآخرين بما لديه من هواجس، أو شكوك، ولا يفرط بإعطاء الثقة، ولا تصديق أحدهم دون دليل دامغ، لكنه في كافة الأحوال يأخذ حذره التام، وقال لداوود:

- قل ما لديك.

أقترب داوود برأسه من مكتب فريد، وهو يعرف أن كلامه إلى الآن يفتقر إلى دليل، وعليه أن يظهره الآن قبل أن يفقد فرصته إلى الأبد.

– أعرف أن محسن باشا لن يصدقني، لأن لبنى هانم عند والدها، لكن يمكنكم أن تتأكدوا من زيارة عايدة هانم لها هناك، وزيادة على ذلك فأن عودتها إلى المنزل قبل الأربعاء، أو في نهاره، ستكون دليلا واضحا على صدق ما أقول، وأيضا فأن عايدة هانم ستقوم باتصال هاتفي لفريد باشا غدا، تطلب فيه لقاءا خاصا في يوم الأربعاء، لتبرهن على صدق نواياها.

انتبه فريد، وظل مثبتا عيناه على داوود وهو يتابع حركة جسده التي لا توحى بالتوتر، أو الشك، ثم نظر داوود إلى فريد وأكمل:

– وفي تلك الزيارة ستجد طريقة لقتلك يا باشا، حتى لو ماتت معك هي أيضا، وأنت تعرف أن السيدات مجانين، ولديهن عقل معقد.

محسن بقى مصعوقا بالصمت، فقد قطع داوود كل الشكوك وتركهما للتساؤلات تأكلهما بشراهة كوحش لا تفاصيل له، ثم قال ببرود الواثق:

– عندما تتأكدوا مما أقول، سأكون في الخدمة، وعندها ستقدّرون قيمتي الحقيقية، وعندها يا فريد باشا سأكون في خدمتكم.

ازدحم دماغ فريد، وأشار لداوود أن يرحل الآن، فخرج من البوابة دون أن ينظر إلى أحد منهما، ودفع الباب دون أن يفتحه تماما ثم رحل وأغلق خلفه بابا للحقيقة، وفتح في رأسيهما ألف باب من الشك، فريد نفسه كان متفاجئا، ليس لشيء إلا لأن لبنى ليست خائنة، هو خبير في

النساء جيدا، ويعرف أنها ليست قاتلة، لكن لم تعد الحقائق مثل الماضي، والحياة لم تعد ببساطتها السابقة، نظر إلى أخاه الذى ثار غاضبا، وقد أعتقد أن تلك مؤامرة منهم لقتل زوجته، وقال وهو يطرق المكتب بشدة حتى أوجعته عظام أصابعه.

– لعبتك اللعينة لن تفلح هذه المرة، لن تقتل زوجتي، هذا كله كذب وأنا لست معتوها حتى أصدّق هذا الهزال.

راعى فريد حالة أخاه، واحتضنه ربما لأول مرة منذ سنوات، أخذه في صدره وهو لا يعرف من مهما مطعون أكثر، فريد مطعون لأنه جعل أخاه في مرمى النيران، أشركه في تلك اللعبة بشكل قذر أفسده، ودمّر أعصابه، فهو مصاب في أخيه الصغير، أخذ محسن يبكِ وهو يعرف أن يوم الأربعاء سيأتي ليفضح كل شيء، وربما ليهدم كل شيء، لهذا أخبره فريد بكل صدق.

– أعدك لو أن داوود هذا كاذب، فأني سأقطعه قطعا صغيرة ألقيها للكلاب، ولو كان صادقا فسأدع القرار بشأن زوجتك في يديك، ولو شئت أن تسامحها فلن أتدخل.

كانت كلمات فريد صادقة بشكل لا يقبل الشك، لكن عندما أدركت الروح أنه لا مجال للثقة في أحد، سيخسر زوجته لو خانته، هي ربما ستفقد حياتها لو عاقبها، لكنه سيفقد حياته أيضا، وفي نفس اللحظة التي سيعاقبها، ولو سامحها فلن يرجع إليها مرة أخرى، وفي الحالتين فهو خاسر، وهي خاسرة، تمنى لو أن داوود كاذب، لكن الأربعاء قد جاء صادقا،

ومصدقّا، لقد طالبت عايدة هانم باللقاء المزمع، ووصلت لبنى إلى المنزل في صبيحة يوم الأربعاء، عندما فتح لها محسن الباب كان جامدا كلوح من الثلج، ضمّته، قبّلته، بينما كان عاجزا عن التصديق، كان يرفض أن يصدّق عبارة شكري " إن نصل الحب هو نصل الحياة والموت"، فبالرغم التي تهدى الحب، يمكن أن يصبح الموت أكثر فتكا، وفي النهاية يبدو الحب أقرب إلى لزوعة الخمر، الموت أقرب إلى مرارتها.

وعلى الغداء، أصرّت لبنى أن يأكل محسن بصحبتها، جلس على الطاولة ينتظر مجيئها وهو ممسك بالمسدس، يده ترتعشان، كانت تحمل أطباق الطعام، بينما يضيف الرصاصات إلى خزانة الموت، لكنه لم يقدر أن يبادرها بالغدر، كاد يبكى، وأراد لو يتأكد لآخر مرة، وضع المسدس في جيب منامته المنزلية بعد أن قام بتركيب كاتم الصوت، وذهب إلى غرفة النوم حيث وضعت حقيبتها، وفتّش فيها كما طلب منه داوود أن يفعل، فوجد علبة السم ملفوفة في رداء النوم، وقف ثم توجّه إلى المطبخ ، وقال:

- سأساعدك في إعداد الطعام.

فارتبكت، لكنها ابتسمت ابتسامة مضيئة، ابتسامة كانت قديما تعنى أنها رائقة البال، لكنه اليوم يعجز عن فهمها، عن تفسيرها، يعجز تماما كعجزه عن فهم نفسه، هو ليس خبيرا في القتل، ففي الحقيقة هو لم يطلق الرصاص كثيرا، لكنه يعرف كيف يقوم بإتمام المهمة، يتأثر بالموت كثيرا على خلاف أخوته، لكنه في النهاية ينجح، وعندما كانت تلتفت إليه، وهي تحمل

صحن البازلاء المطبوخة، قام بوضع المسدس على صدرها المريح، وضغط الزناد، تناثرت دماءها على منامته، ونظرت له ببراءة لم يعد يفهمها، ثم سقطت على الأرض وخمدت إلى الأبد.

عندما وصل الخبر إلى فريد، لم يصدّق، فلم تكن هذه هي الخطة الملائمة لقتلها، فأصابع الاتهام كلها تشير إلى محسن، وبمنتهي الوضوح، حادثه عبر الهاتف وعنّفه، فأغمى عليه، ظنّه فريد قد أغلق الهاتف فطلب من شكري أن يذهب إليه ليأخذه من هناك ويخفيه بعيدا، وعندما وصلوا قد وجدوه على حافة الموت، حيث سقط على طرف الكومودور وسالت دماءه، طلب شكري فريد ليسأله عما يفعل، فقال له أن يتصل بالشرطة وهو سوف يتصرف، وكان هذا بعد ثلاث ساعات من حدون الجريمة، طلبوا طبيبهم الخاص، ونقلوا محسن إلى شقة في شبرا، لا يعرف أحد عنها شيئا، حيث يمكن إخفاءه وسط الزحام.

وفي المساء بينما تستقل عايدة سيّارتها لتلحق بموعدها مع فريد بسيوني، وفي منتصف الطريق أدركت أن السيارة لا تذهب بها إلى المكان حيث تتم المقابلة، عنّفت السائق بشدة، لكن الرجل في النهاية لديه أسرة يخشى عليها، والقيام بهذه المهمة مقابل المال، خير له من القيام بها تحت التهديد، وعندما أمسكت برقبة السائق، ترنحت السيارة، فقام السائق بصفعها كما تمنى طوال حياته، لأنها سيدة متسلطة، متكبرة يكرهها العاملون كلهم، ثم وقفت السيارة، وقبل أن تفتح الباب الجانبي لتخرج،

قام أحدهم بفتح الباب، ودلف ليجلس جوارها، ثم خدّرها، وبعدها لم تستفق مرة ثانية، حيث عادوا بها إلى المنزل، وجعلوها تتناول عشرون قرصا من الحبوب المنومة، وتركوها هناك لتموت في هدوء، وعلى سريرها الناعم.

وبخصوص لبنى، فقد جلبوا شيخا كبيرا ليشهد على نفسه بأنه القاتل، حيث كان يحاول سرقة المنزل أثناء غياب السيد محسن، والمثير للسخرية من وجهة نظر وكيل النيابة أن الشيخ هذا في الستين من العمر، ولا يقدر على صعود الدرج دون أن يصاب بالإغماء، وعندما طالب وكيل النيابة باستدعاء محسن للشهادة أجابهم أنه كان في بيت فريد أثناء حدوث الجريمة، وهو ما تم إثباته عن طريق حراسة منزل فريد، وزوجته، وأولاده، وحارس العمارة التي يقطن فيها محسن، والزيارة كانت قبل حدوث الجريمة بساعتين كاملتين، وحتى بعد حدوثها بثلاث ساعات عندما عاد محسن إلى المنزل، ليسقط مغشيا عليه، ثم عندما استفاق قد قام بالاتصال بالشرطة، وهو ما تأكدت منه المحكمة، كاد وكيل النيابة يصرخ من فرط الغيظ، وابتسم فريد لأن براءة أخيه لم تكلّفه سوى مليون دولار فقط لا غير، وعندما خرج محسن من المحكمة بعد الإدلاء بشهادته، كان منقبض النفس، لا ينفك يتذكّر نظرة لبنى البريئة يوم قتلها، ثم ركب إلى جوار فريد في سيارته، بينما جلس شكري إلى جوار السائق، وظل ينظر عبر زجاج السيارة إلى ازدحام الطريق، شاردا في الأصوات، ثم نظر إلى السماء التي بدت داكنة من خلف زجاج السيارة أسود اللون.

الفصل الثامن

لم تكن السيارات فقط هي الولع الدائم عند إسلام بسيوني، لكنها دائما ما ظلت حبا صادقا متزايد الشغف، هو يعرف كل أنواعها؛ بدءا من الأنواع المنخفضة التكلفة، مرورا بالسيارات العائلية الواسعة والرحبة مع مقاعد جلدية مريحة، وحتى يصل إلى قمة الجبل الأوليمبي الضخم الذي تتربع عليه – طبقا لرأيه الشخصي – تلك الحسناء السوداء الفارهة، المدعوة مرسيديس التي تسير على الأرض بذوقها الراقي، لكنه اليوم يركب سيارة سكودا السوداء، ذات النوافذ المغلّفة بالأسود المانع للشمس، والحاجب للتطفل، وإلى جواره فقط هاتفه السامسونج فضّي اللون، أوقف السيارة ثم نظر إلى شاشة الهاتف مترقبا، وهذا عندما وصل إلى الربع الخالي في الجانب الأيمن من الطريق الطويل المؤدى إلى مدينة الشروق، وعلى مقربة كيلو واحد من بوابة المدينة على أقصى تقدير.

هو يعرف قبل المجيء أنها لن تكون ليلة سهلة، لكنها ربما الخطوة الأكبر في الطريق الممهد لأسرته نحو الفوز، لقد بدأ الأمر قبل أشهر من الأن، فكما يقول فريد بسيوني دوما " لا يمكن الحصول على النبيذ، دون زراعة الكروم "، ولهذا فقد بدء موسم الزراعة باكرا جدا، ومنذ أيام فقط قد بدأت فصول الحصاد، إسلام يذكر الآن يومه الأول في التعامل مع تلك

الجماعة التي أصبحت مسئوليته التعامل معها،، يذكر تلك التفاصيل الصغيرة في ذلك اليوم الذى قرروا فيه عقد الصفقات ولو مع الشيطان نفسه، وفي الحقيقة فهم قد اتفقوا مع من يحملون صكوك الغفران مدفوعة الأجر، ومفاتيح الجنان شاملة تكاليف المبيت والطعام، لكن إسلام لم يصل أبدا إلى رئيسهم، أوصله بهم شيخ يملك جمعية خيرية إسلامية يقع مقرها في غرب القاهرة، وقد سحب نفسه بعيدا عن الشبهات وترك الأمر لمندوب عن الجماعة يتناقش مع إسلام حول المطلوب، ثم بدأ العمل من حينها، وبالفعل نجحوا في ترهيب وتخويف الكثير من الخصوم عن طريق اللعبة الماكرة؛ أولا تنفجر عبوة بدائية الصنع أمام المتجر أو المصنع المطلوب الضغط عليه، فيصاب المكان بالكساد الدائم ويخاف الزبائن من مجرد ذكر أسمه، ثم يدخل فريد بسيوني من أجل الحماية، أو الشراء، وغالبا ما تنجح الخطة، ولو لم تفعل، فستجيئ الخطوة الثانية وهي الاختطاف من أجل الفدية، ثم في النهاية يحصل الجميع على ما يريد.

أنها تلك المعادلة الشهيرة والمعروفة باسم "الجميع رابح" يحصل صاحب المتجر، أو المصنع على الحماية المطلوبة، أو القدر الكافي من الترهيب من أجل البيع، وتحصل عائلة بسيوني على النفوذ والقوة، وتحصل الجماعة السرّية على المال، بالطبع لا يعرف أفراد الجماعة أنهم متورطون في هذه الصفقات المشبوهة حتى أنوفهم، بل يعتقدون أن المسك يغسل أيديهم الطاهرة قبل الشهادة المنتظرة، وفقط أميرهم وبعض معاونيه يكسبون الدنيا

بتجارة رابحة وقليل من الخسائر البشرية التي لن تعنيهم، لكن لم يعد الحال كما كان في السابق، وقد أدركت عائلة بسيوني خطورة موقفها في الوقت الراهن، حيث تفتّحت الأعين أكثر، وباتت العلاقات المشبوهة بتلك الأسماء الملعونة تُكسب صاحبها الشبهات لا القوة، لكن لن يستطيعوا الخلاص منهم بسهولة، ولهذا كانت الخطة لازمة، وأولها أن يقابل إسلام شيخ تلك الجماعة الصغيرة بنفسه، ومعرفة قدرتها على التأثير، وأعداد أعضاءها إن أمكن، وهذا ما يجب أن يتم اليوم، حيث اتفق إسلام مع أستاذ كريم مساعد الشيخ المجهول أن تتم المقابلة الليلة، وفي مسجد آمن لا يعرف مكانه سوى الخواص، وهناك تتم تلك الصفقات، على الأقل هذا ما قاله كريم لكن بالطبع إسلام لم يصدق ولا حرف وإلا كان مغفلا كبيرا مثل القط توم؛ فاحتمالية أن يكون مكان اللقاء هو مكان لا يمت لهم بصلة، فهم ليسوا مثل السابق، وأصبح خوفهم أكبر كثيرا من ذي قبل، لكنها خطوة جيدة على كل حال.

وقفت درّاجة نارية جوار السيارة في الموعد المحدد تماما، وفوقها كان رجل أسمر البشرة، مهيب الطلة، طرق الرجل فوق زجاج السيارة ثلاثا، فترجّل إسلام من السيارة دون كلام في بذلته المعتادة، التي تجعله وسيما للغاية، خاصة وهو طويل القامة، وله وجه سينمائي مشدود الجلد، لامع البشرة، ركب إسلام الدرّاجة خلف الرجل الآخر بعد أن أحكم إغلاق سيارته، وبعد قرابة ساعة كانوا قد دخلوا إلى المدينة بشوارعها، وهذا ما

جعل إسلام مترددا في شأنهم، لماذا جعلوه ينتظر في الصحراء، بينما هم في الأساس يتمركزون داخل المدينة، ومع انتهاء الساعة، كانت الدرّاجة قد وقفت أمام مسجد صغير، يقع ملتصقا ببناية مكونة من ستة طوابق.

خلعوا النعال ودلفوا المسجد الذى كان ارتفاعه أربعة أمتار تقريبا ولم تكن الزخارف بشيء أساسي فيه فهو بسيط التصميم، ومفارش الأرض فيه على شكل سجّاد الصلاة، لونها أخضر قاتم، وبالداخل أربعة أعمدة، وبالطبع محرابا يقع جواره منبر خشبيا نقش عليه عبارة " لا إله إلا الله "، مضى الرجل بإسلام إلى رجل من سبعة داخل المسجد، كان الرجل جالسا فوق الأرض، مستندا إلى عمود مربّع، يرتدى جلبابا أبيض ناصع، وأمامه صحن من الطعام، حالما اقتربوا منه ألقوا عليه السلام فرده عليهم دون أن ينقطع عن الطعام، ثم أشار لهم بالجلوس، الصحن أمامه فيه أجزاء من الدجاج المشوي، يلتهمه بأرغفة العيش الأبيض المستقرة فوق فخذه، والمتناثرة أجزاءه فوق اللحية السوداء الطويلة للشيخ، يبدو عليه الانهماك الشديد بالطعام، حتى ظنّه إسلام لم يأكل منذ أسبوع على الأقل، فعندما كان يأكل لم ينظر مطلقا إلى شيء سوى وجبته، التي لم يبادر بإشراكهم فيها، انتظر إسلام أن ينتهي الشيخ من طعامه لدقائق، تابع فيها رجل كان يصلى خاشعا في زاوية من المسجد منفردا، وفور ما انتهي من صلاته جلس إلى الأرض وأخذ يقرأ ما تيسّر له من القرآن بصوت عذب لخمس دقائق، ثم رحل عن المسجد دون إضافات، بعدما انتهي الشيخ من طعامه، جاءه رجل

بصحن وأبريق من الماء ليغسل يديه وهو جالس، وعندما انتهي كانت لحيته مبللة بالماء، يتقطّر منها على جلبابه، مسح على لحيته، ثم وضعه يده على بطنه المنتفخ كبرميل، ونطق لحامل صحن الماء:

- اعطني الدواء.

فأخرج من جيبه شريط حبوب، تناول منه الشيخ واحدة، ثم بعدها تناول دواء الشراب الخاص بالمعدة، ثم أشار الشيخ للرجلان الغريبان عن إسلام أن يذهبا، وعرّف نفسه بكبرياء لا يليق برجل دين:

- أنا الشيخ ياسين عباس، أمير جماعة السيف والقلم.

أجابه إسلام:

- تشرفت بلقائك، هل لنا أن ندخل إلى صلب الموضوع مباشرة.

قال إسلام هذا الكلام الجريء والمفاجئ بعد أن ساهمت طريقة الشيخ في تناول الطعام في محو الصورة السريالية الزاهدة عن خياله، حيث بدى الرجل منكفئ على الحياة، عاكف عليها، وبدت الجنة أرض بعيدة، يورّثها بعقود وهمية لرجاله الذين سبق لهم تفجير أنفسهم، ليفاوض هو على أعمارهم:

- تفضل يا أخي في الإسلام، لك الكلمة.

وبعدها أشار لإسلام أن يتحدث، وانتهي الحديث بينهما على أن تتم عملية التفجير التالية أمام صالة السينما الخاصة برجل الأعمال " عبد الكريم البني " وفي نفس التوقيت يتم تفجير محل لتجارة الذهب، خاص

بالسيد رجل الأعمال المسيحي "سمير فرحات"، ولهم أجرا عن ذلك مليون وخمسمائة ألف جنيه مصري، وفي الجلسة حاول أن يبدو متأثرا بحديث الرجل عن الجماعة بشكل هو أقرب إلى الابتذال، واستبدل الشيخ كلمات مثل " الموت "، " التفجير "، و"المقابل"، بكلمات " الشهادة "، " الجهاد" و" الثواب والأجر "، وكأنه يحاول أن يغيّر هيئة الكلمات، الثابتة لنفس المعاني، وإلباس الحقيقة الدامغة لباسا فضفاضا من الاحتمالية والشك، ولم يُعن إسلام كثيرا بحديثه عن الآخرة، على الرغم من محاولة الشيخ الصادقة للتأثير، والحق أنه يحفظ كثير من الآيات التي يسترزق عبرها من الموت، وبعد إتمام الاتفاق تصافحا، وليتهما يبصران الدم يتقطّر من أيديهما خيطا رفيعا من السراب، ثم نطق الشيخ، وكان لا يستطيع نطق حرف "السين" بشكل صحيح:

– سلام عليك يا أستاذ إسلام، فليغفر لك الله خطاياك لأنك تساعد جماعة الإسلام، فلتصحبك السلامة، اليوم عرفت مكاني، ونلت ثقتي ومباركتي.

ابتسم له إسلام، وهو شخص يبصر الحقائق في الأنفس بمهارة، ويمقت الكذبة، لكنه يجاريهم بود مصطنع، وهو يدرك جيدا أن هذا المقر ليس بمكانهم، وهم لن يأتمنوا أحد على أسرارهم أبدا، لكنهم يريدون إيهامه بأنه نال ثقتهم، وعلى كل حال هو لن يغضب، لأنه أحسّ أن الشيخ ياسين هو الزعيم الفعلي لهم، وهذا هو بيت القصيد:

- السلام عليك يا شيخ.

قالها وهو يتابع ذبابة تحط فوق أرنبة أنف الشيخ بشكل جعل مظهره يثير الضحك، ومنع نفسه أن يقول للشيخ فلتذهب إلى الجحيم يا لعين، ثم صحبه رجل الدرّاجة إلى السيّارة مرة أخرى دون حديث، وأثناء خروجهما قد دهسا سربا من النمل يكافح لعبور العتبة الخشبية المتآكلة للمسجد، وظل الرجل صامتا حتى كاد إسلام يحسبه اخرسا، لولا أنه قال قبل أن يفترقا:

- الشيخ يبلغك أن الخيانة ممنوعة، ولو عرف أحد شيئا عن اللقاء فلن تعجبك النتائج، الصداقة خير من العداء.

لم يكن إسلام من نوع الرجال كثيري الكلام، وباعثي الرسائل، فهو أقرب إلى التخطيط منه إلى التلقائية، لهذا أشار برأسه أنه سمع الرسالة، ولم يعقّب عليها بكلمة، ثم دلف السيارة وأدار محرّك سيّارته ورحل.

ظل إسلام متواريا عن الأنظار منذ قرابة شهر، وقد انتهي الآن من حياكة معظم خيوط ضربته، ولم يتبق سوى تحديد موعد العملية، وتقديم الفداء المناسب، وبالفعل فقد تحدد موعد التفجيرات، وفي اليوم الموعود، في تمام الساعة الحادية عشر من صباح الاثنين، كانت الشمس تتوارى خلف مجموعة من السحب الخفيفة، وبينما عامل النظافة يكنس أمام محل سمير فرحات لتجارة الذهب، والواقع في منطقة عين شمس المزدحمة على الدوام، فقد انفجرت العبوة الناسفة، وتناثرت القطع الذهبية ممتزجة بشظايا زجاج

الواجهة، ثم تصدعت حيطان المبنى فوق المحل، وتهدمت أجزاء منه، وسقطت أجزاء من الطابق الأول فوق سقف المحل التي لم تتحمل الضغط، فسقطت إلى الأسفل مهشمة عظام رجل البيع في الداخل، وانتفض الغبار عن الأرض التي اهتزت، وشرخت طبقة سطحها، وقبل وصول رجال الدفاع المدني والإطفاء، فقد قام بعض أصحاب المحال في المنطقة بإطفاء الحريق الطفيف الذى تسبب فيه الانفجار، وتركوا لرجال الدفاع المدني المتأخرين مهمة انتشال جثة عامل البيع، والتي بدت عظامه كمسحوق تذروه الرياح، وأيضا جثة الرجل عامل النظافة، الذى تلونت بذلته الخضراء باللون الرمادي المترب، والأحمر الدموي، وبعد الانفجار بساعات، وأمام منفذ بيع تذاكر العرض في صالة سينما يمتلكها عبد الكريم البني بمنطقة مصر الجديدة، فقد انفجرت عبوة ناسفة قبل عرض الساعة الثالثة عصرا، وهو عرض منخفض الكثافة الجماهيرية، وتم إغلاق الشارع أمام حركة السيارات لساعات قليلة، وانتشر رجال الأمن أمام موقعي التفجيرات، في منطقتي عين شمس ومصر الجديدة.

وفي غرفة مكتب فريد بسيوني الواقعة في منزله، كان إسلام بسيوني حاضرا لأول مرة منذ شهرين، وكانا يتابعان شاشة التلفاز، التي تعرض برنامجا إخباريا على قناة مصر الجديدة، المملوكة لعبد الكريم البني، وظل مقدم البرنامج يتفنن في الترويّج لوطنية عبد الكريم البني صاحب صالة العرض، وأن العمل الإجرامي هدفه هو هدم صناعة السينما المصرية،

وإيقاف حركة النهضة الفكرية والسينمائية التي يقوم بها المجتمع المصري ويقودها عبد الكريم البني بنفسه، للنهوض بالقوى الناعمة لهذا البلد، فسأل فريد :

– هذا المذيع منافق بارع، أقسم لو أني لا أعرف دناءة عبد الكريم تمام المعرفة، لكنت سأصدّق ما يقال على الشاشة بكل سذاجة، ربما يجب أن ننشئ قناة فضائية خاصة بنا في يوم ما، هل تعرف يا إسلام ما هو اسم هذا المذيع؟

كان إسلام يتفحص خدشا في طاولة المكتب، ويتحسس عمقه بأصابعه، ثم التفت لشاشة التلفاز مرة أخرى ليلقي نظرة متأنية على كم الأكاذيب التي ينطقها المذيع، وتعجّب من حماسته الشديدة، وغضبته المصطنعة كمدفع نفاق متعدد الطلقات:

– كلهم متشابهون.

وإسلام أقل اهتماما للأشياء من فريد، فهو أقل اهتماما للحصول على مكاسب السوق، فالفوز هو الدافع الوحيد لفريد، بينما المتعة والتشفي هو أساس أفعال إسلام، ففريد قد يرى نفسه مذنبا أحيانا، لكن يقنع نفسه أنها الضرورة، بينما إسلام فلا يهتم لأحد، هو يرى الجميع مخطئين، والجميع مذنبين ويستحقون العقاب، لا يهتم للأبناء الحزانى، ولا الزوجات الثكالى، فريد نفسه يخاف من لا مبالاة إسلام للآخرين، فعندما قال فريد أن القتل هو شر لابد منه للتخلص من الفاسدون، ولو كان الفساد هو الوسيلة

للفوز فسيمارسها، كانت أفكار إسلام تتبلور حول أن القتل واجب من أجل فناء الخصوم، ولا يصنع الفوز سوى رجال لا قلوب لهم، انتهي سيلان الأخبار المرتبكة عبر الشاشات، وبدأت جلسات الغرف المغلقة، وأخيرا سمع فريد بسيوني الرنين المحبب لهاتف مكتبه، الرنين الذى لم يتوقف حتى ساعة متأخرة من مساء نفس اليوم، جعل شكري يجيب نيابة عنه، بينما كان يجلس مع إسلام لإتمام الخطوة الأخيرة، وفي نهاية اليوم تقريبا دلف شكري حجرة المعيشة حيث يجلس إسلام مع فريد، يتناولان الطعام بفردهما بعد أن انتقلت زوجة فريد وأولاده إلى الساحل الشمالي، حيث يستقبلهم سليم بنفسه، ويحرص على سلامتهم واستمتاعهم، جلس شكري إلى جوارهم على الأريكة بنيّة الفرش، ثم قال وهو يمسك بعنقود عنب أصفر:

– لقد حصلنا على زخم أكبر مما كنت أتوقع، حصلنا على موعد مع عبد الكريم البني بنفسه، دون أن يذكر اسم حلمي الصباغ.

شكري وحده كان يرتدى بذلة من الحرير، بينما كانوا يرتدون مناماتهم طوال الوقت، فقد اخذوا إجازة لمتابعة ما سيحدث بلا ضغوط، ابتسم ثلاثتهم، ثم أمسك إسلام بجهاز التحكم في مكيف الهواء، وقام برفع درجة الحرارة قليلا لتبلغ عشرون درجة، فامتعض فريد دون تعبير واضح، ثم قال إسلام :

– علينا أن نقوم بالخطوة التالية، وبسرعة.

وبعد أسبوع من الحادثة، وحين عجزت الأجهزة الأمنية عن الوصول إلى مرتكبي التفجيرات، قام إسلام بخطوته الأكثر جرأة، ففي الوقت الذي فيه الأوراق مفتوحة على جميع الاحتمالات، قام إسلام بمكالمة هاتفية لمدة خمس دقائق فقط، المحادثة لقيادي سابق في جهاز الشرطة، وقد سلمه ما يمتلك من معلومات حول الجماعة الجهادية، وأماكن تجمّع أفرادها.

قامت قوات الشرطة بحملة أمنية من أجل القبض على كل من وجدوه من الجماعة، وبعد ثلاثة أيام حلقت طائرة شركة مصر للطيران متجهة إلى جزر المالديف، وعلى متنها الشيخ جلال وأعوانه المقربين، ماضون في طريقهم إلى جنة الأرض الساحرة، فهم ملّاك الجنة الموعودة، التي باعوها إلى المغفلين دما، وباعوها إلى الشيطان مقابل مبلغا من المال دفعه إسلام بسيوني عن طيب خاطر، وفي المساء من نفس اليوم حيث غادرت الطائرة متأخرة عن موعد الإطلاق بخمس دقائق، أذاعت الشرطة بيانا تلفزيونيا مختصرا يفيد بالقبض على أفراد الجماعة المتهمة بالتفجيرات، وكانت لغالبية المنتمين لتلك الجماعة وجوه متشابهة كالحة، وشفاه رمادية قد هرب منها الدم، وكان لأكبرهم سنا وجه دائري، ولحية بطول عشر سنتيمترات على أقل تقدير، فتضاحك إسلام وقال في نفسه " يبدو أن المسئولية تؤول إلى صاحب أكبر لحية " ولكنه لم يدرك أن الأحوال لن تسير على الوتيرة السعيدة دوما، فالحياة دائرة كمقود سيّارته، وأثناء مغادرته لمنزله في صباح اليوم التالي فوجئ بدرّاجة نارية رديئة الطراز، عليها فردان يرتديان

سروالين من الجينز الأزرق، وجاكت أزرق لكل منها، كأنهما يرتديان زيا موحدا لمدرسة ما، بدت هيئتهما سخيفة بقدر كبير، لكنها لم تقلل من خطورة المدفع الرشاش بصحبتهما، والذى أخفياه بعناية بالغة لا تنفي عجزهما الفعلي عن الإدراك والفهم، وعقليتهما الدونية عتيقة الطراز، وبمجرد أن خرج إسلام من البناية حيث يقطن، ووجد الحارس نائما على الكرسي بشكل يثير الغثيان، حيث يرتفع شارباه كلما تنفس بصعوبة عبر منخاريه الكبيرين، نظر حوله ليبحث عن صغير الحارس عندما وجد الغبار فوق سيارته الحبيبة فوقعت عيناه عليهم، وقد ارتاب في أمريهما حين لمحهما بعينين زائغتين بسبب شعاع الشمس، وقبل أن يضع قدما على دواسة الوقود، اشهروا الستار عن سلاحهم وانطق وابل من الرصاصات يخترق معدن السيارة، ومنه إلى صدر إسلام وقدميه، وسالت الدماء على المقاعد الغالية حتى شربتها البطانة الداخلية.

انتفض جسد إسلام يستغيث بحشرجة ينطق بكلمات لا معالم لها، والحارس سقط عن المقعد الخشبي غارقا في دماءه التي عبرت فتحات جسده المغطى بجلباب أزرق قماشي أصبح مملوء بالثقوب، وتطايرت العصافير من فوق الأغصان العظيمة للشجرة الشابة على ناصية الشارع، وسقط رجل عن درّاجته الهوائية التي يحمل في سلتها الأمامية بضع ثمرات تفاح، فامتزجت ثمرات التفاح بالأتربة، وتهشمت واحدة بفعل عجلات الدرّاجة النارية للقتلة المسرعين، وقد تم نقل جثماني إسلام بسيوني وعم

حلمي حارس العقار في سيارة إسعاف واحدة، حيث جمعهما الرصاص وفرقتهما النقود؛ فما لبث إسلام أن نُقل إلى مستشفى خاص يجاهد الأطباء فيه من أجل بقاءه حيا، وتم نقل جثمان عم حلمي إلى مستشفى عمومي رفضت أبوابه أن تقبل الحالة في البداية، ثم استلموه في النهاية ليرقد هناك على السرير المتسخة ملاءته حتى نفدت دماءه، وقضى الدقائق الأخيرة معذبا قبل أن يصله كيس من الدم لتعويض المفقود منه، وفي النهاية توفي متأثرا بجراحه الغائرة، وبكته زوجته الدميمة كما يُبكى ملك، وفي المشفى الخاص وضع إسلام على الأجهزة اللازمة، ليتشبث جسده الواهن بآخر خيط يربطه بعالم الفانين، ووصل الخبر إلى عائلة بسيوني، لينفجر فريد غيظا، وغضبا، وشكري لا يقدر على التخيل، وبعد ساعة واحدة اصبحا حول غرفة العناية، يبصران جسد إسلام المعلق به عشرات الأنابيب، غير مصدقين ما ترى أعينهم، وكل ما يخطر ببال شكري هو " هل جاء الدور علينا لنموت ؟

" ظل الحال هكذا حتى وصل محسن والضجر من فريد يقتله، وعندما سمعوا جميعا عبارة الطبيب " أخاكم يحتاج إلى معجزة ليعيش " شعر محسن أن قدماه تخونانه، وقواه تخور، فرجع ليستند إلى الحائط قبل أن ينزلق ليجلس على الأرض بهوان، وصرخ شكري في الطبيب " بالتأكيد هناك طريقة ليعيش، هل تمزح معنا يا غبى " ، بينما يدرك فريد ما يحدث بوعى متقطع، وتنفس مضطرب، وفي رأسه ألف كلمة لا يمكن أن ينطقها،

ومشاعره تجبره على الدعاء بوجه يخلو من الحياء، يطالب بأمل لا يستحقه، وعقله لا يؤمن في انتظار يراه عبثيا من أجل معجزة لن تحدث،

وبعد أسبوع آخر كان عقل محسن قد خرب تماما، لم يعد يعرف ما عليه أن يفعل، لا ينفك يشاهد القتيلة تمشي في كل مكان، يراها حتى عبر شاشات التلفاز تشير إليه بإصبعها المخضب بالدماء، خلال هذا الأسبوع قد رسخت فكرة الموت في نفسه، حتي وجدوه متدليا من سقف غرفته عبر حبل خشن، وقد كتب في ورقة بيضاء عثر عليها المحقق مطوية في جيب الجثة.

" لم أحتمل رؤيتها في كل مكان، أنا لم أنم منذ مدة طويلة ولم اعد أحتمل، أنا ذاهب للحساب ".

الفصل التاسع

استيقظ علي غسان فزعا، ليدرك أنه كان نائما فقط لا غير، سحب جسده عن السرير، وارتدى سروالا قصيرا حتى ما فوق ركبتيه، ترك الماء يتسرب عبر خصلات شعره القصير، الظاهر كزغب أصفر فوق سطح أبيض عظيم، نظر إلى نفسه في المرآة ساخطا، ثم أزال شعره بماكينة كهربائية، فأصدر صوتا كأنما يجز قطع متفرقات من العشب الضال، سمع صوت عصفورا في الحديقة الخلفية عبر زجاج نافذة الغرفة، ولم يهتم كثيرا، نظر إلى ساعة الحائط ليدرك أنها الرابعة عصرا، والسبب في تأخر نومه هو أنه ظل طوال الليل فوق يناجى القمر عبر النافذة، فالسماء كانت بالأمس صافية، والبدر في السماء يضيء المدائن، وتخيل وجه أمه هناك على سطحه الأبيض، كأنه ماء رقراق تنعكس فوقه صورتها المضيئة، ويتوتر سطحه النقي بصوتها العذب، سمع صوت البستاني في الأسفل يغنى بلهجة صعيدية، كلمات غير واضحة، لكنه استملح النغم فيها، حيث بدت مليئة بالشجن، فذهب علي ناحية النافذة، ونظر إلى الأسفل،،

ظل يتابع البستاني (فرحات) المندمج في الغناء، وتهذيب الأشجار، وأخذ يحاول استبانة الكلمات دون جدوى، ثم سمع صوت عصافير تتباعد عن الأغصان المتشابكة، ثم تقف هناك وحيدة على السور البعيد عن

البستان بأمتار، وتنظر إلى البستاني بإمعان، لم يدرك إلى ماذا تنظر العصافير، هل تنتظر بنفاذ صبر أن ينتهي البستاني من عمله؛ لتهنأ هي براحتها، أم تراها تستمتع مثله بالنغم المليح، عاد علي مرة أخرى إلى داخل الغرفة، وارتدى فنالة بيضاء لا (أكمام) لها، نظر إلى تاريخ اليوم في الهاتف ليجد نفسه في شهر نوفمبر، وتذكّر أن عزوز ينقصه شهر واحد ليخرج إلى النور، نزل الدرج مسرعا فلم يجد أحدا في البهو الواسع؛ فالجميع لديه مشاغله، ثم خرج إلى المقاعد الخشبية في الخارج، حيث يجلس والده في الصباح على الأغلب، وهناك لم يجد والده، فجلس لبضع دقائق أسفل المظلات الخشبية، وسرعان ما أدركه الملل، فقرر الذهاب إلى البستاني، علّه يسليه قليلاً وهناك قد انتهي فرحات البستاني من عمله تقريبا، فجالسه علي رغما عن إرادة فرحات، أعدّ فرحات كوبين من الشاي الداكن كسمرة الليل، وظلا يتسامران حول عائلة فرحات، وعلى يستمع بإنصات جديد عليه، وشغف لا يرى فرحات مبرر له، فلولا أن على هو ابن غسان باشا لقال أن الشاب فقد عقله، أو هو ساذج من نوع ما، لكن حاشاه يقول هذا وهو البستاني قليل الشأن، وهو يعرف أنه قليل الشأن ولا يتبرم من الأمر، لكنه يتضايق عندما يعامله البعض على أنه أقل من بستاني، فهو ليس خادما في النهاية، لكن هذا اليوم عامله علي بلطف وود صادقين، حتى لم يصدّق الرجل نفسه، وحين غربت الشمس عاد على مرة أخرى إلى المقاعد الخشبية في الحديقة، وأشعل القناديل الصفراء والبيضاء، ثم عندما قتله الملل، وغلبه

الجوع، قرر العودة إلى البهو مرة أخرى، وأثناء ذلك قد وصل قاسم إلى المنزل، مرتديا قميص أبيض وربطة عنق سوداء، وسروال بذلة سوداء نزع سترتها، وكان يحمل ورود بيضاء، تجاهل علي مصافحته وتظاهر بالتأمل، بينما لم يبصره قاسم على الإطلاق وإن ظنه علي قد فعل وتجاهله بالمقابل، تسارعت خطوات قاسم ودلف الباب بسرعة، مضت خمس دقائق وعلى شارد الذهن، لا يعرف شيئا عليه فعله بالتحديد، فهو ينتظر خروج عزوز من السجن بفارغ الصبر، وتتشابه الأيام عليه في ذلك، ثم خطى ناحية المنزل، وقبل أن يدخل، وجد شخص بارد الطلة يخرج عن جواره بعد أن صافح والده في حميمية عند عتبة المنزل، مرتديا قميصا رمادي، وسروال أزرق يضع كلتا يديه في جعبتيه ويمضى إلى الأمام بلا تردد، ولا ينظر إلى أحد في عينيه تماما حين يسير، ظل علي يرمق الرجل وهو يعبر المدخل الطويل نحو البوابة الحديدية في الخارج في ثقة ودون مبالاة لشيء حولهن وفي الداخل وجد أباه ينظر بحنان إلى ظهر نفس الرجل، فسأل على والده على غير العادة:

- من هذا الرجل ؟

قال غسان ورأسه غارق في الحنين إلى الماضي البعيد، متذكرا أشياء لم يكن يظنه أنه سيرجع إليها مرة أخرى:

- هذا هو المسدس .

ومن خلف غسان يقف قاسم في وسط البهو غير عابئ بإبراهيم، بينما علياء جالسة على الأريكة تتابعه وهو منهمك بوضع الورود البيضاء في إبريق زجاجي أزرق، وهي تمسك بخصلات شعرها الأصفر الطويل الناعم، ويدها الأخرى حول خصرها القياسي، المزين بحزام أصفر ذهبي اللون يتوسط فستان أبيض يبدو منزليا بطابع السهرة، ثم سألته وخرجت كلماتها عذبة من فمها الدقيق المتورد :

– لماذا تحرص دوما على اقتناء الورود البيضاء بنفسك؟ لنا زمن في هذا المنزل ولم أجدك تهتم لشيء بهذا القدر ؟

فابتسم قاسم، ورجع إلى الخلف بعد أن استقرت الورود بمكانها، وتابع طلة علياء الراقية ليتذكر ذوقه القديم الراقي نفسه، وعاد لينظر إلى الورود البيضاء مرة أخرى وأجاب:

– ربما لأنني أحب الأزهار.

وكان علي يتابعه دون كلام، ولم يستطع منع نفسه من الضحك حين أبصر الخجل على وجه قاسم الذى تعوّده صلبا جامدا، فازداد حرج قاسم وضحك، وكلاهما لم يضحك بصوت عال منذ زمن، فتضاحكت علياء ثم وضعت ظاهر كفها على فمها كمن تقبّل يدها، ونظرت لهما باسمة الوجه، غائرة الغمازتين، وقالت:

– الأزهار سحرية كما يبدو.

ثم خرج الأب من غرفة المعيشة مبتسما لأول مرة منذ زمن، وضحك لقاسم معلنا أخيرا أن خطتهم الجهنمية المعقدة قد أخذت مسارا جديدا وخطيرا في النهاية دون أن يدرك أحد أنهم مجموعة من العرائس في يد فنان بارع، ولم يكن عليه أن يتأخر في سداد دينه، عليه الآن أن يفي بكلمته حتى يسدل الستار على الفصل الأخير من الخطة، في اليوم التالي وبينما يتناول الوالد وجبته الصباحية، جلب قاسم الجريدة الصباحية ووضعها مطوية فوق صينية الشاي، ثم جلس جوار والده وهو يقرأ الخبر في الصفحة الأولى:

" جريمة قتل بشعة تهز القاهرة، المقتول هو وليد الشواشي ويملك مقهي فاخرا في القاهرة، عثر علي الجثة وقد طعنت خمس طعنات قاتلة في أماكن متفرقة من جسده، هذا ولم يتم التعرف على بصمات الجاني حتي الآن، ولا تزال التحقيقات مستمرة في حادثة يلفها الغموض".

الفصل العاشر

سيطر الخوف على حلمي الصباغ، لأنه يعرف جيدا أن فريد بسيوني الآن مثل نمر جريح، والنمر الجريح في عالم الجريمة يمثل خطر دائم، يشكل صداع رأس لا يزول بالمسكنات، ولا ينتهي إلا بالموت، نتائج موت إسلام بسيوني ومحسن تشكلت في هيئة فاتورة صعبة السداد، سيظن شكري أن الفاعل هو حلمي الصباغ حتما، لطالما تمني حلمي الصباغ التخلص من عائلة بسيوني التي لطالما أرقته في نومه، لكنه يريد التواري الآن عن الأحداث تماما، فعلى الرغم من المقولة الشهيرة التي تقول " اطرق الحديد وهو ساخن "، إلا أن الحديد الساخن يسبب الكثير من الخسائر، لكن ما جرى تاليا جعل حلمي الصباغ يتراجع عن أفكاره السلمية، ففي الصباح قد أبلغه فاخر عبر الهاتف أن شكري بسيوني يسعي للفتك بهم، لهذا يتحتم عليهم تناوله قبل أن يظفر بهم، لكن ما يقلقه هو رأي حاتم عزام في كل ما يجرى، فهل سيوافق على التخلص من شكري بسيوني؟

حدثه حلمي الصباغ في الهاتف، وكان الرد مفاجئا " لا تقتل شكري بسيوني "، بدت الإجابة رزينة وهادئة، بل إنها في الأوقات العادية كانت ستعتبر نصيحة سديدة، لكن الآن اختلف كل شيء فلماذا إذن الإبقاء على عائلة بسيوني، لقد فقدت العائلة فرعين، وانقضي نصف ربيعها، فلماذا

التراجع عن موسم الحصاد، وأيضا شغلته فكرة مقتل إسلام بهذه الطريقة، فالفاعل بالتأكيد يرغب في التخلص منه من أجل الانتقام من عائلة بسيوني، لكن أيضا هناك احتمال بأنهم يريدون الوقيعة بينهما بمبدأ " فرق تسد "، إنها الطريقة القديمة نفسها والمستخدمة في التخلص من الأعداء منذ قديم الأزل، سرت الشكوك في رأس حلمي حتى الليل، لم ينم ليلها قرير العينين، بل إنه لم ينم من الأساس، وبدأ في ربط الخيوط بعضها ببعض، وتذكر أمر محاولة قتل ولده أو خطفه، وعدم الوصول إلى الفاعل الحقيقي، وبدأ يشك في الطريقة التي برر بها فاخر ما جرى يومها، وفي الصباح التالي لم تظهر علامات الراحة على كريمة، حاول حلمي أن يخفي آثار خوفه على حياته لكن لم يفلح، فهو يشعر أن الوقت عصيب، والخطر محدق ويجهل من أن تأتيه الضربة.

حاولت كريمة أن تعرف ما يجري لزوجها عبثا، فطاقم الحراسة الجديد ليس كالقديم، لم تبسط سيطرتها على طاقم الحراسة الجديد الذي يبدو أكثر تشددا وصرامة، خشت بشدة على زوجها وشعرت أن أمرا خطيرا سيحدث، فالحرس جميعهم على أهبة الاستعداد لشيء ما، وفي اليوم الذي يليه اجتمع زوجها مع فاخر، دام الاجتماع قرابة الساعة، سمعت بعض الضوضاء في الغرفة، بدى لها لوهلة أن زوجها يصرخ، وبعد خمس دقائق من القلق تجدد الصراخ في الغرفة مرة أخرى، توجهت صوب غرفة زوجها التي يحرم عليها دخولها طالما يوجد لديه ضيف بل أنه من المستحيل

مقاطعته بينما هو بداخلها، لكنها لم تحتمل وطرقت الباب ثم فتحته دون انتظار إذن الدخول، صرخ حلمي قبل أن يشاهدها:

- لا يقاطعني أحد الآن .

وعندما أدرك أنها زوجته تمالك أعصابه قليلا، كان واقفا هو وفاخر أمام بعضها البعض جوار النافذة المطلة على حمام السباحة، سألها بقلق حقيقي:

- هل حدث شيء ؟

نفت بإشارة من رأسها وقالت:

- سمعت صراخ فقط فتوترت، هل هناك خطب ما .

ذهب حلمي ناحيتها ووضع يده على كتفها وقال:

- لا شيء يا عزيزتي، دعينا بمفردنا أنا والسيد فاخر من فضلك، فلدينا أمر يشغلنا بشدة.

سمعت ما قال وخرجت فورا، ثم قبل أن تغلق الباب نظرت صوب فاخر الذي وجدت وجهه باردا، ولاحظت أنه يداعب أذنه بيده اليسرى وهي حركة عصبية يقوم بها في الأغلب عندما يتوتر، فقالت في نفسها " ربما يحاول أن ينجو من اللوم حول أمر ما، أو قام بالحركة فقط مصادفة وهي لا تعني شيء "، ثم خرجت من الغرفة مباشرة.

في الصباح التالي توجه حلمي بنفسه لمكتب فاخر المحامي، لم يطلب مقابلته حتى، بل ذهب إلى هناك بدون تجهيزات، لم يجد هناك سوى سليمان الذي صدمته المفاجئة، طلب حلمي أن يتناول قهوة سكر زيادة، وبينما يرشفها سأل سليمان:

- هل أمسكتم بمن نفذ محاولة الخطف ؟

تنحنح سلميان وأجاب قبل أن يهرب الصوت من حنجرته مرة أخرى:

- لا يا سيدي، لكننا اقتربنا.

سكت سليمان قليلا ثم أضاف بعد أن قتله الفضول:

- ربما يتأخر الأستاذ فاخر قليلا في الخارج.

- نعم أعرف، في الحقيقة أنا لست هنا من أجله، بل من أجلك أنت.

أخذ سليمان نفسا ثم طلب منه حلمي أن يجلس وسأله مباشرة:

- هل تريد أن يصبح لك مكتب خاص بك ؟

تلفت سليمان حوله ثم أجاب:

- نعم.

- حسنا سأطلب منك طلب بشكل شخصي، لو نفذته سيصبح لك مكتب خاص بك، وستعمل معي مباشرة وإلى الأبد، وإذا خذلتني فيه فسأصبح آخر وجه تراه في الحياة قبل أن يودعوك القبر.

جحظت عينا سلميان، دام الصمت لدقيقة، رشف حلمي من قهوته مرة أخرى وقال وهو يتابع سليمان المتردد:

- راقب فاخر هذا الأسبوع، ولو رأيته يقابل أحد من عائلة بسيوني، أو يتحدث معهم عبر الهاتف فبلغني فورا، ولن يعرف أحد شيئا، هذا سر بيننا

قال حلمي جملته وسط ارتباك سليمان الذي دارت في رأسه الأفكار، تذكر والدته، وتذكر كل التحذيرات التي تلقاها عن فاخر وخطورته، تجدد في رأسه الطموح بأن يوافق، قال حلمي قبل أن ينتهي من قهوته:

- هذه فرصتك، والفرص في عالمنا لا تتكرر مرتين.

قال عبارته وبعدها انهي قهوته، ثم أعطى سليمان ورقة مكتوب فيها رقم خاص لا يعرفه إلا القلائل، أشار سليمان برأسه أنه موافق فصافحه حلمي وهمس في أذنه " لقد اتخذت القرار الصحيح " ثم غادر المكتب.

خلال هذا الأسبوع وردت حلمي الصباغ مكالمة هاتفية من سليمان، لم تدم المكالمة طويلا، تحدد فيها موعدا للقاء في أحد المقاهي، وبالفعل تقابلا في صباح يوم أربعاء، المكان هو مقهى مكشوف في وسط البلد، لم يدم الصمت طويلا فقد شرع سلميان في القص مباشرة وجلس حلمي يستمع وهو يضع قدما فوق أخرى:

- لقد قمت بما طلبته مني.

- عظيم، والنتيجة ؟

- يؤسفني يا سيد حلمي إخبارك بأن شكوك في محلها.

قال عبارته الافتتاحية ثم بادر بإخراج مظروف أبيض من جيب معطفه وهو يتلفت يمينا ويسارا، وضع المظروف على الطاولة وكوّر قبضة يده ووضعها فوقه، ثم أكمل:

- في البداية ترددت في مراقبة فاخر، لطالما آمنت في إخلاصه لك، لكنه بالفعل قد رتب موعدا مع السيد فريد بسيوني بنفسه، لقد عرفت بالمصادفة فقد سمعته يتحدث مع أحدهم عبر الهاتف وعندما دخلت إلى الغرفة فقد ارتبك وامتنع عن الحديث طوال فترة بقائي معه في المكتب، وفي اليوم التالي تحينت فرصة لألقي نظرة على هاتفه، وراجعت سجل المكالمات فوجدته قد تم حذفه سلفا فساورني القلق، أكملت مراقبتي له حتى تمكنت من الإمساك به متلبسا، رأيته بأم عيني وهو يقابل فريد بسيوني في مطعم خاص في مدينة نصر، واجتمعوا مع رجل ثالث لا أعرفه لكن يبدو أنه رجل مهم، فهيبته وطريقة جلسوه توحي بأنهم يحترمونه بشدة، والمكان تشددت في الحراسة بشدة، تسللت إلى هناك وقمت أنا بالتقاط هذه الصور بصعوبة، الصور هي دليلي القاطع.

أمسك حلمي الصباغ بالمظروف الأبيض، فتحه وأخذ يتفحص الصور فيه، وجاءت كما توقعها تماما، الآن فقط اتضحت لديه الصورة التي رسمها في مخيلته، وأدرك حدود شبكة العنكبوت التي كاد يسقط فيها، لقد أصبح لديه أخيرا الدليل القاطع على الخيانة، ومعرفة الأفعى التي كادت تلدغه، ابتسم حلمي الصباغ لسليمان، أنهى مشروبه ثم قال:

- هل أنت واثق من أنك رأيتهم رؤية العين.

نطق سليمان مزهوا بنفسه:

- بكل تأكيد.

- هل تعرف الشخص الثالث في هذه الصورة؟

- لا أعرفه.

قام حلمي الصباغ من مكانه وهو يبتسم ثم وضع حفنة من النقود للنادل وقال لسليمان:

- علينا أن نذهب الآن إذن، ستأتي معي لمكان ما قبل أن أفكر مليا في التصرف المناسب.

ثم أخذه وركبا السيارة، جلسا معا في المقعد الخلفي وانطلق السائق بالسيارة حتى وصل لمكتب فاخر السري والذي يدير منه أعماله القذرة، فرح سليمان لأنه سينال مكافئة على مجهوده بكل تأكيد، وبالفعل فقد أتم ما طلب منه على أكمل وجه، عندما وصلوا قد تركا السيارة ثم صعدا على الدرج للوصول إلى الدور الرابع حيث المكتب، أخرج حلمي المفاتيح من جيبه و لم يعرف سليمان أن السيد حلمي لديه مفتاح هذا المكتب لكنه لم يندهش كثيرا، وعندما وصلا إلى الباب وقبل أن يفتحاه قال حلمي لسليمان:

- لقد اخترت موقع هذا المكتب بنفسي لفاخر، واليوم سأدخله لأول مرة بدونه، يبدو أن لا شيء يدوم للأبد.

ثم دلفا الشقة، تحركا بثقة حتى وصلا إلى غرفة المكتب، وعلى الحائط صورة فوتوغرافية لفاخر وحلمي معا وفي الخلفية نهر النيل، المشهد يبدو أنه على كورنيش النيل، جلس حلمي الصباغ على كرسي فاخر وطلب من سليمان الجلوس ثم قال ليشق الصمت فجأة :

- هذا لك.

ثم قذف بالمفتاح ناحية سليمان فأمسكه، وقال سليمان:

- وماذا الآن يا سيدي ؟

- لا تقلق، عندي خطة دقيقة، يجب أن تسمعني جيداً يا سليمان.

انتبه سليمان، ونظر لأول مرة في أعين حلمي الصباغ وقال:

- تفضل بالحديث.

أخرج حلمي من جيب معطفه سيجارة، أشعلها بقداحته الخاصة التي عليها نقش التنين، ثم شرع في الكلام:

- الأسبوع القدام عيد مولد ولدي أحمد، سأطلب من فاخر أن يدعو فريد بسيوني وشكري بسيوني وحاتم عزام لنصفي الخلافات بيننا في حفل عيد الميلاد الذي سيقام في منزلي، سأتظاهر بالجهل التام وسأجاريهم حتى النهاية، والخطوة التالية ستتم في نهاية الشهر، عندما أدعو لاجتماع مفاجئ مع فريد بسيوني وحاتم عزام لأخبرهم بأنني مصاب بالسرطان وقد بلغت منه مرحلة متأخرة لا يجدي معها العلاج، وعندما يطمأنوا تماما ويتأكدوا من الطبيب الخاص الذي سأشركه في لعبتي سأقوم عندها بالضربة القاضية

وأقتل فريد وشكري في يوم بيع أملاكي وتقسيم نفوذي علي كليهما، ولن يعارضني حاتم عزام عندما أعرض عليه الصور.

لمعت عين سليمان، وفهم لماذا يستقر حلمي الصباغ فوق عرش العالم السفلي، ولماذا يقال أن من يدخل إلى عش الدبابير لا يجد مخرجا، سكت حلمي لوهلة ثم قال لسليمان:

– أريد دعوة شخص خاص لهذا الحفل، شخص نعرفه جدا، ونثق فيه جدا بحيث يتمكن من حماتي ويتمكن من تنفيذ جريمة القتل، لكن أريده من خارج دائرة رجالنا، هل لديك اقتراحات ؟

ساد صمت التفكير قبل أن تنبت الفكرة في رأس سليمان كأنها ولدت من العدم:

– يوجد شخص يخشى منه فاخر، رجل عمل لدينا منذ فترة لكن فاخر يتهرب منه هذه الأيام، لكنه بارع

– قل الاسم فوراً.

– إبراهيم .

نفث حلمي دخان سيجاره في الهواء، ثم أشار لسليمان بالموافقة وبعدها قال:

– حسنا، اذهب أنت الآن يا سليمان، لا تقلق سوف أقوم بمكافئتك على خدماتك، مفتاح المكتب سيظل معك لكن لن تستخدمه حتى ننفذ المخطط بالتخلص من فاخر والبقية، الآن اذهب.

غادر سليمان بالفعل وبقى حلمي في المكتب بمفرده، وبينما الهدوء يلف المكان بدأ صوت وقع أقدام يتضح شيئا فشيئا، خطوات واثقة تخرج من الغرفة المجاورة لتدلف المكتب بدون تردد، يجلس ذلك الرجل قباله المكتب، نظر حلمي ناحيته وقال بنبرة هادئة:

- لقد تأكدنا من خيانة سليمان يا فاخر.

لم تظهر الصدمة على وجه فاخر، كتم غضبه وهو يقول:

- هل ستسامحه؟

شبك حلمي الصباغ أصابعه وقال:

- لا يمكن، لقد حاول الوقيعة بيني وبينك وهذا قد تسامحه أنت فيه، لكنه أراد لي الموت، ثم أنت نفسك من جعلتني أشك فيه ولا تنسي حوارنا في المنزل:

- نعم لكنه قريبي، بالتأكيد هو خائن لكن هل بالفعل قدم لك المعلومات بهذه السهولة.

ضحك حلمي وأجاب:

- بسهولة شربة ماء، لقد أراد أن يضحي بك دون أن يغمض له جفن، جلب معه تلك الصور المزيفة أيضا.

قالها ثم ألقى بالصور أمام فاخر ثم أكمل حديثه:

- وفوق ذلك فقد أعطاني اسم إبراهيم ليساعدني في الخطة كما توقعنا، لقد قام بالخطة بحذافيرها، لقد كتب عليه الموت، لكن دعك من هذا واخبرني، هل أنت واثق تمام الثقة في إبراهيم ؟

- ثقة تامة، هل أخبرته عن حفل عيد الميلاد ؟

- بالتأكيد وقد ابتلع الطعم، سيطير الخبر إليهم الآن بأن ذلك الحفل هو محاولة تمهيدية مني للتقرب منهم ثم الغدر بهم فيما بعد، سيفكرون أنه يجب عليهم الحضور بمنتهى الثقة، سيتظاهرون بالسذاجة حتى تحين لهم الفرصة المناسبة لأنهم يدركون أسبقيتهم علينا بخطوة، لكنهم لا يعرفون أنها النهاية، اخبر إبراهيم أن التنفيذ سيتم يوم الحفل، وقل له أن العملية صعبة عليه بمفرده ولهذا فقد قررت أن أرسل له أحد رجالي ليعاونه واسمه طارق.

الفصل الحادي عشر

في الصباح لم يطالع إبراهيم قرص الشمس، لا زال يفكر مليا في التفاصيل الكثيرة التي عليه مراعاتها وهو ينفذ مهمته الأخيرة، فاليوم هو عيد ميلاد أحمد حلمي الصباغ، سيبدأ الحفل في تمام الثامنة مساءا في فندق النيل وتحديدا في الطابق الاقتصادي الخاص، ارتدى إبراهيم بدلته السوداء، ثم أخرج من درج المكتب الخاص به صورة لنسرين، نظر مليا إلى وجهها المألوف، قال في نفسه أنه ربما يستحق فرصة جديدة معها، أو على الأقل هي تستحق المحاولة، لكن أولا عليه أن ينتهي من آخر صفحة في سجله الأسود، انتظر حتى بلغت الساعة السادسة ثم انطلق صوب الفندق المذكور، وفي طريقه إلى هناك يتذكر ما قاله حلمي الصباغ بالحرف، أخبره أن يذهب إلى هناك بدون أسلحة، سيدلف إلى الفندق ثم يصعد إلى الطابق الاقتصادي من سلم الطوارئ، وأمام باب الطابق المتفق عليه سيجد حقيبة معدة بما سيحتاج إليه من أسلحة، لقد تم تعطيل الكاميرات في سلم الطوارئ وفي الطابق حيث سينفذ العملية، سيجدهم جميعا في غرفة واحدة من أجل الاجتماع السابق على الحفل.

وبدأ إبراهيم في تجهيز صورة ذهنية لما سيقوم به، يرتدي قفازه الأبيض البلاستيكي، يصعد السلم، يمشي في الردهة المضيئة، ينظر إلى الغرفة من

بعيد، ويسمع صوت التلفاز من الغرفة المقابلة لها حيث يجلس الحرس الشخصي الخاص بهم، يدخل عليهم الغرفة ويفرغ فيهم الطلقات من المسدس المزود بكاتم للصوت، ثم يخرج بهدوء للغرفة التالية التي بالتأكيد سيفزع أصحابها من الضوضاء القادمة من الخارج، سيحاولون الهرب ويخرجون من المصعد الخاص بهذا الطابق الخاص، ومنهم من سيركض عبر السلالم الواقعة في الجانب الآخر من الردهة سيذهب هو ناحية اللذين توجهوا ناحية المصعد، والذين جروا ناحية السلالم سيظهر لهم مساعده طارق وينظر ناحيتهم بإشفاق، يرونه مرتديا زي أمن الفندق، سيحسبه الجميع جاء ليساعدهم حتى يحصد أرواحهم بطلقاته في النهاية، ينتهون منهم ثم يذهب إبراهيم نحو سلم الطوارئ، يضع المسدس داخل الحقيبة، ثم يغادر الفندق، أما الحقيبة فليس عليه التفكير بشأنها، سيقوم طارق بالتخلص منها، ثم سيغادر إبراهيم عن طريق المخرج الاحتياطي في نهاية المطبخ، الباب الذي لا يقوم أحد بفتحه إلا عن طريق كارت رقمي وقد حصل عليه حلمي وأهداه لإبراهيم قبل التنفيذ بيوم.

وصل إبراهيم في تمام السابعة والنصف وجلس إبراهيم في سيارته عند ناصية بعيدة عن الفندق، يستمع إلى أغنية كلاسيكية يحفظ لحنها، أخرج من جيبه صورة نسرين ونظر إلى عينيها، هو رجل لا يحب التعلق بأحد، لكنها علقت بذهنه وانتهى الأمر، ففي الصيد لا تدرك الفريسة أنها في الفخ إلا عندما تسمع خطوات الصياد، وهذا ما جرى له، فلم يعلم أنه غرق في حبها

إلا عندما بدأ يفقد القدرة على التنفس، أطال نظرته للصورة ثم وضعها مرة أخرى في جيب معطفه وبعدها فتح باب سيارته ثم انطلق ناحية الفندق، اللافتة عملاقة ومضيئة، البوابة فخمة وعلى الأرضية في المدخل سجاد رمادي مع نقوش لا معنى لها، وضع اسمه المزيف المدون في البطاقة التي جهزها له حلمي الصباغ عند أمن البوابة وانطلق في الداخل دون أن ينظر إلى أحد ودون أن يتجنب النظر لأحد، خطى ببطء نحو البهو دون أن يلتفت، ثم مضى نحو الحمام وانتظر هناك لحظات، خرج بعدها وتوجه ناحية مدخل سلم الطوارئ عن طريق البوابة المجاورة للمطبخ والتي تؤدي إلى السلم في نهاية الفندق، السلم يلتف حلزونيا مثل أفعى وخطوات إبراهيم تصدر نقرا خفيفا، يصل إلى الدور المتفق عليه ليجد الحقيبة السوداء في انتظاره، يخلع نعليه فتبقي قدميه في الجوارب فقط، يضع الحذاء في الحقيبة ويخرج المسدس، يركب فوقه كاتم الصوت ويضع خزانة الطلقات فيه، ثم بقية الخزانات في جعبتي المعطف، وقام بوضع سكين في جيبه الآخر، يقف الآن ويتحرك ناحية الباب، ثم ينتظر، ينظر في ساعة يده اليسرى ليتأكد من أنه الموعد المتفق عليه والذي تنقصه ثلاث دقائق، تمضي الثلاث دقائق لتبلغ الساعة الثامنة إلا عشر دقائق مساءً.

أخذ إبراهيم نفسا عميقا وأغلق عينيه للحظات ثم فتحهما على مقبض الباب، أداره وانطلق في الردهة كثعلب يحفظ طريقه، تحرك صوب الغرفة التي يقصدها بخطوات حثيثة، سمع صوت التلفاز في غرفة جلوس الحرس

والتي بابها مفتوح من أجل المراقبة، تحرك إبراهيم حتى وصل على بعد متر واح من الغرفة، يسمع الحرس يتبادلون الحديث عن مغنية شهيرة، بينما هو ينتظر اللحظة المناسبة ليجعلهم يرقصون في الجحيم على وقع رصاصاته، الموسيقى عبر التلفاز لم تعبر أذنيه بسهولة، فصوت أنفاسه ونبضات قلبه المتسارعة هي الغالبة، فعلى الرغم من خبرته في القتل إلا أن الأمر ليس يسيرا على القتلة كما يظهر عبر شاشات السينما، الأمر مرهق ومتعب، والأعصاب المشدودة مثل الأوتار أسهل في قطعها.

نظر إبراهيم للحائط المواجه له، ثم أدار جسده ناحية الغرفة وشاهد في الداخل ست رجال في بدلاتهم السوداء التي لا يمكن من النظرة الأولى أن تستوضح الفروق بينهم، أربعة منهم يجلسون فوق مقاعد واثره ويحدقون في شاشة التلفاز وفي يد أحدهم كأس زجاجي فيه مشروب أصفر اللون، والطاولة التي يلتفون حولها فوقها زجاجة وبضع كؤوس، وشاهد اثنين آخرين، أحدهما ينظر في هاتفه والآخر يقف عند ساعة الحائط، أطلق إبراهيم الرصاصة الأولى على الشخص المواجه له من الجالسين على الطاولة فثقبت مؤخرة رأسه، وقبل أن تسقط الدماء على الأرضية أصابت رصاصته الثانية ظهر الرجل الآخر الممسك بالكأس فتهاوى للأمام وسقط الكأس على الأرضية فلم يتحطم وسالت الدماء فلونت سترته بالأحمر، وفي تلك اللحظة تفطن الرجل الواقف عند ساعة الحائط لما يجري وبدأ في سحب مسدسه لكن الرصاصة الثالثة سبقته وشقت طريقها نحو جمجمته عبر عينه

اليمنى، صرخ أحد الرجال الجالسين على الطاولة وعندما التفت له إبراهيم وجده يقذف زجاجة الشراب ناحيته فتفاداها لتصادم الحائط فتنكسر وتتطاير شظاياها في كل الاتجاهات بينما يحاول الرجل الذي ألقاها أن يخرج مسدسه من جيبه وبالفعل قد نجح في إخراجه بسرعة مع استمراره في الصراخ وكأنها شحنه من الطاقة تسري في جسده، لكن وقبل أن يطلق قد عاجله إبراهيم برصاصة في كتفه الأيسر فترنح قبل أن تستقر رصاصة أخري بين جفنيه فارتد إلى الخلف مقذوفا، ورابع الجالسين لم يكن بالسرعة اللازمة، وبدى في وزنه الزائد كأنه يعمل في هذه المهنة بالمصادفة فأراحه إبراهيم من الحياة برصاصة في رقبته فانفجرت ماسورة دماء منها، وآخر الحراس هو أكثرهم كفاءة وحظا فيما يبدو فقد نجح في إشهار مسدسه وأطلق رصاصة أصابت الجانب الأيمن من بطن إبراهيم، لم يفقد إبراهيم تركيزه رغم الرصاصة، لم يفكر في المشاهد الجميلة في حياته، فالموتى فقط من يفكرون في الذكريات السعيدة لأنهم يدركون جيدا أنهم لن يحصلوا على فرصة ثانية لصناعة المزيد من الساعدة، لكن إبراهيم لم يترك نفسه لتلك الأوهام وهو يشعر بسائل دافئ ينساب من داخله ليلون قميصه بالأحمر، يدرك إبراهيم أن الرصاصة التالية ستقتله لا محالة.

بدأ الكوكب في الدوران بشكل أبطأ، تشبث إبراهيم بمسدسه ولم يترك الثواني تمر عبثا، استعاد القليل من توازنه وهو يعرف أنه ربما لا يملك سوى فرصة واحدة فقط للفوز، أطلق رصاصته نحو جسد الحارس لكنها

انحرفت بفعل ارتعاش يده لتصيب فخذ الحارس، وفي تلك اللحظة انتظر إبراهيم نهايته لأنه يعرف أن رصاصته الثانية لن تسبق خصمه، وفي تلك اللحظة شعر أنه يودع الحياة، انطلق الرصاصة ناحيته لكنها انحرفت لتعبر طريقها نحو الحائط من جوار رقبته تماما حتى أنه شعر بمعدنها الساخن يلمس رقبته، اغتنم إبراهيم فرصته التي أسقطها القدر أمامه كهدية غير متوقعة وأصدر مسدسه حكما بالإعدام بحق خصمه، رصاصة معدنيه في خده الأيمن حطمت فكه واخترقت رأسه فسقط على الأرض صريعا.

نتيجة لصوت إطلاق النيران بدأت تصدر جلبة من الغرفة الأخرى التي يجلس فيها ضيوف الحفل الذي لن يقام، فهم للأسف يعتقدون أن حفلة عيد مولد أحمد حلمي الصباغ سيقام الليلة في قاعة الفندق، لكنهم لا يدركون أن كل الترتيبات ملفقة، وأن الطابق الاقتصادي الذي يستضيفهم الآن قد تم حجزه بالكامل من قبل شخصيات وهمية، ليصبح فارغا من البشر، ليسهل مهمة إبراهيم في حصد أرواحهم، استعاد إبراهيم توازنه ووقف أمام باب غرفة الحرس والمواجهة تماما لغرفة الاجتماع الواقعة على الطرف الآخر من جانب الرواق، بدل خزينة الرصاص بسرعة، والقى نظرة في الخارج ليدرك أن طارق لم يصل بعد وأن أفراد أمن الفندق لم يصعدوا أيضا، يجب عليه أن ينتهي من المهمة بسرعة، انتظر حتى تم فتح الباب عن طريق شكري بسيوني الذي يرتدي قميص أبيض لبدلة خلع معطفها على الأرجح، وجد إبراهيم ينظر إليه مشهرا مسدسه، تجمد شكري لثانية كانت

كافية لتخرج الرصاصة من ماسورة الإطلاق لتستقر في قلبه، نظر شكري ببلاهة لصدره وحاول لمس موضع الدماء المتسربة وسقط في مكانه، تجاوز إبراهيم جثة شكري ودخل إلى الغرفة التي حوت طاولة فخمة يقف حولها أربعة رجال، أولهم هو عبد الكريم البني، والثاني حاتم عزام، وهو الرجل الأول في عالم الجريمة، رجل في الستين من العمر، وجهه أبيض مثل البدر ولحيته وشعر رأسه لونهم فضي مهيب، وله قامة طويلة، يرتدي بدلة رمادية وإلى جواره يقف ابنه محمد وله هيئة والدة ما عدا أنه أقصر منه قامة وأنفه أقصر قليلا، والرابع فريد بسيوني، لم يتوقع إبراهيم أن يبدأ أحدهم في النحيب فورا وهو عبد الكريم البني الذي أخذ يردد وهو يرتجف.

- لا تقتلني أرجوك، سأعطيك كل ما تريد.

فأصابه إبراهيم برصاصة في صدره والأخرى في رقبته، أما فريد بسيوني فقد جرى باتجاه إبراهيم ليدفعه خارج الغرفة، لكن أمسكه إبراهيم من رقبته بيسراه وصدمه في الحائط وفي تلك اللحظة أخرج محمد حاتم عزام مسدس من جيب معطفه وهو الأمر الذي أكد حلمي الصباغ أنه لن يحدث وأنهم غير مسلحين، لكن يبدو أن حاتم عزام لم يشعر بالأمان منذ البداية، أطلق محمد رصاصة تجاه إبراهيم لكنها أصابت يد فريد بسيوني، أمسك إبراهيم بجسد فريد كدرع بشري، لكن محمد لم يتردد وأطلق رصاصتين غاصتا عبر لحم فريد وكادتا أن تنفدا لجسد إبراهيم الذي شعر بصدمتها في بطنه، أعجزه ألم بطنه عن التصرف بسرعة هذه المرة فدفعه محمد ليلقي

إبراهيم بثقل وزن فريد ناحية محمد الذي أبعده بيده عن نفسه واستغل إبراهيم الفرصة ليسقط مسدسه أرضا بضربة في كف يده، لكن محمد تصرف بسرعة ودفع نفسه نحو إبراهيم واحتضنه ودفعه بقوة ليصطدم بالحائط، وجرى حاتم عزام نحو الردهة بانفعال ليجلب مسدسا وفي تلك الأثناء توقف المصعد وانفتح بابه ليخرج منه ثلاث رجال أمن من الفندق يرتدون زيهم الأزرق الموحد، نظر لهم حاتم بطمأنينة وصاح:

- تعالوا هنا.

وعندما التفت لينظر إلى المعركة الدائرة مع محمد شاهد إبراهيم يمسك بولده من الخلف، ويشهر سكينا من جيب معطفه ثم نحره بها وتدفقت الدماء ناحية الوالد المصدوم مثل نافورة الحدائق العامة، تجمد حاتم عزام في مكانه للحظات، معه المسدس في يده وإبراهيم معه السكين، الغلبة واضحة ولا تقبل شكا، لكن إبراهيم استغل تلك اللحظات التي أضاعها خصمه وأخذ من جسد محمد درعا له ثم أغلق باب الغرفة ليطلق حاتم عزام رصاصاته لتخترق خشب الباب المغلق متجهة نحو المجهول، وفي الردهة دفع طارق باب الطوارئ، ثم أطلق الرصاص على الحرس فأسقطهم واحدا تلو الآخر ولم يشاهد حاتم عزام الذي قد توارى في نفس اللحظة داخل الغرفة التي سفكت فيها دماء الحرس، اقترب طارق من غرفة الاجتماع ليتأكد من إتمام المهمة، فقد قلق عندما لم يشاهد إبراهيم في المكان، وعندما وصل أمام باب الغرفة باغته حاتم برصاصتين في صدره ثم ثالثة في

رأسه فسقط على الأرضية جسدا بلا روح، خشى حاتم على حياته عندما شاهد طارق واعتقد أن هناك رجال آخرين سيصلون في أقرب فرصة للتخلص منه فتخلى عن فكرة انتقامه من القاتل المباشر لمحمد، لأنه يعرف أن حلمي الصباغ هو المدبر بلا شك، ويجب أن يقتل الأفعى الأم، ركض ناحية مخرج الطوارئ ليهرب بسرعة، فتح الباب ونزل ركضا، لم يسعفه السن ليبلغ الطابق الأرضي بسرعة، وتوقف ليأخذ نفسا ثم عاود النزول مرة أخرى في السلالم الحلزونية، أصيب بدوار مفاجئ من أثر الصدمة فيما يبدو وكاد يسقط، توقف قليلا ثم عاود النزول مرة أخرى ووصل في النهاية إلى الباب المؤدي إلى المخرج المجاور للمطبخ، وفجأة ظهر من خلفه إبراهيم وأمسك به من ظهره وحاول أن يذبحه لكنه أمسك بيده، ظل يقاوم حتى انحرفت السكين وغرزت في خده الأيسر ولم يستطع الصراخ لأن فكه ورقبته مضغوطين حتى أنه يكاد يختنق، همس إبراهيم في أذنه:

- قل الوداع.

انقضت نصف دقيقة من المقاومة وفي النهاية خارت قوى حاتم عزام، أغمض عينيه واستسلم للنهاية القبيحة والمؤلمة، ذبحه إبراهيم وانتهى الأمر، تلون الباب بالأحمر، ألقى إبراهيم بالجثة على الأرضية، ودلف إلى المطبخ عبر الباب، صفان طويلان من المواقد والمعدات اللازمة للطهي، عشرة طهاة أو ربما أكثر في أزيائهم البيضاء، تحرك إبراهيم بهدوء ولم يسأله أحد عما يفعل، لم ينظر لأحد ولم ينتبه له أحد، عندما اقترب من الباب لمحه

طاهي شاب في الثلاثين أو ربما أصغر قليلا، شاهد الدماء فوق القميص الأبيض تنتشر مثل بقع الصلصة، نظر إليه إبراهيم، أشار له بعلامة الصمت وهو يخلع القفاز البلاستيكي عن يده ومضى في طريقه نحو الباب، خرج للشارع وألقى القفاز في أقرب صندوق قمامة، يتحرك ببطء بينما يزداد الألم في بطنه، بدأت الدماء تزداد، ظل في طريقه وكادت سيارة مسرعة تصدمه، توقف السائق على بعد أمتار وسبه عدة مرات فلم يجب أو على الأقل ينظر، انطلق السائق في طريقه ووصل إبراهيم إلى سيارته في النهاية، انطلق مسرعا من المكان، وعيه كاد يغيب لأكثر من مرة لكنه قاوم حتى وصل إلى طريق فرعي وهناك بدل السيارة بأخرى تم وضعها له هناك عن طريق أحد رجال حلمي، ركب السيارة الجديدة زرقاء اللون ثم قام بإشعال النيران في السيارة التي نفذ بها المهمة وانطلق في طريقه، تحدث مع فاخر عبر الهاتف وقال له:

- لقد تم الأمر، لكن مات طارق.

- لا تقلق سنتدبر الأمر، هل هناك دليل خلفك؟

نطق بصعوبة: - لا يوجد لكني مصاب، احضر لي طبيبا، أنا في طريقي للعنوان الذي تعرفه:

- حسنا لا تقلق، في أقل من ساعة سيصل الطبيب إليك.

قاد إبراهيم حتى وصل إلى الشقة التي اعتاد مقابلة نسرين فيها، صعد بصعوبة، الألم يشتد والدماء تسيل منه لكن الألم لم يمح صورة نسرين من

مخيلته، فتح الباب ودلف، ضغط زر الإضاءة وتحرك نحو غرفة النوم، جلس على السرير وخلع المعطف، ثم وبمساعدة السكين نزع القميص بعد تمزيقه ليظهر طرح الرصاصة في بطنه، سمع أحدهم يفتح الباب، أخرج المسدس من جيب سترته بسرعة، لكن سرعان ما جاء صوتها من الخارج تقول:

- هل أنت هنا يا حبيبي.

- نعم أنا هنا.

وضع المسدس مرة أخرى من يده، تبدل خوفه من الموت إلى خوف من مواجهتها بالحقيقة، ستصاب بالفزع عندما تراه في هذه الحال، لكنها لحظة الحقيقة، هي تحبه ولن تتركه بهذه السهولة، فقلبه طيب كما اعتادت أن تقول، عليه فقط أن يطمئنها بطريقته، يضمها إلى صدره، ويقبل رأسها، يمرر أصابعه خلال خصلات شعرها، يشتاق إلى نسيم الهواء في وجودها، انتظر لحظات ليشاهدها أمامه في ملابسها المعتادة، قميص وسروال جينز أزرق، نظرت إليه بدون خوف ولا قلق عليه، وأشهرت مسدس في وجهه، قال بتلقائية، حتى أنه كاد يبتسم ببلاهة من وقع الصدمة:

- أنتِ معهم ؟

أجابت:

- نعم، من البداية

ثم أطلقت رصاصة في رأسه.

وصل خبر موت مصطفي كالبرق إلى فاخر في مكتبه الخاص، لقد تمت المهمة بنجاح مبهر، نطق فاخر لحلمي الصباغ الواقف في الجزء المقابل للنافذة في زاوية الغرفة:

– لقد تم الأمر.

ابتسم حلمي، تنفس كالملك يوم جلسوه على العرش، شعر بلذة النصر وبدت له بمذاق الموز، لذة النصر تلك التي يموت في سبيلها الشجاع، ويغدر من أجلها اللئيم، لكن الطريق إليها معبد بالشوك والدماء، فلا لذة فيما لا صراع عليه، استنشق الهواء مرة أخرى كأنه ولد توا ثم نطق:

– لقد فزت.

– تبقى فقط سليمان، سنقتله فورما يصل إلى هنا، هل أخبرته بنفسك يا سيدي أن يصل إلى هنا ليراقبني ؟

– نعم فعلت.

قال حلمي عبارته ثم نظر في ساعته وأكمل:

– موعده الآن بالضبط.

مضت لحظات من الترقب قبل أن يدق أحدهم جرس الباب.

جلس حلمي الصباغ على كرسي المكتب المواجه لباب الغرفة، وأشار لفاخر أن يفتح الباب وهو يقول:

– أراهن أنه سيفقد الوعي عندما يشاهدني.

تحرك فاخر إلى خارج المكتب، ثبت حلمي نظره على الباب وركز سمعه ليفطن كل حركة في الخارج، لكنه لم يسمع صوت حديث، سمع وقع خطوات فقط، وعندما وصل فاخر إلى باب المكتب دخل مباشرة ووقف في زاوية ثم دلف من وراءه سليمان ليشاهد حلمي الصباغ جالسا على المكتب في كبرياء وزهو، نظر سليمان لفاخر بطرف عينه ولم تبد عليه علامات الدهشة، ابتسم حلمي الصباغ حتى ظهرت أسنانه من تحت شفتيه، لكن سليمان لم يحرك ساكنا، لم ينطق ويطلب الرحمة كما اعتقد حلمي، شعر حلمي أن خطبا ما أصاب سليمان، نظر لفاخر وبدأ يقول:

– سليمان به خطب ما، لماذا لا يشعر بالصدمة ؟

لم يجب فاخر ونظر لحلمي ببرود وفي تلك اللحظة دلف الغرفة غسان باشا وولده قاسم غسان، تجمد حلمي في مكانه وتجمد لسانه في حلقه الجاف، لم ينتبه حلمي لنفسه ووجه يحمر من الدهشة ليشبه ثمرة الطماطم، أراد تجميع أفكاره، أشار ناحية فاخر وفقد الكلمة قبل أن ينطقها، ثم نظر ناحية سليمان ولم ينطق أيضا، يبدو أنه فقد العبارات في مكان ما، سقطت منه سهوا، وعندها أدرك أن الصدمة أبلغ قولا من اللغة، تحرك من على كرسيه ووقف أمام فاخر وسأله:

– ماذا يجري ؟ لقد فزت فلماذا هم هنا؟ أجبني.

ثم تحرك ناحية سليمان، جذبه من ذراعه وسأله:

- وأنت خائن، يجب أن تموت الآن، وبعدها أجلس على الكرسي فائزا، ولن يمسسني أحد.

لم يجبه أحد، شعر بالحسرة واليأس وفي تلك اللحظة فقط السيطرة على أعصابه، شعر أنه في خطر محدق، أخرج مسدسه وضغط الزناد عبثا، فأدرك أن مسدسه خالي من الرصاصات، نظر نحو فاخر الذي حرك رأسه بعلامة الإيجاب، وكأنهما خاضا حديثا بدون كلمات يستفسر فيه حلمي عن مسدسه فيجيبه فاخر بأنه من أفرغه من أوامر الموت، أخرج قاسم مسدسه المزود بكاتم للصوت ووجهه نحو حلمي الذي لا يزال ينظر إلى كل شيء كأنه حلم عابر، ينظر إليه بعينين جاحظتين كأنهم غير موجودين إلا في خياله، فرك عينيه من أجل الاستيقاظ من الكابوس المروع الذي يعيشه، لكنه لم يفق، أدرك الآن أن شكوكه الأولى حول وجود يد خفية خلف الستار هي منطقية وحقيقية، رفع غسان يده في الهواء وقال:

- الآن يمكنك رؤية اليد التي حركت جميع الخيوط، أنا أفوز.

وقف غسان أمام حلمي الصباغ تماما، نظر إليه بدون انفعال أو تهور، نعم هو يريده ميتا لكن يجب أن يصبح متحضرا، سيموت الرجل عما قريب فما الفائدة في إذلاله، عليه أن يظهر بعض الاحترام للموت على الأقل، قال غسان بنبرته الهادئة نفسها والتي لم تتبدل بمرور السنوات:

– هل تعرف لماذا خسرت ؟ ليس لأني أفضل منك في كل شيء، أنا فقط أكثر صبرا منك، في مرحلة ما قد أدركت يا حلمي أن أمرا ما يحدث، أن تلك الحوادث مدبرة وليست على سبيل المصادفة، عرفت بنفسك أن هناك شرر مفتعل تسبب في الحريق الكبير، أن هناك رجال في الظلال تقوم بأمور محكمة، وتلك هي طريقة تفكير لاعبي الشطرنج يا حلمي، يعرفون أن الخطة الجيدة تفوز دائما، لهذا أنت بحثت عن الخطة التي تخشاها وقد صنعتها لك بنفسي، لقد خسرت بالطريقة التي يخسر بها لاعب الشطرنج المحترف ويجب أن تفخر بهذا، لقد خسرت عندما اكتشفت الخطة وانتصرت عليها وشعرت أنك قد اقتربت من النصر أكثر من أي وقت مضى، أنا وراء كل تلك الخطط يا حلمي، الخطط المزيفة والحقيقية، خطف ابنك أحمد، وإلقاء السيوطي في فم بسيوني، ثم التخلص من عائلة بسيوني فردا فردا، حتى انتحار محسن كان ملفقا، وضعنا له عقاقير تزيد من التخيلات والمسكين ظنها للعلاج، لكن أنا متفهم فالصدمة أعمت الجميع، وحاتم عزام وضعته أمامك في فرصة عرفت منذ البداية أنك ستغتنمها، وعندما وصلت لتجلس على العرش يا صديقي، أدركت أنك جزء من الخطة، لقد خسرت يا حلمي لأنك أردت الفوز وبشدة، لكن نحن فزنا، لأننا في الظلال والآن حان الوقت لنأخذ دورنا في النور.

ابتسم حلمي، نعم لقد ابتسم في البداية، ثم بعدها بدأ يضحك بهيستيريا، قاطعه صوت جرس الباب، سكت لأنه شعر بأهمية الأمر، ربما اكتشف أحد رجاله الخطة برمتها ووصل لمساعدته، بدأ التوتر يظهر على وجه قاسم وهو ينظر لوالده في دهشة، ثم ذهب سليمان ليفتح الباب ودام الصمت لدقيقة قبل أن يدلف باب الغرفة علي غسان وفي يده الصيد الأخير، يمسك بأحمد حلمي الصباغ مكمم الفم ومكبل اليدين خلف ظهره. وفي تلك اللحظة انفجر غسان من الضحك وهو ينظر نحو قاسم ولده الذي أصابته الدهشة لأنه ليس على دراية بهذا الجزء من الخطة، أراد حلمي الصباغ أن يركض ناحية ولده لكن فاخر أمسكه من الخلف، أخرج غسان مسدسا من جيب معطف بدلته وقال:

– هذا هو الحساب الأخير، لقد خسرت زوجتي فيما مضى مما جعلني أموت كل يوم وأنا حي، ستجرب هذا الشعور الآن ولو للحظات قبل أن تلحق به.

انهى عبارته ثم أطلق رصاصة في قلب أحمد حلمي الصباغ فسقط على الأرضية فاغر الفاه، حاول حلمي الصراخ لكن فاخر أحكم إغلاق فمه، ارتعش قاسم مما جرى، لطالما اعتقد أن الانتقام هو سبيله لتحقيق العدالة، لكن ما هي العدالة التي تأخذ الأبن بجريرة الأب، فهم الآن لماذا قال والده أن الأمر لا يتعلق بالعدالة، وأن والده وحشا، شعر علي غسان أيضا بالقليل من الشفقة على الولد، لكنه تذكر يوم وفاة عم جميل، وأن هذه الحياة لا

تحتمل الضعفاء، الحياة هي حلبة صيد، فإن لم ترد أن تصبح أسدا عليك أن تتحمل دور النعجة، سالت الدموع الحارقة على وجه حلمي الصباغ، رمقهم بنظرة وعيد، عض يد فاخر في النهاية وافلت من قبضته ليندفع نحو غسان قبل أن يمسك به سليمان، ضربه قاسم بقبضته في المعدة فخبت قوته وانحنى، وقف غسان أمامه تماما، أمسك برأسه ورفعها ليبصر عينيه، همس له " كنت أريدك أن تبلغ زوجتي السلام، لكن المكان الذي سنذهب له أنا وأنت في العالم الآخر يختلف تماما عن مكانها، لهذا انتظرني هناك "، أنهى عبارته ثم أطلق رصاصة في قلب حلمي الصباغ، تبعها بثانية في رأسه، سقط حلمي على السجاد الذي صبغ بالأحمر، تنفس غسان الهواء بشراهة، نظر لقاسم الذي ظل صامتا مندهشا لأنه لم يعرف عن خطة قتل أحمد وعلى الأرجح ما كان ليوافق عليها، قال له غسان وكأنه يجيب عن أسئلته التي طرحتها نظراته:

- فعلت ما هو ضروري من أجل سلامتنا.

لم يتوقع قاسم أن أخاه الرقيق علي هو الذي سيشاركه الوالد في هذه الخطوة الخطيرة المتعلقة بمستقبل الأسرة، عجز قاسم عن الفهم، لكن عليه تمثيل دور المتفهم، تحرك غسان ناحية ولده علي، ربت فوق كتفه وقال:

- أحسنت.

ثم التفت فجأة ونظر لفاخر مطولا دون كلام، شعر فاخر بسخونة في جسده، وتقلب في معدته، ثم نظر لسليمان الذي سيطر الرعب على نظراته وغرق وجهه في العرق، تبدلت ملامح غسان من المراقبة والارتياب إلى الابتسام ثم قال موجها كلامه لفاخر وسليمان:

- يجب تنظيف المكان.

تمت

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.